

أَمِينُ الْجَوْلِي

د. كامل سعيان



أعلام العرب

١٠٣

الأربعين الطوي

د. كامل سعتان



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٨٢

نشأته

ولد - رحمه الله - في اول مايو سنة ١٨٩٥ م في ذلك الوقت الذى أخذت فيه البلاد تستعيد وجودها ، وتتعرف على حقيقتها ، لتقف على قدميها ، بعد نكسة ثورة عرابي ، وما تبعها من عوامل التمزق الداخلى والخارجى .

كان مولده بقرية (شوشاى) - المعروفة باسم (الشيه) ، من قرى مركز (أشمون) ، بمحافظة المنوفية - لوالد دخل الأزهر ، وحصل قدراً من المعرفة أهله للحصول على شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية ، وهو قدر يتفق اليوم ومستوى التعليم الابتدائى - على حد قول أستاذنا (١) الذى كان يذكر من الأسئلة التى سئلتها والده فى هذا الامتحان (أعرب : جاء مصطفى) والجملة من الألفاظ التى تعتمد على سرعة البديهة ، ويتنافس الطلاب فى حلها - وانتهى امر الوالد الى الحقل ، يعمل مع الجد الفلاح القح ، القوى البنية ، الذى عمر حتى نيف على المائة .

(١) كل ما ورد من أخبار وأحداث تتصل بحياة الأستاذ الخولى ، ولم يسند الى غيره ، فهو له ، من خلال أحاديث أجريتها معه قبيل وفاته ..

وكان الوالد (إبراهيم) متين التكوين ، ربة ، يحب
الفروسية ، ويمارس لعبة العصا (التحطيب) ، وضرب النار - برغم
الزى الأزهرى الذى أخذ نفسه به - ويهوى جمع الأسلحة النارية
والعصى الثمينة ..

كاد له جماعة من الأعراب الذين أقاموا بالقرية ، واصهروا
الى عائلته ، لخلاف قديم مع الجد (عامر) ، فأحاطت به عصي
غليظة ، وهو جالس يتوضأ من مسيل ساقيه .. ومع أن الدماء
كانت تغطى عينيه ، لم يستسلم ، وظل يقاوم ، حتى اضطر
المهاجمون الى الفراز ، حين خف اليه رجال القرية .. واصر
على الرواح سائرا على قدميه ، حتى لا يظن به الظن ..

جراة .. وإباء .. وعناد ..

حتى - وهو فى مرض موته - أصر على ألا يخرج الى الطبيب
راكبا ، كى لا يشمت به الشامتون .. اعتزاز .. وأخذ بتقاليد
الفرسان ، فلا يراه الآخرون فى مظهر ضعيف ..

وعلى مثال خلق الفرسان كان خيرا سخيا ، يسعى الى
قضاء حوائج الناس ، مما أكسبه حبهم ، وألف القلوب من
حوله ..

وقد ظل الوالد حفيا بابنه البكر (أمين) ، حريصا على أن
يكسبه الصديق والصراحة والجراة ، معنيا بتربيته على أساس
الممارسة العملية لشئون الحياة .. يقوم على زراعة الحقل ،
ويتصل بالمستولين فى القرية والمركز لقضاء الحوائج ، ويشترك
فى فض الخصومات ، ويجد القدرة - بعد أن اختار الله الوالد
الى جواره سنة ١٩١٩ م على أن ينهض بأعباء القرية ، بينما هو
يستعد لنيل اجازة القضاء .

وكان الأستاذ الخولى يعتز بهذه الأبوة الغالية ، وأصولها حتى آخر أيامه . . . التقيت به - فى عام توديعه - ليحدثنى حديثه هذا ، فقال - فى مرح ودود - تستطيع أن تتعرف على سلسلة النسب من (أكمل) - صغيره بالرحلة الاعدادية وقتئذ . .

فانطلق (أكمل) - فى سرعة - يسرد حبات السلسلة الى الجد السادس :

أمين إبراهيم عبد الباقي عامر اسماعيل يوسف الخولى . .
وضحك الوالد عاليا ، وابتسم الصغير فى ثقة واعتداد . .
ولعله قصد من وراء هذه الطريقة - اذ قل من يعنى بهذا الأخذ القديم فى زمننا ، وبخاصة أهل المدينة - أن يزيح القيود المصطنعة ، ويجعل (البساط احمدي) ، كما ذكر . .

وقد شجعتنى هذه الروح الطيبة على أن أتنفس بعمق فى رحاب هذا الأستاذ العجيب ، وأن أتناول معه موضوعات ماكنت لأشير اليها من قريب . .

وقد ذكر أن حفظ النسب لم يكن مراد أصلا ، وإنما هو حديث مع والده عن الجد (عامر) الذى اشتهر بالعناد والصلابة فى مواجهة (الأغا) ناظر (الخط) ، الذى كان يسوق الناس مسخرا اياهم فى حفر الترع والقنوات بأرضه ، فاذا اشتد بولى الأمر - حينئذ - غضبه ، ضربه بالسوط على رأسه عارية ، فلا يزيده الضرب الا عنادا واصرارا على عدم طاعته ، مرددا قوله الماثورة : (أنت أفندينا وأنا عامر أبو دؤابة) أى ذؤابة ، اذ كان يرخى ذؤابة يعتز بها . .

وقد أعجب الأستاذ بهذه القصة ، فسأل عن (عامر) هذا فقيل ابن اسماعيل بن يوسف الخولى . . .

ولكن ... كيف (لاكمل) أن يحفظ هذه (السلسلة) إلا أن يكون الوالد قد أراد له هذا بصورة أو بأخرى ؟ ! .

على كل .. فانها بادرة تشير الى أصالة الثقافة العربية ، والتعاطف معها والرغبة في الإبقاء على مظهر كان من القيم المحبذة في المجتمع العربي ..

ولعل البيئة الدينية التي نشأ فيها ، والمظاهر الإسلامية التي طالعت في القاهرة القديمة ، وهو يتفياً ظلالها ، في منزل جده (بالمغربلين) ، ومسكن خالته (بالدرب الأحمر) .. ويتجول في جنباتها صباح مساء - لعل هذه البيئة وما شغل به نفسه من تدريس مفاهيم الدين واللغة والأدب - كان داعية الى الاحتفاظ بالنسب ، الفاء هذه العادة ، ورغبة في أن يغرس في نفس صغيره حب العروبة في عادة من عاداتها .

وقد يكون هذا الأمر امتدادا لطبيعة المرح فيه ، التي تنحو منحى المفارقات ، والحاحا على أهمية ما لم يعد في حساب الآخرين ..

★★★

أما الوالدة - فاطمة - التي تمتاز بحدة الذكاء واللباقة وقوة الشخصية - فهي ابنة الشيخ على عامر الخولي ، المشهور بالشبهي ، نسبة الى القرية ، على عادة أبناء الأزهر الذين ينتسبون الى قراهم ، تعريفا لهم ، وتعصبا لأقاليمهم ...

وقد اتم الشيخ (على عامر) الدراسة في الأزهر ، مع تخصص في القراءات ، واشتغل اماما وخطيبا في جامع السلطان شهاب بعبدين ، مع تدريسه القراءات بالتعيين في مسجد المؤيد . وكان يسكن في (زقاق المسك) بالمغربلين .. ومن ثم نشأت ابنته

في هذا الجو القاهري ، حتى زفت الى ابن أخيه بشاشاوى ،
وعاشت عمرها هناك ..

وانتقل (أمين) الى القاهرة في السابعة من عمره تقريبا ،
ليعيش في كنف جده (الذى كان أشهر عالم فى القراءات) - كما
حكى الشيخ السنهورى - وفي رعاية خاله الشيخ (عامر على
عامر) الذى حصل على (الأهلية) من الأزهر ، واشتغل اماما
وخطيبا بمسجد (ايتال اليوسفى) بالحيمية ..

وكان شوق الخال الى الأبناء شديدا ، لأنه لم يعقب ولدا ،
ففاض حنانا على ابن أخته (١) ..

كتب الأستاذ الخولى عن صباه الباكر :

(حوالى سنة ١٩٠٢ حمل من الريف ، والقى به فى حجر
خالته ، تحت رعاية جده لأمه ، وعم أبيه ، فى الوقت نفسه ،
وهو شيخ أزهرى ، يعيش هو وابنه - خال الغلام - وأصهار لهم
كذلك ، خدمة المعلم بالأزهر الشريف ... ودفعوا به لصفه
الى مدرسة مدنية ، كانت مرحلة بين التعليم الأولى والابتدائى
ولكن جده الشيخ لا يكتفى بما كان فى مثل هذه المدارس او المكاتب
من حفظ القرآن ، فأخذه بحفظ لوح كبير كل يوم ، حتى يوم
الجمعة . وحفظ القرآن بدنية وعيادة ، فحفظه متنى تجويد
القرآن (التحفة ، والجزرية) ، وجود له قراءة حفص فى بضعة
أشهر ، يقرئه كل يوم ربعين ، وأخذه فى زمن التجويد بحفظ
المتون ، فى التوحيد والفقه والنحو ، كمتن السنوسية ، والكنز ،

(١) تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن ان الخال أنجب بضعة عشر ولدا
تكلمهم جميعا ، وأخيرا أنجب بنتا مات عنها صغيرة ، فعاشت فى كفالة الأستاذ
الخولى ووصايته .

والإجرومية ، والألفية ، وبدأ بحضرة دروسا له في التوحيد
وغیره (١) ٠٠ كما علمه مبادئ العلوم والحساب ٠٠

والحقه سنة ١٩٠٧ بمدرسة (القيسونى) التى خلف
مسجد (القيسونى) ٠٠ وهى من (الكتائب) المشتركة التى
كان يتعلم بها بنات الأسر العثمانية ، التى تمثل الطبقة
الأرستقراطية ٠٠ وكانت المدرسة تعد لامتحان الفقهاء والعرفاء ،
الذين يقومون - بعد التخرج - بالتدريس فى هذه (الكتائب) .

وقد التقى فى هذه المدرسة بالشيخ (محمد الطوخى)
ناظرها القوى الشخصية ، الذى كان يمارس نوعا من حياة
المغامرة ، اذ كان تاجرا ، ثم حصل على قدر من المعرفة ، وصل
به الى نظارة المدرسة ٠٠ وكان جريشا ، فاهما للحياة فهما
قويا ، له مواقف ذات تأثير كبير فى نفس تلميذه النجيب ٠٠ هذا
الى انه استطاع أن يتعرف على قدرات تلميذه ، ويرهف صفاته
الطيبة ، وبخاصة الصدق والشجاعة ٠٠

يقول الأستاذ الخولى : حين كانت احدى الاجازات أعدت
خطبة ، رآها (العريف) ، فلم تعجبه ، وجاء الشيخ (الطوخى)
وقرأها ، وأبدى إعجابه ٠٠ ثم أوقفنى على المكتب ، ودعانى أخطب .

وحين انتقلنا من (درب الأغوات) الى حارة (المردانى)
بعمارة (حمزة بك) - وكانت مدرسة (خواند بركة) تشركنا
نفس العمارة - امطرت السماء ، فذهب المدرسون الى حيث
يحتمون من المطر ، وبقينا فى القناء ٠٠ فقلت قولا معيبا فى الشيخ
(أمين الجندى) - ناظر (خواند بركة) - وعلم بالقول فالخبر

الشيخ (الطوخى) ، واعترفت بما قلت ، فسامحنى الشيخ
(الجندى) لصدقى ، وضربنى الشيخ (الطوخى) تهديبا لى
وترضية للشيخ (الجندى) ..

ولما زار المدرسة الأستاذ عبد العزيز جاويش المفتش الاول
للسنة العربية اشتبك مع الشيخ (الطوخى) فى جدال ، أدى الى
استقالته من الوظيفة ، وافتتح قسما فى مدرسة حرة ، اسمها
(المحروسة) ، فتحول معه عدد من الطلاب ، وبينهم تلميذه
(أمين) ..

ولم ينجح الشيخ (الطوخى) فى عمله الجديد ، فاقصر
على (المأذونية) التى كان يشغلها من زمن ، ولكنه لم يعتمد على
تلميذه ، لأنه كان صديقا لخاله الشيخ (عامر) ، كما كان على علاقة
قوية بأهله ..

إذا كان (أمين) قد حفظ القرآن سنة ١٩٠٥م وكانت لديه
الفرصة - قبل الالتحاق بمدرسة (القيسونى) - ليجود
القرآن ، ويحفظ (المتون) ، ويحضر على جده أوائل دروس
الأزهر - فإن هذا الجهد من الجد كان تأهيلا لدخول صغيره
الأزهر ، حتى يصبح صورة منه ومثلا يرتضيه ..

لكن (الفتى) كان زاهدا فى الأزهر زهدا كبيرا ، لا لأن الزى
الأزهرى لم يكن محببا اليه - وقد كان يحضر فى المدرسة بالزى
المدنى (أفندى) .. ولا لأن طلاب الأزهر كانوا يحضرون دروسهم
جالسين على الحصر ، بينما يجلس طلاب المدارس على مقاعد
خشبية .. ولا لأنه كان مختلطا (بالمجاورين) من أبناء القرية ،
ويرى من عاداتهم وأحوالهم المعيشية المقفرة ، فينفر أشد النفور ،
وان كان مضطرا الى اصطحابهم تخفيفا من اعباء الدراسة ، الى
كان (الجد) لا يفتأ يختبره فى القرآن و (المتون) ، فاذا كان
يوم الجمعة خرج معهم يزورون (المشايخ) ، ويجوبون القاهرة

على الأقدام فى غير طائىل .. ولا لأنه كان يرى من حياة
المدنيين ما يزيد رغبة فى المظاهر التى تطالعه من خلال العثمانيين
الذين تفص بقصورهم المنطقة التى نشأ فيها ، ومن خلال السلطة
المدنية التى تأخذ زينتها وأبهتها فى المناسبات المختلفة - ولكن .
الى ذلك .. كان الشيخ (محمد السكرى) - الذى يسكن بيت
خالته - مدرسا بمدرسة (الحسينية) ، وهى مدرسة ابتدائية ،
فيها قسم (للحفاظ) ، تقع أمام باب (الحسين) الغربى ، وتتبع
احدى الأميرات ، وكان أخوه (عبد الكريم السكرى) - ترب
(أمين) - يتعلم فى مدرسة (خليل أغا) ، وهى أيضا مدرسة
ابتدائية بها قسم للحفاظ .. واذ كان بين الصغيرين ألفة ومودة
كما أن عبد الكريم يعطى صورة القدوة ، لأنه كان ينتسب الى
الحزب الوطنى ، ويطلع مع زملاء يكبرونه جريدة على (البلوظه)
فقد ازدادت رغبة (أمين) فى الالتحاق بالمدارس المدنية ليصبح
مديراً (١) ، كما قال لوالده ذات يوم وهو بسبيل التأثير عليه .

ولجأ الى الشيخ (محمد السكرى) يستعين به ليلتحق
بمدرسة (الحسينية) .. وتحققت رغبته بعد أن أدى اختبارا
يسيرا ..

وأصر الجد ، وهدده بأن (من ترك القرآن فلن يفتح الله
عليه .. ولم يقنعه ما فى قسم الحفاظ بمدرسة الحسينية من
تمسك بالقرآن ..

(١) كان منصب المدير فى ذلك العهد ، أكبر مناصب الاقليم (المديرية) ،
ويطلق عليه الآن (المحافظ) ، ولم يكن أبناء الشعب فى الأقاليم يرون منصبا
أعلى منه . ويروى الأستاذ - تندرا - قصة ذلك الرقيق الذى حظى بلقاء الخديو
فى زيارة لعاصمة انديرية ، فدعا للخديو بأن يرفعه الله الى منصب مدير (تعليق
الدكتورة عائشة عبد الرحمن) .

وابى الغلام أن يحمل محفظته ويذهب بها مع مجاوري بلده
الذين كان منهم من يسكن في بيتهم ، ولم يقاوم الاب رغبة عمه
الجد ، وانقطع الطريق الى الحسينية ..

وهام الغلام على وجهه في الشوارع التي كان يرى فيها غلمانا
في سنه يغدون ويروحون بعمائم صغيرة ، وجيب وقفاطين أيضا
لكن لا يذهبون الى ناحية الأزهر ، بل يسرون الى الجنوب ، حين
يوجد الأزهر في شمال مسكنه ، عثر في جولاته بمفرده على المدرسة
الالهامية ، وفيها تلامذة مشايخ (١) ..

ورأى أن يجمع بين العمامة والدراسة المدنية ، ليستعيد
رضا الجد والوالد ، وليحقق ارادته ، ويرضى نزعته ..

ومن ثم اتجه من تلقاء نفسه الى المدرسة الالهامية ..
فاستقبله الناظر استقبالا حسنا ، بعد أن اطلع على معلوماته ،
لكنه أبدى أسفه لعدم تحقيق رغبته ، إذ أن المدرسة في فترة
تصفية ، تنتهي بعدها الى مدرسة ثانوية مدنية ..

فاتجه الى مدرسة (عثمان باشا ماهر) في شارع (قره
قول المنشية) بمنطقة « السيوفية » ، وهي مبنى معد أجمل
أعدادا ، مزود بفناء كبير ، وفصول منظمة ، وفيها مكتبة حافلة ..
وكتب (استثمار التحاق ، موقعا في مكان ولى الأمر باسم جده) .

واجتاز اختبار شفويا بتفوق ، فقد كانت المدرسة تقبل من
يحفظ القرآن ، وله المام بالحساب ، وصاحبنا كان قد تعلم في
الرياضة حساب المائة والربح البسيط والمركب والنسبة والمساحات
والحجوم ، وفي الاملاء والعلوم قدرا كان يدرس في حينه لأمثاله ،

(١) الأدب - ديسمبر سنة ١٩٦٤ م .

بالإضافة الى ما شغل نفسه به من القصص الشعبية التي كانت تباع بقروش زهيدة يوفزها من الملايم التي تجتمع في يده آخر الأسبوع .. ومن ذلك - ما ظلت تعينه ذاكرته - قصة تمسك الفلاح ، والقط والفار ، والسلك والوايون .. ويقول ان شعبيتها لا ترجع الى جهل بمؤلفها ، ولكن الى طريقة تناولها وتقديمها للجمهور ..

وأهلته معارفه ومستواه في الامتحان لدخول السنة الرابعة في الوقت الذي كانت الدراسة بالمدرسة خمس سنوات ..

وقد طلب دخول السنة الثالثة ليكون له الحق في دخول مدرسة القضاء ، التي كانت تشترط أن يقضى الطالب في هذه المدرسة أو في الأزهر ثلاث سنين ، لكن الناظر رفض أن يعدل به عن السنة الرابعة الى الثالثة .

ودرس في هذه المدرسة الكتابين الثالث والرابع في النحو لحفني ناصف وحمزه فتح الله ، وهما لا يبعدان كثيرا عن شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك .. كما درس خلاصة متن التخليص في البلاغة لتركيا الأنصاري ، وقدرنا من التاريخ والجغرافيا على خرائط انجليزية ، إذ ان الخرائط العربية لم تظهر الا سنة ١٩١٠ ، وأخيرا أعطته المدرسة شهادة تقول :

(تشهد مدرسة المرحوم عثمان باشا ماهر بأن التلميذ أمين ابراهيم الخولي أمضى بها ثلاث سنوات بصفته طالبا متعلما وأنه لم يسبق الحكم عليه بأمر يخل بالشرف) ..

يقول الأستاذ الخولي :

(وكان زميلي السنة الرابعة الأستاذ أحمد زكي صفوت ، الذي كان الأول على الفرقة ، وكنت الثاني ، فلما دخل دار

العلوم أول السنة الخامسة صرت الأول عند التخرج ، واتجه اخواني الى القضاء ، وأردت الذهاب الى دار العلوم (متعللا بأنها ترسل بعثات الى الخارج ، على حين كنت أريد الهروب من مدرسة القضاء الشرعى - مع أن هواى معها - لأنها تفصل من يرسب بها. (١) ..

ولكن الشيخ (عبد الرحمن خليفة) - المدرس بمدرسة عثمان باشا ماهر ، وكان أديبا يقول الشعر - شجعنى على دخول القضاء ، بحجة ان من هم أقل منى تفوقا اجتازوها بنجاح) ..

ودخل امتحان القبول : شفويا فى القرآن كله والمطالعة ، ونحريريا فى الفقه والنحو : وكانت سنته وقتئذ (خمسة عشر عاما وخمسة أشهر وستة أيام) على حد قوله ..

فى مدرسة القضاء الشرعى :

(وجمال التطور به ميله ليست بالحقيقة ، وإن كانت الى تجربة فى جمع الثقافتين ، الدينية الشرقية والمدنية الغربية ، والخروج بمزيج منهما ، تجد فيه مصر المتطورة ذاتها ، وتحفظ بشخصيتها التى يجهد المستشار الانجليزى (دانلوب) فى وزارة المعارف لاخفائها منذ أعوام طويلة ..

كانت قافلة التطور تسير ، مع صراع عنيف بين الثقافتين ، تبدو فيه مناظر مضحكة ، من نوع (الساخر) ، يرتكبها مفكرون أحرار كبار .. فحتى يونية سنة ١٩١٥ م كان صاحبنا - أمين الخولى - مع الدين يخلقون لحاهم ، حتى لا يظهر فيها من الشعر

(١) علقت الدكتورة عائشة عبد الرحمن على الخبر بقولها : (ما الصور وقد عرفته كما لم يعرفه سوى - أنه أشفق من احتمال الرسوب ، أو أدخله فى حسنا) ، ولكن الأوهام كثيرا ما تتجسم فى هذه المرحلة من العمر ، وكبرياء الشباب كثيرا ما تصل بصاحبها الى أقصى الطرفين ..

أطول من نبات يوم واحد ، وفي أكتوبر من السنة نفسها صار
صاحبنا مع الدين يجب أن يكون في لحاهم نبات أسبوعين على
الأقل ، والا عوقبوا (١) . .

لكن هذه (المساخر) لم تكن لتقبل من الدور الذي نهضت
به مدرسة القضاء الشرعى - التى أنشئت سنة ١٩٠٧ م -
ليتلقي الطلاب (التجربة السياسية والعلمية والاجتماعية التى
أرادتها مدرسة الإصلاح الدينى الحديث ، من شيعة (١) محمد
عبده) ، وعلى رأسهم (سعد زغلول باشا) ، فأرادوا فى السياسة
تجربة استقلالية مصرية ، فى معهد لا تمتد إليه يد أجنبية ،
ويتولى أمر نفسه فى استقلال إدارى وثقافى لأصله له بوزارة
المعارف ، ومستشارها العتيد اذ ذاك ، كما أرادوا تجربة علمية
تلتقى فيها الثقافتان القديمة والحديثة ، والشرقية والغربية ،
التقاء معتدلا رزينا ، لا تجور فيه واحدة من صاحبتها . ولا تنكر
واحدة منها أختها . . وأرادوا مع ذلك تجربة اجتماعية فى الإصلاح
بالقدوة والمثل ، ليشبهها المجتمع ، فىرى ويسمع ويعى (٢) .

وان كانت هذه المدرسة تفرض على طلابها الدين انتهوا من
المرحلة الثانوية ان يعفوا اللحن ، فما ذلك الا ليكون ابناء المرحلة
العالية أقرب الى الوقار ، تأهيلا لمنصب القضاء . .

وكانت الدراسة فيها - كما يقول الأستاذ الخولى - فوق
مستوى المدارس الثانوية فى المواد المدنية ، الا ان الدراسة
جميعها كانت باللغة العربية . .

(١) الأدب - ديسمبر سنة ١٩٦٤ م .

(٢) . هل أدى الأزهر رسالته الاجتماعية - جريدة المضرى ٢٨/٤/١٩٥٢ م .

أن يدرس الجبر والهندسة النظرية والفراغية وعلم الهيئة ومبادئ الفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا . بجوار أصول القانون ، وشرح لائحة المحاكم الشرعية ونظام المرافعات ، والتفسير والفقه والحديث والتوحيد ، هذا سوى النحو والصرف والأدب .

وقد اختار سعد زغلول - ناظر المعارف - لهذه المدرسة التي اولاهها عناية (ناظرا من أكفأ الناس وأقربهم اليه ، وهو عاطف بك بركات ، واختار هو والناظر خيرة المدرسين من كل نوع من أنواع التعليم ، كما استعان بخبرة علماء الأزهر ليدرسوا العلوم الدينية .. فكنت ترى مزيجا من الأساتذة .. هذا شيخ أزهرى تربي تربية إزهرية بحتة ، ودنياه كلها في الأزهر وما حوله أستاذ للتاريخ على آخر طراز ، تخرج في جامعات إنجلترا ، وأستاذ للطبيعة تخرج في أشهر جامعات فرنسا ، وعلى رأسهم ناظر تعلم في الأزهر وفي دار العلوم وفي إنجلترا . وكل من هؤلاء يلون طلبته بلونه ، ويصبغهم بصبغته ، ويعلمهم على منهجه ..

فكنت اذا أصفيت الى درس من الدروس ، فكأنما تصفى الى درس يلقيه مدرس من القرون الوسطى ، فيما يقال ، ثم يليه درس تسمعه فكأنما تسمع درسا في جامعة أجنبية ، لا يفرق بينهما الا انه يلقي باللغة العربية .. ثم تنتقل من ذلك الى درس له شبه من هذا وشبه من ذاك ، فموضوعه من موضوعات القرون الوسطى ، ومنهجه منهج حديث .. وكذلك المدرسون في عقلية قديمة لم تسمع عن شيء اسمه الجغرافيا ، ولا تعرف ان الدنيا قارات خمس ..

أراد بعضهم ان يتظرف ، ويبين انه رجل عصرى ، فقال الدنيا تنقسم الى ثلاثة أقسام : آسيا وأفريقيا وقارة ..

يقدسون ماورد في الكتب حتى الخرافات والأوهام ، ومن أقوى حججهم على صحة الرأي أنه ورد في كتاب من الكتب القديمة .

وعقلية حديثة على آخر طراز ، جالس أصحابها أرقى الأساتذة الأجانب ، واستفادوا منهم ، وعاشوا في المدنية الغربية ، وعرفوا آخر نوع من طرازها ، وليس عندهم فكرة مقدسة إلا ما قام البرهان على صحتها ، ودلت التجارب على ثبوتها ..

وبين هذين الطرفين أنواع من الأساتذة يأخذون بحظ منهما قل أو كثر ..

وفي هذه البوتقة المكونة من هذه العناصر كلها وضع الطلبة ليأخذ كل منهم حظه حسب فطرته واستعداده ، وأحيط كل هذا بإطار خلقى يشرف على تنفيذه ناظرها : يلتزم النظام الدقيق ، ولا يسمح بالخروج عنه قيد أنملة : .. ان دق جرس الصباح أغلق باب المدرسة ، ولا يدخلها طالب ، وتحرك الأساتذة فوراً الى دروسهم ، ويذهب الطلبة أول العام الدراسي فيجلس كل في مكانه ، ويفتح درجه ، فإذا فيه كتبه وأدواته جميعها ، لا ينقصها شيء ..

وعدل في معاملة الطلبة والأساتذة ، لا ينحرف ، فمن نجح من الطلبة فبالعدل ، ومن رسب فبالعدل ، وان رقى أستاذ فبالعدل ، لا يقبل في ذلك رجاء ، ولا شفقة .. وكل طالب معروف لأساتذته وناظره ، ولكل طالب صفحة في سجل كبير أمام الناظر ، قيد فيها اسم الطالب والأخطاء التي ارتكبها ، والعقوبات التي وقعت عليه ، والمكافآت التي نالها ، فمن أخطأ خطأ جديداً ذهب الى الناظر ففتح صفحته ، وعرف مكانته ..

ونظافة فى المدرسة بألغة أقصاها .. حريقة جميلة رسمت
رسما بديعا ، وملئت بالأزهار الجميلة ، وحركة مستمرة من
الخدمة فى تنظيف مستمر ..

فى هذا الجو كله وضع الطلبة ، واشتهرت المدرسة فى مصر ،
ببورها كبرازها ، وفى العالم الشرقى يؤدبها عظماء الوافدين المعنيين
بشئون التعليم والراغبين فى الإصلاح (١) ..

وفى عاطف بركات باشا القوى الشخصية ، الواسع المعرفة ،
الجم النشاط الشديد الاخلاص ، وجد الطلاب الأب والرائد الذى
يعدهم للوطن دعائم قوية ..

كان بالمدرسة أكثر من أربعمئة طالب ، ومع معرفته شئونهم
ومراقبته سلوكهم ، واشتراكه فى حل مشكلات كل منهم ،
وتبصيره بواجبه — كان يثير بينهم موضوعات للبحث ، ويقترح
مجالات للنشاط ، ويعمل مسابقات فى القراءة الصيفية ، ويجزى
بمكافآت سخية ..

كان طابع سلوكه الواضح اشعار كل فرد بأنه الساهر على
مصلحته الخاصة ، وكانت لديه القدرة على اشعار كل واحد انه
أبوه .. وكان حريصا كل الحرص على دفع أبنائه إلى الاعتداد
بالشخصية ، والثقة بالنفس ..

دخل عليه طالب متهيبا ، فطرده ، وقال : (ادخل على رجلا)
وتكرر الطرد والدخول احدى عشرة مرة ..

واذ كان الطلاب يتناولون وجبة الغداء بالمدرسة ،

(١) حياتى لأحمد أمين ط ٣ سنة ١٩٥٨ - ص ٩٦/٩٩

ويتقاضون كل شهر جنيها ونصفا ، فقد كان يحرم الراسبين
والذين لا يحفظون القرآن من المكافآت ، ويوزعها على المتفوقين ..

كان مؤمنا بعمله .. يقدمه على كل شيء ..

عرضت عليه وظائف كبرى مختلفة ، فرفضها ليباشر هذا
الحقل التربوي الذي كان يفسح فيه لنمو الشخصية الى أقصى
حد ..

يقول الأستاذ الخولي : كان ثمة اعلان : (ممنوعة القراءة بعد
الغداء) .. ورآني في الفناء أقرأ في كتاب (الصناعتين) لأبي هلال
العسكري ، فسار في هدوء حتى أصبح الى جانبي ، وقال : ألم
تر الاعلان ؟ فقلت : (قبل ان تطلب الى الاقراء ، أغلق المكتبة) ،
فطلب ازالة الاعلان في الحال . .

وشكونا اليه - ونحى في نهاية القسم الثانوي - مدرسا
مهملا عنيف السباب .. فحضر فورا الى الفصل ، واستأذن من
المدرس ، ثم قال : المدرسة ليست الناظر ولا المدرسين ولا المباني ،
بل الطلبة فقط .. وأنا لا أعاقب أحداكم الا كارها ، حرصا على
مصلحته ..

وطلب الينا أن نتمسك بحقنا في الاستفادة من الأستاذ ،
وعد نفسه المولم لحدوث شيء دون علمه ..

ولقد قال عنه الأستاذ أحمد أمين في حفل تكريمه بعد عودته
من سيشل - متفاه -

مساء الجمعة ٦ يوليه سنة ١٩٢٣ م :

(عرفتة صديقا للحق ، يناضل عنه بكل ما آوتى من قوة لا يبالي من يكون خصمه ، مهما عظم ، حتى لقد عادى فى ذلك من كانت تحنى الرؤوس اجلالا لشارته ، وطوعا لأمره . . . وهو فى دفاعه عن الحق صريح شديد ، لا يدارى ولا يمارى ، ولا يعنى بطلاء الشكل عنايته بجوهر الموضوع ، حتى ليؤلم أحيانا ، ولكنه لا يلبث هذا الألم أن ينقلب حبا واعجابا وميلا الى التقليد . .

يسلط علينا نفسه فيصهرنا ، ويصبنا فى قوالب تتخذ أشكالا هي تقليد لشكله (١).

يقول : (كانت ميزة له فى عقله قوة التحليل ، وسلامة التفكير ، وحرية الراى ، وقوة الحجة ، والالاحاح فى الاقناع ، وسعة الصدر للراى المخالف . . . وكانت حريته فى عمله ، فهو فى اصلاحه متحفظ ، يقدر كل الظروف المحيطة ، ويعمل فى حذر ، وأكبر ميزة له فى خلقه أداء الواجب ، من غير أى اعتبار آخر ، وعدله التام ، ولو لقى فى ذلك العناء ، فى بلد تسيره المجاملة ولو بالظلم ويفرح بالوعد ولو بالكذب ، وحبه للنظام الدقيق ، فكان يشيد بذكر (كانت) اذ كان يرى أداء الواجب لذاته ، واذا كان الناس

(١) مجلة التضامن الشرعي - عدد ١٢ ذو الحجة سنة ١٣٤١ هـ
وقد علق الدكتور عائشة عبد الرحمن على (عملية التقليد والصبر فى قوالب) بقولها :

سمعت الأستاذ الخولى يعلق على هذا بأن عاطف بركات كان يربى شخصيات طلابه ، ويكره أن يكونوا نسخا منه أو من سواءه ويرفض التقليد ، وان أكبر القدوة . . . لاحظت أن الأستاذ أحمد أمين نوه فى تأييد عاطف بركات بحرصه على أن يعود طلابه الاستقلال فى الفكر والعمل .

يضبطون ساعاتهم على موعد خروجه ، وصدق في القول حتى لم يأخذ عليه طالب ولا أستاذ كذبة ..

.. ان عيب عليه شيء ، فهو قلة مجاملته حتى حيث لا تضر المجاملة بالخلق ، وصراحته التي قد تخرج ، في موقف لا يدعو الى الصراحة فيه دفاع عن حق ، ثم نظامه العسكري في غير ترفيه (١) ..

ولهذا التكامل الخلقى والعلمي والاداري ظل الأستاذ الخولي يذكر (عاطف بركات) في اعتزاز وتقدير وحب .. فقد كان له ابلغ الأثر في تكوين شخصيته ، ودفعه الى المثل العليا ينشدها ، ويأخذ بأسباب تحقيقها ..

ولقد مارس (أمين) في هذه المدرسة ألوانا من النشاط الأدبي والسياسي .. فقيما بين سنتي ١٩١٥ و ١٩١٧ م تكرنت بالمدرسة جمعية اخوان الصفا ، من مجموعة متفاهمة من الأصدقاء عبد الوهاب عزام ، ومحمود أبو بكر حسن ، ومحمد أمين السمالوطي ، ومحمد عبد الرحمن الجديلي ، وحلمي خاطر ، وطه نجاتي ، وأمين الخولي ..

وشغل أعضاء الجمعية بالمسائل الأدبية والفنية، واتجهوا الى تعلم اللغات الأجنبية بمدرسة فرنسية بباب اللوق ، واكتسبوا الكثير من الخبرات والعارف عن طريق التبادل الفكري والمناقشات الحرة .

وكانوا يجتمعون في بيت أحدهم أسبوعيا ، في ندوة تمتد من الغداء الى المساء ..

(١) ص ٢١٧ و ٢١٨ حياتي لأحمد أمين .

هذا الى أن الأستاذ الخولى - كما روى صديقه الشيخ
فرج السنهورى - كان - خلال مدة الطلب بالمدرسة - على اتصال
مستمر بمكتبة (عم حسنين الكتبى) الذى كانت له مكتبة فى درب
الجماميز ، أشبه بالقبو ، نضاء بدبالة واهنة .. فكان بعد انتهاء
اليوم الدراسى يصحب صديقه السنهورى الى هذه المكتبة ، ينقب
فيها ، ويشترى بأى ثمن ، لا يبسالى ما دام يمتلك هذا الثمن ،
وكان وجوده فى رعاية جده وخاله يوفر عليه ما يثقل زملاءه
النازحين من الريف ..

وكان كذلك عميلاً دائماً لكتبى متجولاً ، كان يحمل أسفاره
الى المدرسة خلال (الفسحة) .

ولقد بلغ شغفه بالاطلاع أن يكتب على الحجرة التى كان
يسكنها فى بيت جده (هنا دواء النفوس) بخط بارز .. (١)

وفى حديث مع صديقه السنهورى عن قيمة وجود الانسان فى
الحياة وضرورة فعاليته تعاهدا على أنه اذا جاوز أحدهما الثلاثين
ولم يكن له عمل نافع وجب على الآخر أن يقتله ..

(١) أضافت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن الأستاذ الخولى كان يطلق على
حجرة المكتبة فى البيت : (المعبد) ..

مع المسرح

وفي هذه الفترة عالج الكتابة المسرحية ، وكانت أول الفنون الأدبية التي أخذ نفسه بها ، على غير عادة الناشئة، يبدءون بمعالجة الشعر أو القصة ، نظرا لأن العمل المسرحي يحتاج الى دراسة ونضج فني وخبرة بالحياة ، حتى تتوفر للكاتب المقومات الأساسية لكتابة المسرحية ..

وقد مثل له (اخوان الصفا) مسرحية (أسيرة عمورية) في نادى المدرسة نهارا ، وبلا ملابس ، كما قرئت مسرحية (الراهب المتنكر) في احدى ندوات الجماعة ..

ولقد سألت الأستاذ الخولى عن سبب اشتغاله بهذا الفن اول الامر ، مع أن البيئة التي تحيط به آنذاك لم تكن تهيم به .. فقال : كان الابتداء بالمسرحية صدى لحب المسرح .. وأول مرة دخلت فيها المسرح كان سنة ١٩١١ م ، ورأيت (جورج أبيض) في (تياترو الأذربكية) القديم يمثل (لويس الحادى عشر) ، واستولى على هذا الممثل الكبير باجاده الفائقة ، مما لفتنى الى أهمية العمل المسرحي وعظمته ، تأليفا وإخراجا وتمثيلا ، وأن العمل الأدبي فيه أبرز منه فى القصة ، وبخاصة أن القصة ، لم تكن شيئا يذكر .. (١)

(١) أضافت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أنه :

ظل طويلى حيانه ، يحب المسرح . وقلما كان يذهب الى السينما الا أن يكون (الفيلم) ذا قيمة ، على حين لم يكن يدع فرصة تفوته ، وبخاصة فى رحلاتنا كل صيف الى أوروبا ، لشهود المسرح ، وحيثما عرضت هنا بمصر مسرحية هامة .
بادر الى مشاهدتها .

وكان قد ذهب الى المسرح نزولا على رأى صديق ، ألح عليه
أشد الإلحاح ، فلم يكن ليذهب الى المسرح بمحض إرادته ،
والوسط الذى يعيش فيه يؤمن بأن العزف - ترام ، بل أن حضور
(الموالد) كان شبيهة محرم مثله ، لما يحدث فيها من بدع
ومنكرات .. وحين رغب الى خاله - ذات يوم - فى حضور (مولد
(الحسين) ساربه من بعيد ، ليرى مواكب تتحرك فقط ..

ولكن .. بعد رؤية العمل المسرحى العظيم المناقض لما
ترسب فى نفسه عن المجتمعات المحفلية ، زاد إكباره للمسرح ،
وأصبح هوايته ، فكان يذهب الى المسرح أربع مرات فى الأسبوع .

ولقد حفزه الى الكتابة المسرحية ميل قديم الى القصص
والتاريخ .. ولم تقف قراءته عند القصص الشعبية التى يشتريها
بالقرش والقرشين ، أو كتب التاريخ التى وجدها فى مكتبة جده ،
مثل كتاب (ابن زينى دحلان) فى التاريخ العام ، الذى يحوى الكثير
عن الملوك والسلاطين ، ومثل كتاب السيرة للشيخ شاکر ، بل كان
يقرا الشعر مثل كتاب الجواهر النفيس فى أشعار الامام محمد بن
ادريس الشافعى المجموع سنة ١٩٠٣ ، كما كان يذهب الى دار
الكتب وينهل من مناهلها .. وكثيرا ما منعه بواب الدار الدخول
لصغر سنه ..

ومما لاشك فيه أن بريق النهضة التمثيلية حينئذ كان يخطف
الأبصار ، مع أن العهد بالتمثيل جد قريب .. (١)

(١) بدأ فن التمثيل يظهر فى الاسكندرية سنة ١٨٨٠ م على أيدي أديب
اسحق وسليم دماون النقاش وأنطون الخياط ، وكانت فرقة الخياط تقدم ألوانا
بسيطة من المسرحيات فى سرادق بالمنشية .. وقد ترسم آثارهم فى القاهرة
القداحى وسليمان الحداد وأبو خليل القباني الذى قدم الى مصر على رأس فرقة
تمثيلية من دمشق ، هاربا من قسوة الأتراك ، وقدم لونا جديدا من المسرحيات ==

واستجابة لهذه النهضة بدأ (أمين الخولي) محاولاته المسرحية سنة ١٩١٣ م ، بعد ان انطبعت في نفسه صور كثيرة مؤلمة للحياة الشرقية باكاذيبها وأوهامها ، مرتبطة بآفات الحجاب ، وتحكم

= يحالف مسرحية النقاش المترجمة ومسرحية أبو نضارة المقتبسة ، اذ كان يستلهم موضوعات مسرحياته من التاريخ العربى والاسلامى ، وجعل الغناء والعزف عنصرا هاما في المسرحية ، كما أدخل الرقص الايقاعى فى بعض مشاهدتها .. وجاء سلامة حجازى فساد مسرحا غنائيا ، اعتمد على صوته مغنيا ومنشدا .. الى جانب فرقة (جورج أبيض) التى تزعمت المسرح الدرامى ، ومثلت لكبار المؤلفين ، وحظيت بإعجاب الجمهور .. و (الجوق الدمشقى) لنقولا مصابنى ، وكان يقدم المسرحيات الهزلية والغنائية والرقص السورى .. و (شركة التمثيل الأدبى) لسليم وأمين عطا الله .

والجوق السورى الجديد .. ومجتمع التمثيل العربى ، وفرقة عزيز عيد . والجوق المصرى العربى للشيخ أحمد الشامى . فضلا عن نشاط الهواة الذين ألفوا فرقا عديدة كان لها أثر كبير على نهضة الفن ، مثل جمعية محبى التمثيل ، وم حفل الهمال الأدبى والمجتمع الأخرى التمثيلى ، وجمعية النشاط الوطنى ، ثم جميعه أنصار التمثيل التى كانت تهدف الى ارساء قواعد الفن الصحيح ، وتثقيف الشعب عن طريق المسرحيات الموضوعة التى تدور حول فكرة خاصة تهم الجمهور ، وتعبّر عن بعض أحاسيسه ، أو تحل طرفا من مشكلاته .. وكان لبعض المدارس والجمعيات والنوادي فرقها التمثيلية التى لعبت دورا لا بأس به فى ميدان المسرح . وفى ذلك الحين ظهرت محاولات فى النقل والتحويل ، وأحيانا الابتكار فى التأليف المسرحى ، على نحو ما فعل محمد عثمان جلال وغيره فى نقل المسرحيات الفرنسية ، وبخاصة كوميديات مولير التى تماشى المزاج المصرى المولع بالفكاهة والنكتة اللادعة ، كما وضعت بعض المسرحيات المشتقة من التاريخ ، وتخللتها مقطوعات غنائية مجارة للمزاج المصرى ..

ورقف الى جانب روايات شكسبير ومولير وغيرهما روايات عربية جيدة التأليف مثل (مصر الجديدة) لفرج أنطون (أول رواية انتزعت من حالتنا الحاضرة ، ومثلت على مسرحنا الحديث) و (مقاتل مصر أحمد عرابى) للأستاذ العبادى ، و (أبطال الحرية) لأنطون الجميل و (أرواح شريرة) لنسيم الجاهل ، (بنت الخليفة) لإبراهيم رمزي ..

الرجال في النساء ، ومكايد النساء للرجال ، وما يدور خلف الحجاب من تهتك وضياع ..

(وما تزال حتى اليوم صور النساء العاريات في الحمامات العامة ، واحاديثهن المختلفة العارية - حية في ذاكرتي ، مع ان ذهابي الى هذه الحمامات - مع قريبة لي - كان قبل السابعة من عمري (١٠) ..

ويصور لنا ادراك نساء الجيل لحقيقة الصدق والكذب بقوله :

(سرت مع سيدة من العائلة ، فالتقيننا بأخرى سألت عن خالي ، فأنكرت قريبتي، وجوده في البيت ، مع قولها : « ان شاء الله » فلما جابتهما بالكذب قالت : لقد قلت : ان شاء الله !!) ...

ولذا نجد ينظر الى المرأة في ذلك الجيل على انها اقرب الى الخطأ منها الى الصواب ، ثم يستدرك قائلا :

عناصر الضعف في الناس عامة ، ومظاهرها تختلف عن حقيقة ما يختلج في نفوسنا كل الاختلاف .. واذا كنا نستطيع ان نزيف مشاعرنا بالحركات والتصرفات الملهبة ، فان لحظات كثيرة تمر بالكائن البشري فتكشفه على حقيقته .. ينقض ليفترس وينتهك أو يعرى في شسنة ولؤم وخداع .. وعلى ذلك فلا لوم ولا عتاب على من يخطئون ، لأن هذا هو واقعهم ، ولكننا تكبر من يسيطر على شهواته ، ويتحكم في انفعالاته ، ويتمسك بالقيم الخيرة والمثل الكريمة ...

ولقد كان لهذه الانطباعات القاسية اثرها في مجالسه واحاديثه الخاصة ، لا فيما يدون ، لأن الكلمة المدونة تحكمها اعتبارات

مختلفة ، ومن ثم يزنها بميزان خاص ، ويخشي فيها كلمة التاريخ ..

ومن هنا كادت محاولاته الأولى - التي تتسم دائماً ، في أعمال الكتاب ، بالاندفاع والميل - أن تخلو من هذه القسوة ، وتجلت فيما حاول من أعمال مسرحية رغبة قوية في الإصلاح ، والإبرار ما فينا من عناصر كريمة ، حتى لا يغلبنا اليأس على أمرنا ، بينما التيسارات الغربية تهب علينا بريحها النتن فتفسد من بقاياتنا الطيبة ..



ومسرحية (جريمة الآباء) أولى محاولاته ، بطلتها تلك السيدة التركية التي كانت تسكن في حي (النبوية) بجوار مسكن (المؤلف) .. ومع ما كانت تتمتع به من جمال ، فإن زوجها كان سيء السيرة ، مما أدى إلى فصله من العمل ، وظلت الزوجة تقاسي في بيته شظف العيش وسوء المعاملة ، والضيق برجل لا تحبه ، فقد أرغمتها على الزواج منه زوجة أبيها التي حرصت بعد ذلك على أن تدس وتكيد لها عند أبيها ، حتى حرم عليها دخول بيته ..

وأصيبت بالسل ، وهي تغاني من زوجها الذي يزداد مع الأيام قسوة وعنفاً .. وبلغ بها المرض مرحلة الخطر ، وهي جاهلة بأمره .. وجاءها أبوها وهي تموت ، فتألم أشد الألم لما أصاب ابنته ، وأدرك أنه فرط في حقها .. وأراد أن يكفر عن خطيئته ، فأوى إليه ابنتها ، وقام على تربيتها ، ورعايتها خير رعاية ..

ومسرحية (ابن العمدة) التي (يسدل ستارها على هتاف
مصر للمصريين ، يحيا الاستقلال) - يتمثل الصراع بين الخير والشر
بين واقع نعيشه ، وأمل ننشده .. ويعد جهاد مزير يتغلب الخير ،
ويجتمع الشمل ، وتلتئم الجراح ..

(فالعمدة) رجل مستبد ظالم ، تسول له نفسه الشريرة
الفتك بامرأة أرسل زوجها إلى السودان مع حملة « هكس » ،
فأتى بها إلى بيته ، وأخبرها أن الحملة قد أبيدت ، وأن زوجها
قتل .. وأخذ يراودها عن نفسها ، ولم يكن يوسعها أن ترفض ،
فلجأت إلى الحيلة .. طلبت أن تذهب أولا إلى البيت لتقضى حاجة
لكنه لم يأنس إلى موافقتها ، فاحتجز صفيها حتى تعود ،
وأرسل خلفها أحد رجاله .. وحين علمت أنه قد أحيط بها ،
انطلقت تجري ، وخلفها تابعه .. ولما اقتربت من بر ساقية ألقت
فيه حجرا ، واختفت في الظلام بين أعواد الذرة ..

وعاد الرجل يخبر العمدة أنها رمت نفسها في البئر ..

وظلت مختبئة فترة حاولت فيها الحصول على ابنها ، ولما
يثبت ذهبت إلى القاهرة تكدرج في سبيل العيش ..

اشتغلت بتطريز (الطرح والمناويل) وخدمة المنازل ، بينما
ظل ابنها في بيت العمدة ، فلما أصبح قادرا على العمل أرسله
العمدة إلى القاهرة ، ليكون في خدمة ابنه التلميذ الفاسد سيي ،
السلوك ..

وتشاء الصدفة أن يقيم (ابن العمدة) في نفس البيت الذي
تسكن (المرأة) حجرة على سطحه .. ويستعين بها (ابن العمدة)
في اعداد مادبة .. فتلتقى بابنها الذي كان يشغل فراغة بكتب
سيده ، ولكنها لم تعرف إليه ..

وتحكى المسرحية أن زوج (المرأة) بعد إبادة حملة (هكس)
فر الى الغابات فالتقطه احد رواد أعالي النيل ... واستعان به
فى تعلم العربية ، ثم أخذه معه الى أوربا ليلتقى مع (العمدة) فى
فرنسا ..

ذلك ان (بنايوتى) زين للعمدة السفر الى أوربا ليتمتع
ويلهو ما وسعه الأمر ، وألقى بالعمدة فى البحر طمعا فى ماله ،
فالتقطته سفينة وقد أصيب بحالة عصبية الزمته الوجوم ..

ويقضى (العمدة) فى صحبة (الزوج) عشر سنين يكون فى
خلالها (ابن العمدة) قد لجأ الى الجريمة ، بعد أن غرر بفتاة ،
ويكون ابن (المرأة) قد انصرف الى التعليم ، وتخرج ليصدر
جريدة (الأمل) ، ويصبح من الساسة الذين يهيئون لحياة
جديدة ، ويكون قد تعرف الى أمه ، وطابت لهما الحياة ..

يعود (الزوج) الى مصر فى صورة مستشرق ، ومعه
(العمدة) ...

وفى تجوالهما بمعالم القاهرة يصلان الى مكتب جريدة
(الأمل) ، فى الوقت الذى يدبر فيه (ابن العمدة) السطو على
إدارة الجريدة ، ويلقى القبض عليه ...

وتذهب (المرأة) الى مقر الجريدة لتطمئن على ابنها ،
فتلتقى بالجميع ويصدم (العمدة) بها تقول لابنـه : خاسر بن
خاسر ، فيفبق من حالته العصبية ، ويتم التعارف .. بينما
المظاهرات تدوى فى الخارج بحياة الاستقلال التام والعمدة يلهج
بقوله : من لم يربه والداه ربه الأيام والليالى ..

جريمة أخرى من جرائم الآباء ، مع اختلاف البيئة والأحداث
ومزيد من التعقيد في خيوط المسرحية ، مما يدل على وفرة في النماء ،
وسعة في الخيال . . وان اشتركت المسرحيتان في كونهما أحداثا
اخبارية ، لهجت بها الالسنه ، فصرفته نوعية الحدث ورومانسيته عن
أبعاد الموقف ودلالاته ، مكتفيا بإطار العام ، وإرادة الخير فيه . . وان
تكن المسرحية الثانية لفتا الى عوامل الفساد ، مع بيان أثر التعليم ،
وقوة عناصر الخير ، ممثلة في الابن الذي يقود الى (الأمل) .

فالأحداث تتتابع ، مبتدئة بصراع مع القوى الشريرة ، لتنتهي
الى الأمل المرجو ، في الوقت الذي يبلغ فيه صراع الشعب مع
الاستعمار ذروته ، رجاء أن يحقق آمال الأمة في الاستقلال التام .



وتنشب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وتبذل
بريطانيا كل ما تملك من جهود لاستنزاف موارد البلاد ، والتأمر
على كل مقوماتها حتى تصبح قطعة لا تنفصل عن الامبراطورية التي
لم تكن تغرب عنها الشمس .

وتم اعلان الحماية البريطانية على مصر ، وأعلنت الأحكام
العرفية للتنكيل بشعب مصر ، كما تم تخويل القوات البريطانية
حقوق الحرب في الأراضي والموانئ المصرية ، ونفذت بالقوة والعنف
الرقابة على الصحف وقوانين منع التجمهر ، وملئت السجون
والمعتقلات بالأحرار من المواطنين المصريين ، وحشد مليون ومائة
وسبعون ألفا من الفتيان الأشداء في فرقة العمال والجمالة ، فرقوا
في ميادين القتال ، واهملوا أسوأ أهمال ، وانقطعت أخبارهم
عن أهليهم ، وانتهبت الدواب والغلال وأموال الخزائن العامة من
أجل جيش الامبراطورية ، وأنفقت الملايين على حرب الترك والسكة

الحديدية في صحراء سيناء ، وقيدت أسعار القطن ، وانقطع الرجاء
بالفلاح ، وأحاطت المحنة بالناس ، وبدلت رضاهم وامنهم ضيقا
وفزعا .

.. ولم يكن بد من خلق ألوان فيها تعزية وقدر من الترفيه
والتسلية ، فبدأ المسرح الفكاهي بفرقة عزيز عيد ، تضم في طليعة
أفرادها نجيب الريحاني الذي سرعان ما استقل بفرقته على مسرح
(الاجبسيانة) حيث تخصص في الغناء المسرحي المزوج بالمكاهة
وقدم روايات (الفودفيل) التي كان يترجمها له المرحوم أمين
صدقي ترجمة تكاد تكون حرفية ، ثم تتصرف الفرقة فتضج
لها أسماء شعبية تكفل اقبال الجماهير في (الفجالة) والأحياء
الشعبية المجاورة مثل (سهرة بنت دين كلب)، و (ياست ماتمشيش
كده عريانه) ، و (ضربة مقرعة) ، و (ابقى قابلنى) و (وصية
كشكش بيه) الخ .. (١)

وافتح الى جانبه مسرح (كازينو دى بارى) بولاية أمين
صدقي ، ثم على الكسار .

وأخذت هذه الفرق تتنافس فيما بينها ، مما عاد على هذا
اللون من الفن بمزيد من النشاط والشراء ..

وكان من أثر اقبال الجماهير أن مالت الفرق الأخرى الى هذا
اللون من الغناء والفكاهة ، ومن ذلك فرقة (جورج أبيض) زعيمة
المسرح الدرامي التي مزجت إنتاجها بالغناء المسرحي .

وألفت جمعية التمثيل المصري التي كان من أهدافها خلق

(١) من مذكرات نجيب الريحاني - مطبوع دار الجيب - ص ٨

المسرحية المصرية باللغة العامية ، وجمعية محاربة التمثيل الهزلى
التي ألفت من بعض الكتاب والأدباء والفنانين .



ويتابع (أديبنا) الشاب هذا النشاط المسرحى المتنوع
مستفيدا من تجاربه السابقة ، ومن الأحداث المتتالية من حوله ،
فينهض - وقد قوى قلمه ، واتسعت مداركه ، يفتش فى التاريخ
عن المواقف التى تصور أفكاره ، وتحكى أهدافه ، أكثر رحابة
وعمقا .

ويجد طلبته فى (الراهب المتنكر) (١) .

قصة تتناول تأثير الحضارة العربية على أوروبا عن طريق
(الأندلس) ، كأنما يهيب بالعرب أن ينهضوا وينفضوا عن
أنفسهم عمالة الجهل وذل الاستعمار يأخذوا من ماضيهم الثمينة
والإيمان بأنفسهم ، والحذر من عوامل الفرقة والأطماع الشخصية
التي ذهبت (بالفردوس المفقود) فى أسبانيا .

أحداث كثيرة متشابهة ، تدل على ذكاء ومهارة ودهاء ، استطاع
(أديبنا) النامى المتطور الذى لم يتجاوز الثانية والعشرين أن
ينسجها ، ويصب أفكاره العربية الإسلامية فى ثناياها ، ومن خلال
حوار أبطالها .

وبهذا استطاعت المسرحية أن تجد سبيلها الى المسرح . . فقد
قدمها (أديبنا) الى الشيخ عبد الخالق عمر - مدرس اللغة العربية
بمدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩١٧ - الذى قدمها بدوره الى ابنه

(١) نشرتها فى مجلة الأدب - يناير سنة ١٩٦٦ -

الذى كان يدير متجرا لبيع الدخان . . . ويعجب بها الابن - وقد كان على صلة برجال الفن - فقدمها الى (جوق عبد الله عكاشة) (١) .

وعرضت المسرحية بصورة لا يسره منها مواقف بعض الممثلين بسبب عدم ادراكهم للنص .

وقد مثلت هذه المسرحية للمرة الرابعة أو الخامسة بدار الأوبرا بينما كان المؤلف اماما للمفوضية المصرية فى إيطاليا ، وأشرف على ضبط نصها الشيخ السنهورى .

وبعد نجاحها هذا ، وافق الصديقان على انها عمل يستحق أن يحل صاحبه من العهد الذى سبق أن تعاهدا عليه .

أما الشيخ السنهورى فقد حكم فى ابريل سنة ١٩٢٠ م - وهو قاض بمحكمة نجع حمادى الشرعية - بالنفقة للمرأة الفقيرة فى بيت مال المسلمين . . . وأثار الحكم ضجة كبيرة ، وخاف الأصدقاء عليه من جراء هذا الحكم ، فطلبوا اليه أن يعجل بترحيل أسرته ، استعدادا للسجن أو للتشريد .

(١) قالت عنه مجلة الزهور - أكتوبر سنة ١٩١١ م : -

(الجوق العربى : مديره عبد الله عكاشة ، وقد جمع واخواته (كذا) الى رخامة الصوت حسن الاستعداد . . . وواضع رواياته الياس فياض ، الكاتب المعروف بالرزانة والطلاقة . . . ومسرح تمثيله التياترو المصرى ، وقد ألبس حلة جديدة بإدارة صاحبه اسكندر فرج . . . وأعضاؤه أفراد جوق الشيخ سلامة ، وهو أحسن جوق عرفناه . . . ومتعهد ملابسه كبريتى متعهد ملابس الأوبرا الغربية . . . ونحن لا نقول ان الجوق قد بلغ آخر مراحل الكمال ، فهذا مالا يرضاه مديره الأديب ، ولكننا نشهد أنه باذل همه تشكر فى سبيل ارضاء الفن ، وحق القيام بشروطه ، ولا جدال فى أنه خطا خطوة واسعة فى ترقية التمثيل العربى) . . . عن زكريا أحمد نصبرى أبو المجد - أعلام العرب ص ٨٤ - ٨٥ .

ولكن - بعد لقاء بمسئول أعجبت به شجاعته وإخلاصه -
رقى منقولا إلى الوجه البحري .

وحاول الشيخ السنهوري أن يحصل على موافقة صاحبه
(أمين) على أن يكون هذا الحكم إحسالا له من انعهده . . لكن
الصاحب العزيز العنيد ظل حتى آخر أيامه يرى أن هذا الحكم صدر
بعد أيام من تجاوز الشيخ السنهوري حد الثلاثين .

★ ★ ★

وبعد أن توثقت علاقة (أمين) بالفرقة كتب لها مسرحية
سفير الرشيد أو الانتقام .

قصة تاريخية اجتماعية تتناول تأثير الحضارة الغربية على
أوروبا عن طريق الشرق ، وتصحح خطأ وقع فيه بعض المؤرخين
والكتاب ، حين نسبوا نكبة البرامكة إلى العلاقة بين جعفر
والعباسة .

(فاسيد) شاب مجهول النسب من الهاشميين . . كان
لأبيه (العباس) رأى ضد الرشيد ، فلما تم للرشيد الأمر فزج
(العباس) إلى الموصل ، بعيدا عن بغداد . . وخوف أن تصل إليه يد
الرشيد التحق بالصائفة لغزو الروم . . ويأتى خبر عن مقتله ،
فتضيق بالزوجة حالها .

وفى إحدى غارات الخوارج على الموصل فقد (أسيد) واشتدت
أحزان الأم ، وكادت تفقد بصرها ، حين أصيبت عيناهما برمح
أرمضها .

ولما عاد (العباس) من خرب الروم بحث عن زوجته وابنه
في الموصل ، فلم يجدهما ، فذهب الى بغداد متخفيا يبحث عنهما •

في ذلك الحين كان (أسيد) قد أصبح من القرسان المبرزين
المقربين الى البرامكة ، فاختير مع البعثة التي سافرت الى (شرلمان)
تحمل هدية الرشيد ، وتقوم بالسفارة بين العاهلين الكبيرين ،
وتطلع على شئون الروم •

وحدثت نكبة البرامكة في غيبة البعثة • • وعاد (أسيد) من
بلاد الروم ليقا تل في صفوف البرامكة ، وكان قد وقس في حب
(سمحة) بنت محمد البرمكي •

ويجد (العباس) نفسه مع حزب (الفضل بن الربيع) عدو
البرامكة • • ويلتقي مع ابنه في معركة ، ويجرح الابن •

وفي محاولة الابن للنجاة يلجأ الى بيت (محمد البرمكي)
الذي لم تنله النكبة لوقوفه على الحياد ، وميله الى المسالمة •

وتقوم (سمحة) برعاية الحبيب الجريح ، وبينما هي تضمد
جراحه ترى وشما قديما على صدره •

وفي حديث بين (سمحة) وأم (أسيد) - التي كانت تتردد
على بيت (محمد البرمكي) لعلاج عينيها - تتعرف الأم على ابنها
الذي افتقدته من صغره ، فتسمى بغير اسمه •

وحين يقبل (العباس) مع طائفة من الجند ليلقي القبض
على (أسيد) تعترض الأم سبيلهم ، دفاعا عن ابنها الجريح ، وتلتقي
بزوجها • • وينم التعارف ، ويجتمع الشمل •

★ ★ ★

نفس الاتجاه الى الخاتمة السعيدة التي تمثلت في مسرحياته السابقة .

ولما كنت لم أحتظ بقراءة هذه المسرحيات فيما عدا (الراهب المتنكر) ، وما دونته ليس الا نقلا أميناً لرواية المؤلف ، بعينه أن أصبحت في غير حوزته ، لأن الذين حصلوا عليها ذهبوا بها - فاني لا أستطيع الحكم على طريقة المعالجة ، ولا على طبيعة الحوار ، الا من خلال هذه المسرحية . . وقد ذكر المؤلف أن الحوار في جميع مسرحياته كان بالعربية ، أما حوار (ابن العمدة) فكان مزيجاً من العامية والعربية .

وفي مصر (سفير الرشيد) يقول مخور بريد مجلة (الأدب) على لسان الأستاذ الخولي : (أما « سفير الرشيد » بعد جوقنة عكاشة ، فقد أخذها السيد محمد متولى مفتش السينما اذ ذاك في وزارة المعارف ليخرجها اخراجاً سينمائياً عالمياً في فرنسا ، التي كان يسافر اليها في بعثة ، ولكنه في هزة عائلية أخرجها من الحياة ، فلم أرها بعدها ، وأنا واثق أن لها أصلاً ، ان لم يكن في ادارة المطبوعات ، اذ كان القانون يقضى بأن يقدم الجريق بضع نسخ قبل الاذن بالتمثيل ، وقد رأيت هذه النسخ ، فحاولت أن أجدها في محفوظات قلم المطبوعات القديم ، ولكن وسائلتي في ذلك لم تؤد الى نتيجة ، كما لم تؤد الى شيء محاولة الظفر بنسخة من سفير الرشيد بواسطة الشيخ عبد الحميد عكاشة الذي يعرف مقر نسخ هذه الروايات كلها عند أخيه عبد الباقي أو عبدالله أو أولادهما ولا جدوى في هذا السبيل حتى الآن) (١) .

والصدفة السعيدة وحدها هي التي أتاحت لي الحصول على
(الراهب المتنكر) بعد أن قال فيها محرر بريد الأدب - العدد
نفسه - على لسان الأستاذ الخولي :

(أما « الراهب المتنكر » فلم يكن عندي إلا مسودات
استخلصت منها صورة لها ، مختصرة ، مثلتها مدرسة زقى المعارف
منذ بضعة عشر عاما ، وقد أعطيت هذه الصورة المختصرة لولدى
الأستاذ الدكتور محمد انقضاى منذ أكثر من عام ، ليرى فيها
رأيه اليوم ، فقال خيرا كثيرا ، وفضل الى حد أن معهد التمثيل
سيطلب لها جائزة التأليف المسرحي ، وتركت له حرية التصرف
التامة فى إعادة اخراجها ، فالتزم بذلك ، وشغل بما لا يستطيع
دفعه من المشاغل التي لا يمكن معها سؤاله عن شيء) .

لكنى تلقيت من السيدة الجليلة الدكتورة عائشة عبد الرحمن
مجموعة من المخطوطات لمحاضرات الأستاذ الخولي فى بداية حياته
الجامعية ، فعثرت بينها على مسودة كاملة (لراهب المتنكر) ،
حاولت جاهدا تحقيق الصورة الأصلية - وقد أكل الزمان الكثير
من حروفها ، وتعرجت السطور والتوت بمحاولات التهذيب والتنقيح
- لنشرها فى مجلة الأدب .

وتقع المسرحية فى ثلاثة فصول ، خمسة مناظر (١ - ٢ - ٣)
جرى قلم المؤلف فيها بالتصحيح المرة بعد المرة بالرصاص
الأحمر والأسود وبالتنقيح ، مما يفيد أن التصحيح جرى فى المسرحية
كلها . ثم ان بها خطاين لغويين ، مما يفيد أن عملية التنقيح
والتهذيب جرت فى أيام الطالب ، فقد جاء على لسان (طروب)
فى الفصل الأول : (كلا ، كلا ، بل سيدة ، وان شئت قل أميرة)
بحذف الفاء فى جواب الشرط ، كما جاء فى المنظر الثانى من الفصل

الثالث على لسان المثلث : (وكيف ننسى سوابقك في الميادين ،
ومكانك بين المجاهدين ، وصولاتك بين الأبطال ، وبلاؤك في منازلة
الرجال ، اذهب كل ذلك ؟) يعطف هرفوع على منصوب . . .

وفي الصفحة الأولى للمسرحية يقول المؤلف انها (مثلت على
مسرح الأوبرا أول مرة مساء ١٦/١٢/١٩١٧ م) . . .

والناظر في المسرحية لا يجد مشقة في الحكم بأن المؤلف وفق
غاية التوفيق في التعبير عن البيئة العربية في الأندلس ، وفي
تصوير الجوالج النفسية للأبطال من خلال حوار مسلسل بام
سريع نابض ، يعيش قارئه مع إخلاص الجيب ووفائه ، وإباء
القائد وشجاعته أمام الموت ، وفيل (الحكم) وعفوه عند القدرة ،
ودهاء الخليفة وسعة حيلته ، وتنكر رجل الأمن لكل علاقة خاصة
في سبيل واجبه ، وإنسانية السجنان . . .

ولم تخل هذه الدراما العنيفة من طابع الفكاهة . . (١)

(١) الا أنا - مع هذا - نجد هذا الحوار لا يخلو من تعبيرات قرآنية وأمثال
عربية ، قد توحي بالصنعة التي لا تسوغ مع المسرح ، وان كانت البيئة الأندلسية
تتضمنها . . كما أننا نجد اللفظ قد يتعثر معها النظارة مثل (ينهد في رقتك
جيش . . قتلها بثها . . فاجأها مرض جافدها . . مكثت في بلادهم نحو ستة
الاشهر . . ما حملت لديهم خطة خسف في دين ولا عرض . . لادر درك من مودط
خبل . . لا حس بها ولا ذماء) . . .

ثم أنا نجد (الناصر) في آخر المنظر الأول من الفصل الثالث يقول :
(لا يقتل سعيد حتى أراه) ، ومع ذلك يهيبه السيف عنق سعيد للضرب ويرقع
سيفه ، ويكاد يقتله ، لولا دق الباب !! كما نجد (المثلث) يبادل السجنان
إشارة فيتقدم للإمساك به ، ويفهم من ذلك أن السجنان يعرف حقيقةه ، ثم يتبين
غير ذلك !!

ومع ذلك كله نستطيع الاطمئنان الى نجاح المسرحية في حينها .. فقد اهتمت فرقة (عكاشة) بعرضها على مسرح (الاوبرا) لمؤلف مجهول ، ثم أعدت (سفير الرشيد) للتمثيل وأعلنت عنها ، نتيجة لنجاح (الراهب المتنكر) ، وان حالت ظروف - بعد ذلك - دون عرضها .

وقد حاولت (الفرقة) الاتفاق مع المؤلف على الاستمرار في تقديم ما يشغل برنامجها السنوي - وكانت تقدم اربع تمثيلات في العام - مقابل عشرين جنيها ذهبيا . لكنه رفض العرض ، بحجة أنه لا يستطيع أن يكتب ما يطلب منه ، بل اذا واثقه الفكرة، وتهيأت له الدوافع الفنية ، فان المؤلف لا يكتب حوار مسرحية فحسب (بل يعرض مع ذلك الجو الخارجي لحوادثها ، ويعرض الجو النفسي لأشخاصها) .. ثم (ان المسرحية تعيش في نفس مؤلفها ، ويشهد في نفسه أشخاصها ، وهم يمارسون حياتهم عند الحوادث التي يعرضها ، ومن حياتهم في دنيا خواطره ، وعن طريق هذه المشاهدة الداخلية يكتب حوارهم حين يتكلمون ، مع شيء من الإشارة الى انفعالاتهم) .

ولا ييسر هذا العمل الفني متكاملًا لمجرد الإرادة ، فلا بد من المعاشة ..

هذا هو رأى الأستاذ الخولي ، وقد أكدته عبارته سنة ١٩٥٦ في العدد الأول من مجلة الأدب ..

ولم يتوفر لي الاطلاع على حديث له بهذا الصدد قبل هذا التاريخ المتأخر ، وان ذكر أنه (أصل رأيي القديم في أن المسرحية لا تقرأ) ، وفيه ما يبرر عدم احتفاظه بأصول مسرحياته ، أو عدم اضراجه على الحصول عليها ممن وقعت في أيديهم ، لأنه يرى أن (المسرحية ليست أدبا معدا لقراءة القارئ ولا صالحا لقراءة

القارئ) ، فالعمل الفني - الى جوار الحوار - يقدم (نقطا سردية عن الجو الخارجى ، يستعملها المخرج فى اعداد المنظر ، ثم اشارات مجملة خاطفة عن الحركات والأحوال النفسية للأشخاص ، حين يرى ضرورة الاشارة اليها) . . ثم (يترك كل هذا الفراغ ليملاه الممثل ، على قدر ما يتمثل من حياة الشخصية التى يملئها) . . و (الممثل وحده هو الذى يشعر بحساسيته الفنية بما يشاهده المؤلف داخليا ، وعلى قدر قوة هذه الحساسية فى الممثل ينعكس على نفسه ما أحسه المؤلف فأودعه فى حوار من روح القصة . وعلى قدر استشفاف الممثل لهذه الروح ، واستطاعته المعيشة فى جوها - يكون أدائه الفنى لدوره ممتازا أو مقاربا أو عاديا أو ضعيفا) (١) .

وان يكن لهذا الرأى من قوة الدلالة فان قارئ المسرحية ينبغى أن يتزود بالقدرة على التكيف بجوها وتقمص شخصياتها ، وتمثل حوارها تمثلا واقعيا ، بحيث يتمكن من اتخاذ موقف منها . . فلا يكون مجرد قارئ أحداث ، تشغله الخيوط المتشابكة والعقد المثيرة ، وما يستعلن من تعبيرات ترتبط بنوازع خاصة به . . ثم ان العمل الفني فى أى صورة هو الذى يترك للقارئ مجال المشاركة الفكرية ، ومن ثم كان الرمز والايحاء والايجاز . . الى آخر المجالات الأدبية التى تعتمد على ذكاء القارئ . . هذا الى ما نجد من لذة فى قراءة الحكيم وتشيوخ وشو وكامى ويونسكو وكافكا . . الخ . . واذا كان الممثل لا يصل الى حقيقة العمل الفني (الا بعد دراسة لدوره ، ينتهى بها الى تمثله تمثلا واضحا ، وادراكه ادراكا يمكنه من أن يعيش فيه) فان الممثل ليس الا قارئ ذكيا ، بالاضافة الى شيء آخر لا تحتاجه الا خشبة المسرح ، ليكون واسطة

بين الجمهور والمؤلف ، أو ليكون هو مع زملائه والمخرج صانعين
عملا آخر تضاف عظمته اليهم لا الى المؤلف . .

وعلى كل فقد أعفانا الأستاذ الخولى من مشقة الجدل لأنه
لا يرى هذا الرأي (رأيا تقريرا) ، وللقراء أن يعتبروه (سوألا
واستفتاء يجيبون عنه بما يشاءون) فالرأى قديم لديه (منذ عانيت
هذه التجربة) . . و (لست اليوم من كتاب القصة بأى صنف
من صنوفها) (١) .

دراسات تاريخية

ولا نستطيع أن نربط اتجاه (المؤلف) نحو المسرحية التاريخية بما كان يعرض في ذلك الحين من مسرحيات تاريخية مصرية لشكسبير وغيره ، ومسرحيات تاريخية غربية للمعبدي والجميل وابراهيم رمزي وفرح أنطون وغيرهم ، أو نربطها بالتخصص التاريخي الكثيرة العدد لجورجي زيدان فقط ، بل الى ذلك بالدراسات التي شغل نفسه بها وهو يعيش في هذا الجو الأدبي .

واذا نظرنا الى مراجع بحثه عن (السياحات الاسلامية) الذي تقدم به لمدرسة القضاء الشرعي عام (١٩١٥ - ١٩١٦ م) - وهو في كراستين كبيرتين أخذهما الأستاذ أحمد حسنين الرحالة المعروف ، ولم يعدهما - عرفنا أي تطور سريع في دراسة هذا الطالب النجيب .

لقد اتخذ لبحثه مراجع : مروج الذهب للمسعودي على هامش ابن الأثير ، ورخلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ، ومسالك الممالك للاصطخري ، والخراج لقدامة بن جعفر وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ، وغيرها . . . على حين كانت قراءاته قبل قليل في قصص بلا أسماء مؤلفين ، مثل : تمدن الفلاح ، والقط والفار ، والسلك والوايو . . . فإذا كان له أن يوسع ميدانه قرأ منهل الظمان في تاريخ آل عثمان .

ولقد نشر قدر من هذا البحث بمجلة الهلال في الجزء الرابع من السنة الثلاثين (أول يناير سنة ١٩٢٢) . . . قدمه المحرر بقوله :

(هذا بحث طلي ، شيق ، جليل القدر ، خطير الشأن . .

وقد كتب هذا المقال أستاذ فاضل منقّب ، جمع معلوماته من المصادر الوثيقة ، فرتبها أحسن ترتيب ، ونسقها أجمل تنسيق) .

.. وفي عام ١٩١٧ م جعل موضوع رسالته الدراسية (الجندية الإسلامية ونظمها) .. (شغفا بتاريخ فروع الحضارة الإسلامية ، وذكرى لمجد آباء سلفوا) .

وقد قدم لهذه الرسالة سنة ١٩٦٠ م حين نشرها في كتاب (الجندية والسلام .. واقع ومشال) بقوله : (قطعة من تاريخ الفكر ، في حياة الجيل الماضي ، بما هو انعكاس لاتجاهات الجماعة على فرد منها ، وتفاعل من هذا الفرد مع الجماعة التي يحيا فيها ، وبها) ..

فقد كانت عوامل الثورة على الاستغلال والفساد تعمل عملها ، والرغبة في بناء أمة متكاملة متحررة قوية تجيش في نفوس أبناء مصر وغيرها من بلاد العرب .

واتخذت هذه (الرسالة) سنة ١٩٣٨ م (وسيلة لعمل قوى فعال ، يحول صرير القلم في الحديث عن الجندية أثير طائفة عربية في سماء الحرية القوية) عن طريق طبعها والاسهام بثمنها في شراء طائرة بثمنها هدية لمصر المسلحة .. وقدم هذه الطبعة اللواء عزيز على المصري (باشا) المفتش العام للجيش المصري بقوله : (اني أرى الأستاذ أمين الخولي في سفره هذا كشف لنا عن طلائع حركة جديدة ، واتجاه جديد ، لا يكون بدونه استقلال ، ولا تكون حرية .. واني - وأنا أطلع هذا الكتاب - أشعر بتفاؤل واستيشار بالمستقبل وبدنو جيل جديد ، يختلف عن الجيل الماضي الذي كان جيل كلام ، فما ينتج عن الكلام من مباحثات ، ومناقشات ، فتفرقة ، فضعف) .

وشبت نار الحرب العالمية الثانية سنة ١٩١٩ م ، (ووقف المشروع - حينذاك بعد طبع ملزمة واحدة من تاريخ الجندية) .

والبحث يقع فى مائة وعشر صفحات رجع فيه كاتبه الى الهداية فى الشريعة ، وتفسير الخطيب الشربيني ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتاريخ ابن اياس ، وخطط المقرئى ، والكامل لابن الاثير ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ الدولة العثمانية لمحمد بك فريد ، والأحكام السلطانية للماوردي ، وتاريخ الأتراك العثمانيين للأستاذ حسين لبيب ، وفتوح البلدان للبلاذري ، ونفح الطيب للمقرئ ، وآثار الأول فى ترتيب الدول للحسن بن عبد الله ، وفقه اللغة للثعالبي ، والمخصص لابن سيده ، وتاريخ التمدن الاسلامي لجورجى زيدان ، وكتاب الانتصار لابن دقماق ، والقاموس المحيط ، وصبح الأعشى ، وأحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم للهمداني ، وكتاب الأنبياء فى المجانيق ، وتاريخ بغداد لابن طيغور ، والأحكام الملوكية والضوابط القاموسية لابن منكلى ، وإيضاح المرامى لشرح هداية الرامى الى طريق المرامى للششيخ محيى الدين السلطى ، والسيرة الحلبية ، وسيرة ابن هشام ، والكامل للمبرد ، والمفردات لابن البيطار ، ودائرة المعارف للبستاني ، وحاضر العالم الاسلامي ، لشكيب أرسلان ، والعز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بآلات الحروب والمدافع ، والحضارة الاسلامية لركى باشا ، وتاريخ ابن خلكان ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وزبدة كشف الممالك ، والمزهر للسيوطي ، وقرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون (مترجم عن الفرنسية) وقوانين الدواوين لابن مماتي ، وسفن الأسطول الاسلامي لعبد الفتاح عبادة ، وسيرة صلاح الدين لابن شداد ، وحقوق الملل ومعاهدات الدول لأرسلان ، وشرح أدب الكاتب للبطلبوسى ، وأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ، والحيوان للجاحظ .

ثبت طويل من المراجع الكبرى - عدا مجلتي الهلال والمقتطف
- سند طالب مدرسة القضاء الشرعي ، ليقدم بحثا مدرسيا ..

صورة للبيئة الثقافية التي صدر عنها في مستودعها
التاريخيتين ، كما جاء في مقدمة (الجندية والسلام) :

(واجه الجيل السابق الحياة والدعوة الى الشعور بالذات
ترفع ، فبدأت ، وبدأ يشعر بنفسه في ظل أمجاد آباءه ، وعظمة
أسلافه ، بالحديث عن الحضارة الاسلامية ، والحضارة المصرية حيناً ،
واستجابة لهذه الدعوة ألفت للمبرح قصيتين ، مثلت احدهما ،
وهي تصور تأثير الحضارة العربية على أوروبا ، من طريق أسبانيا ،
وأعيدت الثانية للتمثيل ، وهي تصور تأثير الحضارة العربية على
أوروبا ، من طريق بغداد ، بمثل صلة الرشيد بشارلمان)

مع ثورة سنة ١٩١٩ م

وضعت الحرب العالمية أوزارها ، وأخذت الدول الصغرى
تفتش عن نفسها بين الكومات المتراكمة من الدعايات والادعاءات ،
وتألف الوفد المصرى ، وأخذ ينهض بمسئولية الدفاع عن
حقوق البلاد ، ويسعى لرفع الحماية البريطانية ، وتحقيق
الاستقلال .

لكنه أراد أن يدعم مركزه فى الجهاد ، وأن يبرهن للانجليز
على أنه وكيل عن الأمة ، ينطق بلسانها . . فضلا على الصفة النيابية
التي كانت لأكثر أعضائه فى الجمعية التشريعية . .

وكانت الفكرة متجهة - بادية ذى بدء - إلى الاكتفاء بتوقيع
أعضاء الجمعية التشريعية على هذا التوكيل ، لأنهم بصفتهم النيابية
يعبرون عن رأى الأمة بأجمعها . . لكن بعض ذوى الرأى من الأمة
- من غير هؤلاء الأعضاء - أرادوا أن يشتركوا فى التوقيع على هذا
التوكيل . .

زد على ذلك أن نبأه اتصل بالناس ، واهتموا به فرأى الوفد
أن يعرض التوكيل على الهيئات الأخرى ، فسارعت إلى امضاءه . .
وأخذ الاقبال يزداد على التوقيع عليه من جميع الطبقات ، فطبعت
منه نسخ عديدة ، وأرسلت إلى جميع أنحاء القطر . . (١)

وفى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ طلب أعضاء الوفد من
السلطة العسكرية جوازات سفر إلى أوروبا للمطالبة بحقوق البلاد ،
فأجابت القيادة العليا للجيش البريطانية بأنه قد عرضت صعوبات
تمنع من السفر .

(١) هذه حياتى « لعبد العزيز فهمى » (كتاب الهلال عدد ١٤٥) - ص ٨٦

وتوالى الحوادث بعد ذلك ، وقدمت الاحتجاجات الى المعتمد
البريطانى ، والى ممثلى الدول الأجنبية ، حتى كان يوم ٨ مارس
سنة ١٩١٩ م ، وهو اليوم الذى اعتقل فيه الزعماء الأربعة سعد
وصدقى والباسل ومحمد محمود ، ونفوا الى مالطة •

وفى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩م تأججت الثورة المصرية التى
اشترك فيها الشعب كله ، والتى قدم فيها الآباء والأجداد أبواهم
الطاهرة الزكية (فى سبيل الحرية والاستقلال) •

كانت ثورة شعبية قادرة لو أنها أوتيت القيادة القادرة •

كان الفلاحون يهاجمون القطارات المسلحة البريطانية ،
ويقطعون قضبان السكك الحديدية ، ويفقدون فى كل معركة
المئات ••

كانت منظمات الشباب فى المدن تقوم بدور القناصة
للدوريات الانجليزية ، وتدمر وتخرّب منشآت الاحتلال وعملائه •

والنساء يطفن فى تظاهرات ينددن بالاستعمار ، ويلهبن
المشاعر •

والموظفون أضربوا ردا على اللورد كيرزن الذى صرح بأن الثورة
المصرية لا يؤيدها المثقفون ، لأن المثقفين - وهم موظفو الحكومة -
يفيدون عنها •• وأسقط الاضراب الوزارة القائمة ، اذ لم تجد
موظفيا يعاونها فى العمل (١) •

ولم يكن بد أمام (أمين الخولى) - والبلاد تتمزق قشورها
الجافة فى عنف واصرار ، انكشف عن حيويتها ونضارتها - من

(١) المصدر السابق - ص ١٢٦/٩٠/٨٨ •

ترك الميدان الفنى ، بعد أن تحولت (جمعية أخوان الصفا) الى نواة للتفاهم السياسى ، واتسع أمامها مجال العمل .

وكان المفهوم عن الثورة أنها سبيل لإعلان حرص مصر على الاستقلال ، وحققها فى تقرير المصير ، حسب مبادئه ولسن . . . لكن مجرى الأحداث كان فى صورة (التحدى كعمل مقصود لذاته) .

وكانت مدرسة القضاء (تغلى من هذه الأحداث كما يغلى غيرها من المدارس - العليا ، وزاد غليانها أيام تكون الوفد ، وعلى رأسه سعد باشا زعلول ، إذ كانت المدرسة تعد نفسها صنيعة من صنيعاته ، وعملا من أعماله الجليلة ، وأن الوطن والوفاء معا يوجبان عليها تأييده ، ما استطاعت ، وعلى رأس المدرسة عاطف بك بركات من أقرباء سعد ومن أقرب المقربين إليه) (١) .

واشترك طلاب المدرسة فى المظاهرات التى تتردد على السفارات ، وانتهت الأحداث بكثير من الطلاب - ومنهم جماعة أخوان الصفا - الى طبع وتوزيع المنشورات السرية ، وإلى تشكيلات للاغتيال .

والاستاذ الخولى يقرر أنه لم يشترك فى عملية اغتيال مباشرة ، وإن قام بتوزيع الأسلحة ، واشترك فى خطط الاغتيال الضرورى ، ولم ينهض بعبء داخل جمعية سرية إلا فى صورة تحضيرية لوجودها ، أو لممارسة عمل . . . ونشط فى التوعية بالقوى ، وجمع التوقيعات للوفد ، كما جمع التبرعات . . . وقد بلغت حصيلة التبرعات التى جمعها من قريته وجدها مائتين وخمسين جنيها .

(١) حياتى - لأحمد أمين - ص ١٩٩

يقول صديقه وزميله الشيخ السنهوي عنه في هذه الفترة :

(كان الوطني الثائر ، اذ كان عنصراً من أهم العناصر الثورية في سنة ١٩١٩ م ، كان يعمل في شتى ميادينها .. كان يعمل بين إخوانه الطلاب في مدرسة القضاء ، والاجتماعات بالطلاب في الخارج ، وفي كل ناحية يكون فيها يشعل النفوس فيها ، ويقويها ، ويشد من أزرها .

وأذكر أن أول مظاهرة من أجل ثورة سنة ١٩١٩ م كان موعد خروجها من الأزهر الشريف ، وتم التجمع ، ولكن محافظ العاصمة آنذاك (رسل باشا) اجتمع هو وضباطه وجنوده وحاصروا الأزهر ، ليمنعوا المظاهرة .

وكان (أمين) من حملة الاعلام ، وفي الطلبة .. ووصل الانذار اليهم بالتأخر ، والأطلقت عليهم النار ، فلم يتراجع ، بينما تراجع كثيرون من حوله ، ومازال ثابتاً في مكانه يحمل علم مدرسته حتى كان هو وحده .. وبقي من موعد الانذار دقائق ، فكشف عن صدره ، وقال : هانذا .. ولكن الله سلم ، وانتهى الأمر على أن تخرج المظاهرة ، ورسم لها خط السير .

وأخذ الأستاذ أمين - رحمه الله - عند الحكماء ليضم من ضمير موكب المظاهرة في طريقه المرسى يوم ، حتى اذا وصلت الى ميدان السكة الحديد خطرت لأمين فكرة لم تخطر على بال أحد ، اذ اتجه بالمظاهرة من أول شارع القجالة ، وهو ينادى بصوته القوى : فليحيا إخواننا الأقباط .. واستمرت المظاهرة حتى كان مرورها على الواقف في مكان واحد يستغرق أكثر من ساعتين (١) .

(١) الادب - ابريل ومايو سنة ١٩٦٦ - عدد خاص بالتأين .

ولم يقف نشاط (أمين الثائر) عند هذا الحد ، بل (رن
صدى نشيد في سنة ١٩١٩ م ، هتف به هاتف ، سمع صوته ،
ولم ير شخصه ، ولم يعرف اسمه ولا رسمه ، فكان وحيدا من
الفن ، وفنا من الوحي ، تصدق به وفيه المعاني الكبرى في حقيقة
الفن وثورته ، وحقيقة الفنان ورسالته .

وكان مطلع هذا النشد :

يا بني الأوطان هيا نطلب العلم سويا
وتعالوا نتفاني نرفع الظلم الشايد

وبعد هذا المطلع مباشرة يهتف النشيد :

ساعدونا يا عساكر بائع الأوطان كافي
اننا نرجو نجاة من يد الباغى العنيد

وفي النشيد وراء ذلك معان من عظمة النفس المصرية وبسالتها،
وبذلها ، تظل أبد الدهر تردد ، فتجد فيها النفس شعار الثورة ..
والثورة دائما (١) .

(ويستطرد النشيد في مواجهة الأعداء :

اوثقونا بالحبال واذيقونا النكال
نحن في الهيжа رجائي لا نبالي بالوعيد
اضربونا بالرصاص فالحياة في القصاص
كلنا نبغى الخلاص من بقاء لا يفيد

(١) الأدب - يولية سنة ١٩٦٤ تطهير الأدب للأستاذ الخولي ، وقد علقت
الدكتورة عني هذا النشيد ، بأنها غير واثقة من نظم استاذنا له .. وقد سألت
الشيخ اسهرري في ذلك فايد نسبة النشيد الى الأستاذ الخولي ..

أضربونا بالمسدات ما لأمر الله (تسبح
نحن في البس نباح بقلوب من حديد (١)

وقل من كان يدري أن هذا الصوت الثائر هو صوت طالب
مدرسة القضاء الشرعي أسين الخولي الذي كان أجهر الأصوات في
قيادة المظاهرات .

يروى الشيخ السنهوري أنه لما قتل فتى صغير لأب يبيع
(القباقيب) برصاص الانجليز أصر الشباب على تشييع جنازته ،
وسارت المظاهرة تحمل الجثمان ، ويهتف (الخولي) في مقدمتها :
(فلتسقط بريطانيا السفلى) . . . وتحت وابل من الرصاص ،
والجموع تجري وتتساقط في منحدر جامع السلطان حسين ، كان
(الخولي) يجري ويهتف : (الثبات . . الثبات) .

ويقول الأستاذ الخولي : (كنا نعد علما يحمل عبارة معبرة ،
واضحة التعبير عن رأينا في تقرير مصيرنا . . وهنا كانت حيرة . .
أنكبت الاستقلال الكامل ، أو التام ، أو ما يشبه هذه العبارات ،
التي لم يكن قد سار منها وصف للاستقلال ، ولكن . . ما العبارة
التي تحقق المعنى القانوني الدولي ؟

وفي هذه الحيرة ، ومع ضيق الوقت ، وبرغبة شديدة في
إبراز لفظ الاستقلال وضاء واضحا ، فزعنا الى مخلص من ثقافتنا
الاسلامية ، وتذكرنا قضية اصولية سائرة هي : أن المطلق ينصرف
الى الكامل من نوعه .

وبسرعة طلبنا أن يكتب باللون الأخضر في العلم الأبيض لفظ
الاستقلال كبيرا بعرض العلم كله ، فيكون المطلق الكامل (٢) .

(١) الأدب - أكتوبر سنة ١٩٦٤ - ميكروب الوثنية للأستاذ الخولي . .

(٢) الأدب - فبراير سنة ١٩٦٦ الفن رفيع دائما للأستاذ الخولي .

في جريدة السفور ..

وامتد نشاطه الى الصحافة .. فأعاد اتصاله بجريدة السفور (١) ، وكان أول مقال له بها عن المشهورين والعظماء ، أراد به أن يفرق بين ما تحدثه الشهرة من ضجيج ومعنى العظمة الحقيقية يقول فيه : (مثل الأعلى كان دائما كالأفق ، كلما تقدمت منه وجدته يبعد أمامي) .

ويقول : (ان الأحياء المعاصرين من أدبائنا المشاهير كالحياد التي تجرى في حلبة السباق ، لا يحسن الحكم عليها الا بعد اتمام أشواطها ، أي بعد وفاتها أو اعتزالها العمل) (٢) .

ولكن مقالاته ما بين ٩ يناير سنة ١٩١٩ و ٦ مارس سنة ١٩١٩ - أي قبيل قيام الثورة - كانت مطبوعة بطابع الاصصلاح الثوري .. (ان ما يفيد الجزء يفيد الكل .. وما يضر جزءا من الجسم يضر الجسم كله) .. (ما بين مكباتنا والمكبات الافرنجية هو ما بين تفكيرنا وتفكيرهم) .. (لماذا يحتقر الناس من يسرق من جيبك جنيها أو ريالاً أكثر مما يحتقرون من يضع علبك ساعة أو ساعتين .. مع أن سارق الجنيه أو الريال سارق عرضاً من أعراضك ، والثاني سرق جزءاً من حياتك ؟) .. (ان الصلابة للمصريين خير مما طنطن به اليونان ومشايعوهم في مدح التواضع والاحسان ونحوهما ما قال عنه (نيتشه) انها أخلاق العبيد لا أخلاق السادة) .. (أكبر دواعي الفساد في الشبان أن يفسحوا لخيالهم المجال ، فيأتي لهم بصور ملهبة ، وأشكال فاتنة ، وتصديرات وأوهام تعمى العقول ، وتضل المهتدين) .

(١) صحيفة أدبية اجتماعية نقدية ، صدرت في ٢١ يولييه سنة ١٩١٥ امتداداً للجريدة التي كان يحررها أحمد لطفى السيد ، ومن كتابها محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي وأحمد أمين . وظلت تصدر حتى قيام الثورة .

(٢) ص ٧٢١ النثر العربي المعاصر في مائة عام لأنور الجندي ط سنة ١٩٦١م

ولكن ..

هل استطاع هذا المصلح الأريب الذى عالج قضايا ذات شأن فى بناء الأمة ، وتصدى فى العديدين الآخرين لمشكلة زواج الطلاب ، وكيف تتسلل الأوهام العاسدة الى نفوسهم وتحكم تصرفاتهم هل استطاع أن يحكم تصرفاته هو فى بيئة يطلع فيها على كثير من أحوال النساء دون أن يجد من نفسه القدرة على أن يخطو الى التجربة ؟

لقد توفى والده فى هذه الأثناء ، فتزوج مكرها من ابنة عمه التى تربت فى بيتهم ، بعد أن مات والداها ، وقد خطبت له منذ الصبى .

ولكن الزمن تقدم به ، واتسعت مداركه ، وتغيرت صورة المرأة فى نظره . واشتدت به الحيرة ، لحرق والدته الشديد على الزواج من قريبته .. وكان المتنافسون عليها كثيرين ، لأنها بيضاء ، (الماء يبين من زورها) ، ولأنها ممثلة ، تهتز باهتزاز أعطافها قلوب الشباب فى القرية .

وكاد النزاع يغلو بطلائعها ، فقرر الزواج منها ، حسما للخلافات .. وقال : سأزوجها على شرط ألا تخرج من البلد ، وسأزوج عليها .. فاذا وافقت كان بها .

ووافقت ، لأن القاعدة أن الرجل يختلف كثيرا بعد الزواج عنه قبله ، وبخاصة اذا قيده امرأه بروابط الأبناء ، فضلا عن المسئوليات العديدة التى تشغله عن نفسه .

وكان من الممكن أن تتوثق العلاقة بين الزوجين ، لو أن قلب الزوج خال من الروابط العاطفية التى تشده الى القاهرة ، بعيدا عن الزوجة التى بقيت فى القرية .

فمنذ سنة ١٩١٤ وفتانا يلتقى - فى طريقه الى مدرسة القضاء
الشرعى ، أو عائدا منها - بعينين جميلتين ، تقعان من نفسه موقعا
لايفلتها •

وشغلتها العينان الجميلتان حتى عن جسم صاحبتيهما القصير
الذى (لم يكن فيه متعة الجسم ولازينة العين) كما قال لها فى
احدى رسائله •

ولعل ظمأه الى الحب - فى بيئة يطلع فيها على كثير من أحوال
النساء دون أن يجد من نفسه القدرة على أن يخطو الى التجربة -
جعله يحس بكثير من الفراغ الذى يشبه الاحساس بالغربة ،
مما جعله يتعلق بأول أشعة خضراء استشعر معها الأنس والأمان •

بل ان الجو الفكرى من حوله كان مشحونا بالاتجاه الرومانسى
المرتبط بغادة الكاميليا وبول وفرجين وماجدولين والشاعر ومجنون
ليلي ، وباسلوب المنفلوطى الذى كان يتمثله الناشئة جميعا فى
كتاباتهم •

(كانت موضوعات الانشساء كلها تنتهى بالبكاء على بطل من
الابطال المألوفين فى النظرات والعبرات ، وهم كلهم آناس يبكون
ويبكي عليهم ، لأنهم مخذولون منكسرون ، أو مضيعون فى ذمم اللئام
وقرناء السوء ، وقل منهم من هو مسئول عن خيبته ، أو هو قادر على
انصاف نفسه والاقتصاص لها ممن يجنى عليه •

وكان من ديدن التلاميذ اذا كان الموضوع فى غير هذه الأغراض
أن ينحرفوا به الى عبارة محفوظة يستطردون بعدها الى مناسبة للبكاء
والشكوى يشرذونها أحيانا بكلماتها المسطورة فى القصة أو
المقال •

وإذا كان ما وصلنا من أسلوب الأستاذ الخولى - فى نشأته - لا يفيد استاذية المنفلوطى ، فإنه كان - دون شك - يتنسم هذه الأنفاس التى تشيع فى بيئته الثقافية ، ولعل مقالات (السفور) تحمل آثارا من ملامح المنفلوطى .

وإذا كان الحب الأفلاطونى الخالى من المصلحة أو الشهوة هو الذى يحرق أنفاس الشباب ، ويزين الضباب والوهم فى عيونهم - فقد أصبحت فتاة ليست على حظ كبير من الجمال شغل فتى مكتمل القوة ناضج الفكر ، لأنه إذا أحب مثلها (أصبح الحب بريئا) !!

وعرف أن صناخبة العينين الجميلتين تعمل ناظرة مدرسة (خوائد بركة) التى كان أولاد خاله تلاميذ بها .

وتمضى الأيام وصاحبنا لا يقوى على مخاطبة محبوبته ، واذ برح من الحب أرسل إليها رسائل تفيض بلواعج قلبه .. رسائل يتمثل فيها وجودا أدبيا خالدا ، وكأته يريد أن يجعل من نفسه (فرتز) يتحدث إلى (شرلوث) أو (ابن زيدون) يكتب إلى (ولادة) ..

(يافاتنة .. دلى كما تشائين ، واعبشى كما تشائين .. ولكن .. اعلمى أن كنت تشائين ، انى سأحبك كما أشاء ، ولو أنك لاتشائين) ..

لكن الفاتنة لاترق ، وتستمر فى دلالها ، أو قل أن التقاليد كانت أحسن من ارادتها ، فلم تكتب إليه حتى سنة ١٩٢١ . بعد أن يكون قد تزوج وفى الوقت نفسه قد خطبت له أخرى بالقاهرة ..

وينجب .. لكن ابنه البكر لم يخفف حدة عاطفته ، ولم يدعم الروابط بين الزوجين .

وفى سنة ١٩٢٠ يولد للسلطان (فؤاد) ولى عهده (فاروق) . وتخرج المظاهرات تهتف ضده ، ويتزعم صاحبنا زملاءه هاتفا بسقوط

(ابن السفاح) .. ويحرض زملاءه على عدم مغادرة المدرسة في
اليوم الذي منح فيه الطلاب اجازة تعبيرا عن الفرحة بولي العهد ..
وحين يحذره (عاطف باشا) من مغبة هذا التصرف ،
ويصفه بأنه (نهلسنى) - يصر على موقفه ، وان استعان بالشرطة .
وتعمر (الأزمة) بسلام بسبب حرص (عاطف باشا) على
مصباحة أبنائه ..

وتنتهى مرحلة الدراسة بتفوق ، وان كان ترتيبه الثانى ، على
غير ماتعود ، فلما عاتبه صديق عمره الشننخ السهنورى فى هذا ،
اعتذر برضه خلال شهرين قبيل الامتحان ..

وفى ١٠ مايو سنة ١٩٢٠ عين مدرسا بمدرسة القضاء
الشرعى ، وسكن فى طابق من بيت خالته ، وحرصت الخالة على
تزويجه من ابنتها ، بعد أن تأكدت من فشل الزيجة الاولى ..

وتترد مع ابنة الخالة رسالة من صاحبتة تقول :
(ايها الأخ الفاضل ، كفى اجهاذا لنفسك ، أنا واثقة
مما تقول) ..

فيعلن الى خالته قصة حبه .. وتعمل الخالة على التقريب بين
الحبيبين ، اذ لا سبيل الى العدول به الى ابنتها ..

ودعيت الحبيبة الى بيت الخالة مرة ومرة ، وصارا يلتقيان فى
البيت وخارجه ، وامتلات الرسائل المتبادلة بشحنات عاطفية
ملتزمة .. وتتابع موجات النهر الخالد سريعة الى المصب ..

ويذهب الى عم محبوبته بخطبها ..
وانقسم الأهل ، مشايعين ومعارضين ..

كانت الخالة الى جانبه ، بينما الخال والبدة يحملان عليه ،
ويحاولان احراجه ماديا ، عن طريق تقسيم الأرض ، حتى يشغل
نفسه بالزراعة وقتا أطول ، ولم يكن قد قطع بينه وبينها ..

وتم زواجه الثانى فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ بعد ثمانى سنوات
من قصة حب طويلة ، كان يمكن أن تصبح تاريخا حيا ، لو أن هذه
الرسائل المتبادلة لم تذهب بها قصة أخرى فى حياته ، بعد أن رقت
فى يد بطلتها ، كما حكى الأستاذ الخولى ، وإن كانت بشلة الرسائل
قد ذكرت أنها أحرقتها فى ساعة ثورة نفسية جامحة ، بعد ما نصابت
خطوات القصة الجديدة ..

ومما يثير الدهشة أن قصة حب قوى ، بتحدى العرف
والتقاليد ، كهذه ، لم يخلدها صاحبها الأديب ، مع أنها وقعت فى
مرحلة مبكرة من حياته ، وفى وقت كان الفن يشغل من فكره وجهده
حيزا كبيرا .. وعادة الأدباء والمتأدبين فى هذه السنين أن يصطفوا
هذه القصص ، ويعيشوا فيها بوجدانهم ويعمل خيالهم من خيوط
الحرمان نسيج الواقع .. فإذا كان الواقع يغص بالمواقف الحية
النابضة ، فهل من الممكن ألا يتناولها الأديب من قريب أو بعيد ؟

قد يقال ان تناول الكاتب لها كان من خلال حب
سعيد بن المنذر لطروب فى (الراهب المتنكر) وحب أسيد لسميحة
فى (سفير الرشيد) .. لكن قصة الحب فى المسرحيتين لم تكن
الا عملا ثانويا ، اذا قصد لذاته لم يخرج عن كونه تكملة للصورة
الاجتماعية ، والنوازع الانسانية ، فى اطار فنى تام ..

وللشيخ السنهورى - الذى تولى عقد قران الحبيين ، وشهد
فصولا من قصة حبهما - رأيه الخاص فى هذا الصدد ، فهو ينكر
أن يكون الأستاذ الخولى صاحب هوى ، أو أن للمعاطفة سلطانا ..

وقال : انه لم يحب قط ، ولكنه كان يتخذ من هذه العاطفة سلهاة ومتنفسا ، ولا يفتأ أن يجد نفسه - تحت تأثير الالاحاح وبدافع المروءة - يستسلم ، ويتزوج . . . غير أن هذا قد يكون مجرد انطباعة خاصة ، لأن الواقع الذي رواه الأستاذ الخولى فى أخريات أيامه ، وأيدته بطللة القصة بعد ذلك ، ينافى تماما ما ذهب اليه الصديق السنهورى . . . ولعل السر فى اختلاف الحكم يرجع الى ما ينعكس على صورة الحب من عوامل نفسية مختلفة ، يكون منها الإنكار والتمويه ، كما يكون منها المبالغة والاختلاق . . . واذا كانت هذه العوامل النفسية المختلفة تحيط بالصورة فى حين وقوعها ، فما أحسب البطلين - بعد أن غطى الرماد النار زمتا ، وعصفت الريح بالنار والرماد معا - فى حاجة الى أن يدعيا ما لم يكن ، بل كان الأقرب الى ما جرى عليه العرف أن يصفوا هذا الماضى البعيد بأنه نوع من العبث البرىء تحتمله التقاليد ، ولا يخرج على وقار تحرص عليه الناظرة وينمسك به شاب معهم . . .

اما أن يروى الأستاذ الجامعى المجمعى تفاصيله ، ويشير الى أنه كانت له وثائق مدونة ، وتعترف (السيدة الكبيرة) - كما يتحدث عنها (الأمناء) المقربون - بما جاء فى رواية الأستاذ الخولى - فمما لا يجعل للشك مجالا فى حقيقة هذا الحب وواقعه . . .

واذا كان هذا الحب لم يثمر قصة أو عملا فنيا معينا ، فمما لا ريب فيه أنه أثمر فى حياة الأستاذ الخولى أعمالا كبيرة أخرى . اذ كان من حوافز نبوغه وتفوقه ، كما كان عون له على الكفاح الطويل الشاق . . .

وفى عام ١٩٢٣ سافر الى ايطاليا اماما للمفوضية فى روما ، ومستشارا شرعيا للقنصليات الموجودة فى دائرة السفارة ، وكان

(من أشد المحرضين على تنفيذ هذه الفكرة - فكرة التمثيل الديني
في الخارج - حتى نفذت) (١)

وفي الفترة ما بين تعيين الأستاذ الخولي مدرسا بالقضاء الشرعي
واماماً بمفوضية روما أشرف على اصدار :

مجلة القضاء الشرعي ..

مجلة (تتألف من قسم شرعي .. ينتظم صحيح الأبحاث في
أسرار الشريعة الغراء وحكمها ، وقوى الحجج والبراهين في الدفاع
عنها وحماية حوزتها ، وصادق النظر في تطبيقها ووقوعها موقع
الحاجة والمصلحة من حياة الناس ، وما يجد الممارسون لذلك من
جليل الموضوعات التي يعوزها دقيق البحث والنظر ، وما يرون من
وقائع الحياة العامة ، وما يحوج الى التقصي والاستقصاء ، ويحسن
التنبية عليه والارشاد اليه ..

وقسم آخر أدبي ، يشتمل الطريف الشيق ، من جديد
المباحث ورشيق الموضوعات ، مما لاتندفع حاجة طالب الشريعة
اليه ، وليس للعالم عنه غنى أو اكتفاء (٢) .

وصارت المجلة سجلا للأحكام والوقائع ، والمنشورات الخاصة
بالمحساكم الشرعية ، وحفلت بمقالات تتناول النواحي الشرعية ،
وتشرح القوانين الدينية والمدنية ، مع كلمات أدبية من شمس
ونثر ..

(١) أنور الجندى - النشر العربي المعاصر في مائة عام - ص ٧٢١

(٢) من اقسامية العدد الاول - ذو العقدة سنة ١٣٤٠ هـ .

وبصدد استفتاء عن تنفيذ الشريعة الاسلامية في العدد
الثاني - جمادى الثانية سنة ١٣٤١ هـ - قال الأستاذ الخولى :
(ان الشريعة الاسلامية قانون تركيا والأفغان ومراكش ، ولم تنطبق
سماؤها على أرضها حتى اليوم) وأنحى باللائمة على المقصرين في
هذا الجانب ..

وفي معرض الحديث عن النظام القضائي في الاسلام وعند
الغربيين - صفر سنة ١٣٤٢ هـ - بعد نشر رسالة الشيخ أحمد محمد
المولد قاضي محكمة جرجا الشرعية ، التي قومها الأستاذ الخولى في
امتحان العالمية - بين حاجتنا الى كتاب يتناول نظام القضاء في
الاسلام ، وأشار الى كتاب ترجمه أحمد صفوت بك عن النظام
القضائي في انجلترا ، ثم بين الصعوبات التي تواجه من يتعرض
لهذا البحث في الكتب الماثورة ..

وأخيرا بين مكانة القضاة عندنا وعند الانجليز ، بتصوير تقدير
الدولة والناس لهم ، والرواتب التي يتقاضونها ..

ووعده باستمرار تناول هذا الموضوع لاستكمال كلامه سننحت
فرصة .. ولم تسنح ..

وفي العددين - ربيع الثاني وجمادى الاولى سنة ١٣٤٢ هـ -
عقب على تحريم الخمر في تركيا قائلا ، (ان من الفضول واللغو أن
نتحدث بمضار الخمر ومفاسدها بعد ما حرمها القرآن وكان الحكم
عليها فيه أعدل حكم وأبعده عن مغالاة) .

وعرض لموقف الحكومات الاسلامية من هذا التحريم ، ثم لتحريم
أمريكا اياها ، واشتدادها في تنفيذ القانون .. ثم عرض بالتفصيل
للقانون التركي الذي وضع موضع التنفيذ في الآستانة يوم
٧ أكتوبر من نفس العام الذي نشر فيه المقال ، وبين عدد الحانات

ومستودعات المسكرات ومصانعها المقفلة بموجب هذا القانون بأربعة آلاف ، وأن سبعة آلاف أو ثمانية آلاف من الروم والأجانب سيضطرون الى مغادرة الأستانة بسبب تنفيذ هذا القانون الذى أوصد باب الكسب فى وجوههم ..

وأخيرا تحدثت عن جماعة فى مصر تجاهد فى سبيل منع المسكرات ، ودعا الى تأييدها ، ورجا لها نجاحا ، داعيا كل مسلم غيور أن يؤازرها .. فيصلح أمر الشعب ، وتقل الجرائم ، وينتشر الأمن ..

و (صدر المرسوم الملكى فى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٣ م بتعيين أئمة للسفارات الأربع المصرية المنشأة فى لندن وباريس وروما وواشنطن، وهم حضرات أصحاب الفضيلة الشيخ عبدالوهاب عزام للندن والشيخ محمد البنا لباريس والشيخ أمين الخولى لروما والشيخ محمد حلمى طيارة لواشنطن .. وقد أبحر الأخيران الى منصبيهما الجديدين مساء الجمعة ١٤ ديسمبر ١٩٢٣ م) ..

وطلع عدد رجب سنة ١٣٤٣ هـ من مجلة القضاء الشرعى تحت اشراف الأستاذ محمد ابراهيم الجزيرى يقول فى افتتاحيته :

(نرى حقا أن نعترف بالصنيعة لربها ، وبالفضل لصاحبه ، فنذكر للزميل الأول أثره الخالد فى انهاض هذه المجلة الفتية ناشطة تترسم أحسن المثل فى خدمة قضاء الله وشرعية رسوله ..

لقد كان الأستاذ أمين الخولى محتسبا فى سبيل المجلة بكل شزمه وصبره ، فما تروعه العقبات الجارية ، وانها لكثيرة ، ولا يعيبى بالجهل المبذولة وانها لمضنية) ..

ومن هناك ..

(اتصل الطريق الذي بدأ برحلة رفاة الطهطاوى الى باريس ، فى رحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوى الى سان بطرسبورج .
ورحلة الافغانى ومحمد عبده الى أوروبا ، ورحلة طه حسين الى فرنسا ، ورحلة أمين الخولى الى روما وبرلين) (١) ..



وكان الأستاذ الخولى قبل سفره قد وثق من صلاته بمجاهدى الهلال والمقتطف فنشر (السياحات الاسلاميه ؟ فى الهلال - يناير سنة ١٩٢٢ ، ونشر بحثه الرائع عن (المدينة العربية فى المستقبل) بالمقتطف - فبراير وأبريل سنة ١٩٢٣ - ولىله رسالة التلمية ..
تحدث فيه عن تأثير الاسلام فى صقلية منذ الصدر الأول قبل فتحها ، وعرض للحضارة العربية ، مبينا أن المسلمين ظلوا دعامة الحضارة بها حتى بعد سقوط دولتهم ..

وفى عدد ديسمبر سنة ١٩٢٣ من المقتطف مقال عن (الاسلحة النارية فى الجيوش الاسلاميه) لم يخرج فيه عما سبق فى (الجندية فى الاسلام) ، وختم المقال بقوله :

(هل يحرك ذلك أريحية خلفاء هؤلاء الأمجاد ، فى نهوضوا لبناء مجد عملي واستقلال قوى وحرية مسجحة ؟! اللهم فاستجب) ..

بين روما وبرلين ..

وفى ايطاليا توفر الأستاذ الخولى على تعلم الإيطالية ، حتى أجادها ، وعلى تنمية ثقافته وتعميقها ، مراقبا الحياة الدينية والتعليم الدينى فى أوروبا ، راصدا شئونها ، ليفيد نتائج مقابلة ذلك كله

(٢) رشدى صالح - الأخبار ١١ مارس سنة ١٩٦٦ م .

بما في مصر ، متتبعا ذلك في إيطاليا مقر البابوية ، بمساردها الدينية ، وفي ألمانيا وغيرها بالجامعات المدنية (١) ..

وفي ذلك يقول :

(حين رحلت الى أوروبا ، واستقر بي المقام أول ما استقر في روما ، أو مدينة رومية العظمى ، كما كان يسميها المسلمون قديما ، وهي مقر البابا وعاصمة الكاثوليكية ، فقصدت الى دراسة الخطر والاساليب التي تتبع في الدراسة اللاهوتية ، كما نظرت فيما حولى من الدول الدينية القائمة في عاصمة الدولة اندنية بايطاليا .. وطال تتبعي لهذه الدراسات اللاهوتية في أقطار أوربية عشت فيها بعد ذلك كالألمانيا ، أو أقطار زرتها مجرد زيارة) (٢) ..

(وتابع صاحبنا ما جرى ويجرى من ذلك ، وجعل يتخير منه ما يمكن أن تنتفع فيه الحياة هنا بالاسلام ، سواء ما كان من ذلك في روما ، أو في دول غيرهما ، تقيم الكليات اللاهوتية للدراسة الدين ، وتابع ارسال تقاريره بذلك الى مصر في تصميم واصرار ، فكانت تلك التقارير مما هش له التطور الاجتماعى الشرقى حيناً ، وإن لم يكن اثره العملى واضحاً ، لكنه شىء فى الجو ، يسمع وينصت له بعض الأوقات ..

وذاكرة الزمن من وراء هذا كله لا تنسى شيئاً ، ولا تفصل أبداً) (٣) ..

(١) جريدة المصرى ١٩٥٢/٤/٢٨ هل أدى الأهر رسالته الاجتماعية ؟

(٢) الأدب - يناير سنة ١٩٦٢ م

(٣) الأدب - ديسمبر سنة ١٩٦٤ م

واطلع على كثير من كتابات المستشرقين أمثال لويجي رينالدى والسنينور جلستينو سكيابارتى اللذين اتخذهما مرجعا لبحثه عن (المدنية العربية فى صقلية) ..

وفى سنة ١٩٢٦ انتقل الى برلين لىبأشر نفس المهام التى وكلت اليه فى روما ، ويتعلم الألمانية ، ويكتب بها مقالين عن الخلافة فى جريدة (العلم المصرى) التى كان يصدرها طلاب الحزب الوطنى بالألمانية فى النمسا بمدينة (بتسبرج) .. وليس لهما أصل عربى ..

ونشر فى مجلة (دويتش مجازين) التى تصدر بالألمانية والانجليزية والاسبانية بحثا تعميسا عن (شخصية مصر فى التاريخ) هو (صرخة عميقة فى وجه القائلين بأن مصر كانت مستعبدة طوال تاريخها منذ سقطت دول الفراعنة) (١) ..

وظهر فى عدد فبراير سنة ١٩٢٦م من مجلة المقتطف مقال عن (أسلوب الفكر العلمى فى مصر خلال نصف قرن) للاستاذ اسماعيل مظهر ، يعتمد على قاعدة للاستاذ مرتز تقول : ان الحياة الكامنة فى الأمم تتكون من مجموع الآمال الفامضة المبهمة التى تجيش فى صدور الآلاف من بنى آدم ، وهم عاجزون على (كذا) اقناع شهبوتها ، أو التعبير عن حقيقتها ، والسقطات والهزائم التى تمر فى عالم انحية من غير أن يعرفها أحد أو يهتم

(١) أعاد نشر هذا البحث باللغة العربية فى عدد شعبان ورمضان سنة ١٣٤٤هـ من مجلة القضاء الشرعى .. وقد علقت الدكتورة عائشة عبد الرحمن على ما جاء فى هذا البحث بقولها : ظل طول حياته يجاهد لإبراء تلاميذه ومواطنيه من عقدة النقص تجاه الغربيين ، التى رسمها الاستعمار الطويل ، وكان فى رحلاته الى أوربا يعامل الأوربيين وهو يفرض عليهم كبرياء مصرى عريق ، عمره فى التاريخ الحضارى أكثر من عشرة آلاف سنة .

بها انسان ، والرغبات التى تعيش فى صدور الناس ممتدة فى سلسلة من التواصل والتتابع غير متناهية ، او تشغل فى صور ما من صور حياتهم ، والمحاولات التى يتشبث بها الناس ابتغاء الوصول الى حل المشكلات العلمية التى يملها الطمع عليهم ، او تبعث بها الحاجة فى النفوس ، وتلك الساعات الطويلة التى ينفقها محبو العلم سدى !! طمعا فى الوقوف على أسرار الطبيعة - جماع هذه المجهودات المخبوءة وراء أستار الحياة ، هى التى تكون ذلك الهيكل الذى نسميه (فكر الأمة) ، ولا يطفو منه ظاهرا على سطح الحياة الا جزء ضئيل بارز فى صور من الأدب او العلم او الشعر او المنتجات المادية) . . .

وقد (خصت بعض عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة وحوادث عظيمة ، امتصت كل القوى العاملة النشيطة ، واندمجت فيها كل العناصر العقلية والتخيلية ، حتى انك تجد أن تلك الحركات قد مضت مستبدة بأمرها ، اما لتخضع كل القوى المنيعه فى عصر ما للعمل فى سبيل ابراز غرض معين ، او تثبيت فكره يذاتها ، واما ان تلفيها وقد جرفت أمامها كل شيء الى جو من التنازع والجلاد ، يوجه بكل ما فيه من مختلف الصبور والقوى الى تزكية الحادث الرئيسى الذى تلتف من حوله قوة الفكر والعناصر) . .

ومن هذا المنطلق يسوق الاستاذ مظهر حملة على مصر ، إذ (لم يترك فتح نابليون من أثر بين فى تغير اساليب الفكر) . . . ويتخذ من الأفغانى سبيلا الى النيل من الثقافة العربية ، ذاكرا انه تعلم (الأساليب العلمية العتيقة التى عكف عليها العرب منذ القرون الوسطى . . وهو بنزعتة السياسية اشبه الأشياء فى عصره بالهياكل الحفرية التى تعيش بيننا بجثمانها ، وان رجعت فى تاريخها الى أبعد العصور ابغالا فى أحشاء الزمان) . . ولما

كانت الثورة العربية مرتبطة بالحركة الفكرية التي كان الافغانى من مشاعلها فان (نظرة واحدة فى الثورة العربية كافية لأن تثبت لنا أن هذه الثورة كثورة سنة ١٩١٩م لم تمس من الحياة الكامنة فى الأمة شيئاً ، وأنها لم تتناول الا ظاهر الحياة بآثار سريعة الزوال ، كتلك الآثار التى تخطها يد الصبية فوق الرمال على شاطئ البحر ، يكفى للذهاب بآثارها مد موجة واحدة من موجاته) . . ولما كانت الثورتان تعبيراً عن فكر الأمة ، وفكر الأمة فى مصر نتاج الفكر العربى ، فلا بد من اهدار دم هذا الفكر . . وهاجم المؤلفات الفلسفية والعلمية والطبية عند العرب لأنها مترجمات لا مبتكرات . .

وقد تصدى الاستاذ الخولى - من برلين - للرد عليه ناقداً عاتباً فى عدد أبريل سنة ١٩٢٦م : ومجمل ما قاله فى دحض اتهام العقلية العربية الممثلة فى جمال الدين أن (هذه العقلية قد ورثها جمال الدين لتلميذه الاستاذ الامام المرحوم الذى كتب منذ حوالى ربع قرن عن حديث السنن الكونية ما كتب ، حين تفضل بمناقشة صاحب كتاب فلسفة ابن رشد فى دعوى كهذه . . ولا يزال ما كتبه فى حكمته ومتانته خير صورة لاسلوب الفكر العلمى) ثم أحاله على ما قال أمثال (سيدىو) و (لوبون) واساتذة الجامعات الحديثة عن العقلية العربية وانهم واضعو قاعده (جرب واحكم) . . وبين له أن دارسى آثار العقل العربى يشكون من الشكوى من امعان القوم فى الأفكار وتقليب الفروض ، والمطالبة بالبرهان ، حتى ينتهى الامر الى بديهته ، ويرتكز على المشاهدة او المسلمات العقلية ، ولا تزال قواعد القوم فى البحث (أسلم منطقية وأمتن مما نرى الآن ونسمع) . . وعرض للدعوى اللاهوت فى الاسلام بأن (الاسلام اصلاح علمى حيوى ، لا يقدر

شخصاً ، ولا يتقيد بشيء ويحضر على نظره ما في السموات والأرض ، ويجعل استعمال العقل شكراً لمنحه ، وكشف له عن المؤلفات العلمية الصرفة والفنية العلمية التي اتخذت أساساً لنهضة أوربا ، ولا يزال الكثير منها يدرس في جامعاتها ..

وختم مقاله بقوله : (آمل أن يتقبل الكاتب الفاضل ما قدمت بروح الحب للحقيقة وطلبها حيث كانت) (٢٠) .

ولكن الاستاذ مظهر عاد أشد عنفاً ليقول (مهما كان يقينى فيما كتبت ثابتاً ، ومهما كان اعتقادى فى صحة ما أرى فى أسلوب الفكر العلمى عند العرب راسخاً ، فانى لا أتوقع مطلقاً أن أقنع به رجالاً عكفوا على أساليب المدرسة القديمة) ..

ولم يعد الاستاذ الخولى الكرة ، وترك الأمر للأمير مصطفى الشهابى ..

عودة الى مدرسة القضاء الشرعى ..

وجاء الوفديون (١) فأنفوا وظيفة الإمامة سنة ١٩٢٧ م ، وعاد الأستاذ الخولى الى مدرسة القضاء الشرعى التى افتتحت مرة ثانية لتزود بطلان تجهيزية دار العلوم (٢) .. وكان فى ذلك

(١) الوفد حزب شعبى تشكل بعد ثورة سنة ١٩١٩ م

(٢) ظلت المدرسة منذ انشائها تتقاذفها التيارات الفكرية والسياسية ، وكانت على صراع مع الأزهر حتى سنة ١٩٢٣ ، فألغيت ، وحل محلها قسم القضاء الشرعى والتخصص ، لياخذ من علماء الأزهر طلاباً يدرسون ثلاث سنوات ، وفى سنة ١٩٢٧ أعيدت على أساس أن يدخلها طلاب تجهيزية دار العلوم ، وكانت التجهيزية تحت إشراف مدرسة القضاء الشرعى .

الحين قد أضاف الى إجادته الايطالية والألمانية ، وتعرفه على حركة الاستشراق ، واتصاله بكثير من المستشرقين - تمرسه بالأعمال الدبلوماسية ، بعد أن وضع لأئحة لأعمال القناصل ، وأشرف على التحرير العربى ، اذ كان معظم الموظفين من الأتراك وحين حدث خلاف بين سكرتير القنصلية فى برلين وبين الملحق السياسى أحيل الملحق الى الاستبداء ، وقام الامام الخولى بعمل الملحق والمحرر . . وظل فى عمله هذا ستة أشهر ، جاءه فى خلالها الاستاذ عبد الخالق حسونة ، فدربه على الأعمال القنصلية . .

وفى مدرسة القضاء الشرعى أخذ يدرس لطلاب القسم العالى مذكرة فى آداب البحث والمناظرة (ضوابط وقواعد . . تبين صحيح البحث من سقيمه ، وتعين المسموع منه والمردود ، حتى لا يضل المناظر ، ولا يشرذم) وضمن هذه القواعد آداب المتناظرين ، والتصديق الصريح ، والتصديق الضمنى ، والمنع ، والتعجيل ، والنقض ، والمعارضة ، والتقسيم ، والمناظرة فيه ، وأقسامها اخرى جزئية كثيرة ، سبق اليها فى كتب عديدة ، لعل أقدمها ما صنفه ركن الدين العميدى الحنفى صاحب كتاب الارشاد والمتوفى سنة ٦١٥ هـ . . كما يقول الأستاذ محيي الدين عبد الحميد فى (رسالة الآداب) التى طبعها سنة ١٩٢٩ فى هذا الميدان . .

وأهمية تدريس هذه المدكرة ترجع الى التكوين الجسدى للأستاذ الخولى ، وتدريب قدرته على الحجاج الذى اشتهر بها ، وكانت من أهم ما تميز به . .

(كان الشيخ أمين يحب . . أن يستغرق فى الجدل . يلتذ به ، لذة الفلاسفة وأهل المنطق . . وكان يسلط هذا الجدل العقلى على القضايا الموضوعة أمامه ، فلا يتركها حتى ينفذ فيها

الى الأعماق ، و قليلا ما كان يرفع راية الاستسلام) (١) . .

. . ثم ان التزامه بأداب البحث والمناظرة كان سبيله الى الإخذ بالمنهج ، وتمسكه بقواعد وأصول أوجب على الباحث ان يلتزم بها . .

وقد درس لطلابه - فى هذا الصمام - مذكرة فى الأدب العربى وتاريخه على أساس منهج متحرر لا يلتزم فيه بالتقسيمات السياسية التى جرى عليها مؤرخو الأدب . .

وقد قدم بين يدى القول فيها (تعريفا للعرب ، ومن هم من الناس ، فالعربية ومكانتها من لغات الدنيا ، فالادب ما هو قديما وحديثا ، وكيف ندرسه ، فتاريخه ما يكون وكيف يتناول ، حتى نضع بين يدى الدارس تخطيطا لطريق يعرف به مكانه من غايته ، وما قطع فى سبيلها من مراحل) . .

ولم يكن لى سبيل إلا الى الملزمة الاولى من هذه المذكرة التى قال عنها :

(لم أسبق الى هذا المنهج الصحيح الا بما فعله الأستاذ حسن توفيق الصدل فى « أدبيات اللغة العربية » اذ كان له التخطيط الاول لتقسيم المعصور الأدبية ، بعد عودته من اوربا) . . لكن الدكتور طه حسين قد قال بذلك فى نقد جورجى زيدان سنة ١٩١١ ، وفى الأدب الجاهلى سنة ١٩٢٦ - كما سيأتى بيانه - وان كان الدكتور طه حسين يعترف بفضائل الأستاذ الصدل حين يقول :

(١) رشدى مسالح - (أمين الخولى . . الفتى الدائم) جريدة الاخبار

« كان أول من حاول أن يبدأ هذا التطور أحد المصريين الذين تخرجوا في دار العلوم أو في غيرها من المعاهد ، ذهب إلى أوروبا ، ودرس في إحدى جامعاتها ، ورأى كيف يدرس الأدب العربي وتاريخه على نحو ما رأهما يدرسان في الجامعة التي كان يختلف إليها .. ولكنه لم يزد فيما يظهر على أن نقل عن من كان دراسة تاريخ الأدب إلى اللغة العربية ، وحاول أن ينظم هذه الدراسة شيئاً ما ، ولكنه فيما أظن لم يتعمق نهج الأوروبيين ، وإنما عرف ظاهراً منه .. »

وإذا صدقتني الذاكرة فقد سمي منهجه تاريخ آداب اللغة العربية » (١) ..

.. وفي هذا العام أيضاً درس الاستاذ الخولي لطلبة السنة الأولى من القسم العالي (تاريخ العقيدة الإسلامية .. بحث تاريخي اجتماعي ديني) (٢) قال في مقدمته :

(هذا بحث مستحدث ، يراد به تاريخ العقيدة الإسلامية ، ومكانها من الأديان السماوية ، وماذا كان حال الناس حين دعوا إليها ، وكيف تدرج بها التنزيل ، وإلى أين امتد بها التأويل ، وما مدى هذا الخلاف ، وبم تأثر ، وفيما أثر ، وما كان من ذلك سياسياً ، وما كان اعتقادياً ، مع تاريخ ما كان للعقائد من علم تدورس ، وكتب، صنفت ، إلى الإنعام بحديث التصوف والصوفية ، وما لهم من طرائف ومذاهب ، وأصل ذلك ومآتاه ، ومنزلته من العقيدة الإسلامية ، ومبلغ ما تأثرت به الحياة الإسلامية من ذلك قديماً وحديثاً ، إلى ذلك العهد الحاضر ، والزمن الشاهد ،

(١) في درس الأدب وتاريخه لطلبة حسين - الأدب - إبريل سنة ١٩٥٩ م .

(٢) مخطوط في ١٧ صفحة حجم الفولسكاب بمكتبة الاستاذ الخولي .

تاريخنا تتناول بعده دراسة العقائد على بصيرة وجللاء ، وتعرف به مكانك من سلفك ، ومكان قومك من أمم هذه الدنيا في حياتها العقلية والدينية ..

وهذا بحث لم يمهد له طريق ، ولم يعبد اليه سبيل ، بل هو بدد في كتب التاريخ والعقائد ، وطوايا الأبحاث الفلسفية ، وأنا - بعون الله - باذل فيه جهد المستطاع ، ومؤثره بمطالعات ومراجعات ، آمل أن تخطط أساسه ، وترسم طريقه ، حتى يكمله تردد الدرس ، وتقليب البحث ان شاء الله ||

و.. في نفس العام - كذلك - انتدب للتدريس بالأزهر ، فدرس لطلاب كلية أصول الدين مذكرة فلسفية في الأخلاق تحت عنوان كتاب الخير (١) .. قال انه (دراسة موسعة في الفلسفة الأدبية مطبقة على الحياة الشرقية والتفكير الاسلامي) .. وقال في اهدائه : (سأل أحد التلاميذ طاليس الفيلسوف : لم أبلغ الوفاء في شكرك ؟ فقال له طاليس : لا شيء أكثر من أن تقول : هذا ما علمني طاليس .. فانا أقول وفاء - كلما ذكرت هذه الدراسة في الفلسفة الأدبية : هذا ما علمني استاذي الكبير المرحوم محمد عاطف بركات باشا ، تغمده الله برضوانه) ..

كان عاطف مدرس الفلسفة الأدبية ، أي الأخلاق ، بترجم فيها عن الانجليزية ، مثل رسالة المنفعة لاستيوارت ميل ، وكتاب الأخلاق لماكنزي ، ولكن ليس هذا هو الهام ، بل العمل المؤثر هو : مزج التفكيرين ، الشرقي والغربي ، في مسألة الخير ، وهو تطبيق المذاهب الفلسفية الخلقية القديمة والمحدثة على التفكير الاسلامي ، دينيا ومدنيا ، وتفسيره بها ... وكل أولئك

(١) مخطوطة .. عندي منها نسخة بخطي في ٢٤٧ صفحة من القطع المتوسط .

بطريقة لما تستقر في الجامعة ، رغم أنها عاشت أكثر من ربع قرن . . . وتلك الطريقة هي ألا يملأ آمالي ، ولا يعطى مذكرات . ولكنه يشرح ليفهم الطلبة ، ثم يكتبوا ما فهموا بأقلامهم وأساليبهم ولهم الله في الامتحان وأسئلته التطبيقية على صور من نشاط الحياة الجارية المتجددة (١) . .

وكانت هذه الدروس منطلق كل من الأستاذ الخولي والأستاذ أحمد أمين الذي أشار في كتابه (حياتي) إلى أنه اعتمد مذكرات عاطف بك بركات في الأخلاق ، ثم توسع في موضوعاتها حتى تكاملت ، وزاد في طبعاتها الأولى زيادات عدة - تكاد تكون في كل فصول الكتاب - رأى الحاجة ماسة إليها . .

ولما كان الأستاذ أحمد أمين سابقا ، إذ كانت الطبعة الأولى من (الأخلاق) سنة ١٩٢٠ ، والثالثة سنة ١٩٢٥ م ، فقد وضع الأستاذ الخولي في اعتباره أن يكون جديدا ، فاختر (الخير) بدلا من (الأخلاق) ، وأضاف إلى مذكراته إضافات ذات فائدة ، كإيضاح لغوى للأخلاق في العربية واليونانية ، وتعميق للفلسفة قديما وحديثا ، وعلاقة الفلسفة بالدين ، وعلاقة البحث الخلقى بالعلوم الطبيعية ، بالمنطق وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد السياسي ، والسياسة . .

ومن خلال التمهيد للبحث نجد أنهما متفقان تماما حتى في الأمثلة التوضيحية والعبارات المقتبسة من أرسطو عن تأثير دراسة المبادئ الأخلاقية في الإدارة . . .

وعرض الكاتبان مقدمة نفيسة (للاستعانة بها على فهم الأعمال والبحوث عنها في الأخلاق) . . وقد أشار الأستاذ الخولي

(١) اتجاه التطور الأدبي للأستاذ الخولي - الأدب - مايو سنة ١٩٥٩ م .

الى ان الكاتبين في علم النفس يتعرضون (لتلك الأبحاث ، إلا أنهم لا يوفونها ، ولا يعنون ببيان ارتباطها بالأخلاق) ولذا أثرها (بدراسة منفردة) بذل فيها جهد الباحث الواعى الحريص على تقديم الصورة الكاملة ، وان لم يبعد كثيرا عما فعله الأستاذ أحمد أمين . .

وقد فرق بين الوجدان والضمير على غير ما فعل زميليه (فالوجدان قوة ادرك اللذة أو الألم ، والضمير قوة حكم خلقى ، وحث ، تعقبهما اللذة أو الألم . . واذا كانت الكامتان في بضع لغات أوروبية تشتقان من مادة المعرفة Conscience كما يرى الأستاذ أحمد أمين - فان الوجدان يخص بالمعرفة النفسية ، ويخص الضمير بالمعرفة الخلقية الأدبية . . و . . نحن نحفظ بهذه التفرقة ، ولا نقر من سوى بينهما من كتابنا) .

وقد اعتمد الأستاذ الخولى كتاب (الأخلاق) في مراجعته بدليل قوله في الحديث عن تدرج الحكم الخلقى في التاريخ : (رابع المنقول عن ما كنزى في كتاب الأخلاق للأستاذ أحمد أمين بدليل ص ١٤٨ الطبعة الثالثة ، ولم أر من كتابنا القليلين في الأخلاق من حاول ذلك في الاسلام والشرق ، وهو ما سنعنى به ان شاء الله في بحثنا) . . .

وبينما نجد الأستاذ أحمد أمين يوجز القول في تاريخ البحث الخلقى ، ويتناول الحقوق والواجبات في الثلث الاخير من الكتاب، نجد الأستاذ الخولى يهتم بالمقاييس الخلقية عملية ونظرية ، لتقدير قيم الأعمال ، حتى يمكن الحكم عليها) . ومن ثم يعرض للعرف والتقاليد ، وللقانون ، على أسس وضعية أو الهية ، ويبين ان الأخلاق منطق الارادة ، و (ما يضبط تلك الارادة اما القوة الشهوية من ميل وعاطفة واما الادراكية من عقل وفكر واما منهما معا وعلى هذا توزعت مذاهب الباحثين) بين الناية والواجب

والكمال ومن هذه المذاهب الثلاثة يكون مدخله الى الرواقيين الذين يمثلون مذهب الراجب، والسوفسطائيين والقورينائيين والأبيقوريين اصحاب مذهب الفاية ، فالسقراطيين اصحاب مذهب الكمال والتوسط ..

وقد توسع الأستاذ الخولى فى شرح هذه المذاهب الثلاثة ، مستطردا الى مذهب القانون الطبيعى ومذهب القانون العقلى .. وخص فلسفة أفلاطون وأرسطو بمزيد من الايضاح والربط بالفلسفة الاسلامية ، واورد نقده لهما ، ثم اضاف ما جاء فى كتاب (الأخلاق) للأستاذ أحمد أمين نقدا لنظرية أرسطو ..

ثم انتقل الى مميزات وخصائص أسلوب الفلسفة الحديثة وأفرد مذهب النشوء والارتقاء ببحث مستفيض . فادتم بالأدوار الكبرى للتطور ، وبتاريخ الفكرة مما قبل اليونان ، ثم نقدها بأن الأدلة الحفرية ومشاهدات الأحياء لم تنهض ببيان العلاقات الموصلة بين الأنواع المختلفة والتي لا تزال تعتمد على العرض فقط .. وبين أن المذهب - على صورته هذه - لا يتنافى مع الدين الاسلامى ، وإن أقام قيامه رجال الكنيسة عليه لأنه يخالف تفصيل الخلق كما جاء فى التوراة ..

وأخيرا تناول تاريخ علم الأخلاق (من يوم عرف الانسان البحث الى الآن) ماضيا (فى بيان ذلك على ترتيب أدوار التاريخ العام الثلاثة ، قديم الى القرن الخامس الميلادى ، متوسط الى القرن الخامس عشر ، حديث الى اليوم) ..

ولكنه لم يمتز فى بحثه الى نهايته .. فالمذكرة تقف عند الدور القديم ، بل الى ما قبل الأبحاث الاغريقية التى - كما يقول المنصفون من غير الشرقيين - ليست الا الانعكاس الشاحب للأضواء التى ظهرت على شواطئ النيل ودجلة والفرات والسند والكنج وفى سهول ايران والصين ، من الحضارات الشرقية القديمة ..

واذا عرفنا أن المذكرة بقلم أحد طلابه نقلا عن محاضرات الأستاذ أدركنا أن الزمن المحدد للدراسة هو الذى حدد مسار البحث ، ووقف به قبل تمامه .. ولعل هذا التعليل ينصرف الى كثيرا من محاضراته وأبحاثه التى لم تتم ...

في الجامعة ..

وفي ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٨ عين مدرسا بالجامعة المصرية .. ليكون أحد أركانها ، بل أحد بناتها .. أفرغ جهده في تدعيمها ، ووضع القواعد من حريتها واستقلالها ومناهجها ..

كان يتقدم الجيل بعد الجيل ، يرتاد ، ويرسم ، ويعمر أرضا جديدة ..

ولم يكن الجديد منطلقا من الفراغ .. خاصة وأن الميدان الذى كثر حياته من أجله هو ميدان العروبة والاسلام ، وللعروبة تاريخ وتراث ، وللإسلام كتاب العربية والانسانية الأكبر ..

ومن ثم كان لابد من قتل القديم بحثا وفهما وتهديبا ، حتى لا يكون التجديد تبديدا ..

واذا كان الماضى ركيزة الحاضر ، ففي وسع الحاضر أن يعمل فى الماضى ، وتتفاعل الحضارتان مؤذنتين بالفد الذى نرجوه ..

ولما نظر الأستاذ الخولى فى (التراث) وتعرف الى ما قدم الأولون للأجيال الخالفة ، استطاع بثاقب فكره أن يتبين حاجة هذا التراث الى ما وصل اليه الفكر الانسانى من علم ومعرفة ، حتى يؤتى ثماره ، ويظل - على الدهر - فى قدرة على الحياة

والنماء .. كما استطاع أن يحدد دوره ومن أين يبدأ الطريق .
وفي ذلك يقول :

(القدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الاسلامية ، قد
قسموها ثلاثة اقسام :

- علم نصيح واحترق ، وهو النحو والآصول ..
- وعلم نصيح وما احترق ، وهو علم الفقه والحديث ..
- وعلم لا نصيح ولا احترق ، وهو علم البيان والتفسير ..

ويشاء الله أن يكون علم البيان وعلم التفسير من أول ما
أقوم على خدمته في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .. فيكون
قول القدماء أنفسهم بعدم نصيحها أذنا صريحا منهم بالمحاولة
المجددة في حياة هاتين المادتين ، وقد تقدمت الى هذه المحاولة
تحت الشعار الذي اتخذته لنفسي ، وهو أول التجديد قتل
القديم فيها) (١) ..

وليس معنى ذلك أن جهد الأستاذ الخولي وقف عند حد
أن يضيف مصنفا الى مصنفات البلاغة ، أو يؤلف كتابا في
التفسير .. لكنه الجديد الذي صنع مدرسة ، لها تقاليدها
الفكرية وأسسها المرسومة ، وأعلامها الثائرة ، ولها القدرة على
أن تقلب التربة ، وتبذر البذور ، وتسقي الزرع ، وتفيض
بالثمار ..

(١) ص ٣٠٢ مناهج تجديد للأستاذ الخولي .

التجديد فى الدين

... فى مقال للأستاذ الخولى بمجلة الرسالة أول فبراير سنة ١٩٣٣ - ذكر أن (التجديد فى الدين) :

(حقيقة صحيحة صريحة ، لافكاهة فيه ولا مروق - أن شاء الله - فى الدين فكرة واضحة عن التجديد ، تبين ناموسا كونيا ، وتنبيه الى سنة اجتماعية مطردة ، لا تتبدل ، اذ ورد فى الحديث : « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها » .. أو ما هذا معناه) .

ولما كان الخوض فى هذا الميدان مظنة اتهام من المحافظين - خاصة وأن تجربة الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى) ليست بعيدة - فقد لجأ الأستاذ الخولى الى فهم القدماء للتجديد الذى هو (نفع الأمة ، ودفع المكروه عن الناس ، ونصرة الحق وأهله ، وإحياء ما اندرس من أحكام الشريعة ، وما وهى من معالم السنة ، وما خفى من العلوم الدينية) ..

وذكر انهم يتحدثون عن تغيير الحياة ، واستحداث أشياء
تحتاج الى تناول جديد ..

وحسبك من قولهم في معنى التجديد ما ورد في (بغية
المقتدين ، ومنحة المجددين ، على تحفة المهتدين ٠٠ الخ) للشيخ
محمد المرافى الجرجاوى - من عبارة النظم والشرح ممتزجين :

(انما كان مجدداً لأنه اى المبعوث فينا مجتهد ، وشأن
المجتهد التجديد) ، (ولئن اکتفوا في الأزمنة الأخيرة بالاجتهاد
المفيد ، فبحسبهم أن ناطوا التجديد بالاجتهاد ، وفسروه به .
وأبعدوه عن التقليد الذى هو آفة العقول وعلة الجمود) ٠٠

ومن ثم وجد سبيله الى النيل من الدين (يقاتلون المبعوثين
لهذا التجديد ، ويجمدون على ما وجدوا عليه آباءهم) ، لأنه
(اذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتدينين وفضلا
من الله ونعمة) ، فانهم (لا يأثمون بجمودهم ائماً واحداً بل آثاماً
كثيرة ائماً لانهم لا يتجددون وائماً لانهم لا يجددون وائماً لانهم
يعوقون المتجددين المجددين ، فى تعنت أصم ، لا يميز الخبيث من
الطيب مهما تبينا ، ولا يعرف داعى الله من داعى الشيطان) ٠٠

وبين دور مصر (المتجددة بجهد شبابها) فى ذلك ، بأنها
(قد اضطلعت من تجديد الدين بالحظ الأوفر ، وساهمت فيه
بالنصيب الأكبر ، على سعة الامبراطورية الاسلامية ، وتراعى
أرجائها وانتظامها الواسع لأفبح أقطار الدنيا القديمة) ..

وعرض لثبت المجددين من القرن الأول الى الرابع عشر
الهجرى ، مبينا (أن الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية
رجال أنجبتهم وآوتهم ، وعلمتهم مصر ذات الفضل العتيد على
المدنية منذ عرفها بنو آدم) ..

وبهذا تبين لنا من أول لقاء مباشر بالتجديد ، أن الأستاذ
الخولى يرمى الى مشروعية التجديد وضرورته ، ويؤكد دور مصر
فى هذا المجال ، حتى يقطع على المتفهمين الطريق وحتى يحفز
الى العمل فى هذا الميدان من يجد فى نفسه القدرة على أن يركب
الصعب ..

★★★

لكنه ينظر من حوله فلا يرى (فى الجامعات) - الأزهرية
والمصرية - إلا (محافظين مسرفين ، ومجددين مسرفين) وقد
يرى هؤلاء حيث لا يتوقع أن يراهم ، ويجد أولئك حيث لا يدور
بخلده أن تقع عينه عليهم ، كما يرى فى الناحيتين من لم يتجددوا
ولم يحافظوا ..

لذلك .. لم يجد من هؤلاء وأولئك من يطمئن الى
أساوبه :

(ولكل أسلوب فكرى مضطرب فاسد ، ينتهى به الى
نتائج تزييه مسافة الخلف بينه وبين الآخرين) ..

واكتفى بأن شرح لنا خصائص أسلوبهم ، وكأنما يقول لنا :
إن الطريق خالية ، وما أحوجنا الى من يرتادها ، فهل من رائد
جديد ، يبين لمن أسلوبهم الفكرى :

(يجول العقل فى مسارح الكون على أن يظل حبله فى يدهم ،
أو يد الدين ، كما يفهمونه ، لا كما هو فى طبيعته وحقيقته) ..

... ويكفكف من غلو من (يرسلون العقل ، أو قل يرسلون
أنفسهم ارسالا ..

فكما يسمون النتيجة التجريبية علما ، يسمون النتيجة
النظرية علما ، ويسمون الفرض الاضطرابى علما ، ويسمون

• الحل المؤقت الذى يبعثه العجز عن الحقيقة الصحيحة علما .
فيزعمون أن ذلك كله من مملكة العقل التى هو التى هو فيها حر
مسيطر) •

ويحد من عنف من (يهجون على مخالفهم فى الفكرة ، قبل
تأييد فكرتهم ، ولو كان هذا المخالف يتناول الموضوع من غير
الناحية التى يتناولونه هم منها ، وبطريق غير طريقهم) معرفا
الجميع بأن (الوشائج متصلة بين الدين والفن . وبين الدين
والعلم ، فى أشياء كثيرة ، فالأنبياء والرسل مثلا من حق التاريخ ،
والقرآن من متناول الأدب والتاريخ ، فلا جدوى على الحقيقة
مطلقا فى أن ينتهى باحث فى مثل هذه الأشياء الى رأى استقرائى
أو حكم تاريخى فيكون همه تأكيد أن غيره من كلام الدينيين
خداع أو اتجار أو نحو ذلك ، مما يعزز حكما ، ولا يدعم رأيا ،
بل لاينفى عنه مظاهر ضعفه ، على حين يشير المتقدين فى غير طائل
 ويفقد الحقيقة فرص الظهور والاتضح) ...

مقال يوضح لنا ما هو مقدم عليه من بيان ما بين الدين والعلم ،
وما بين الدين والفن ، ومن تناول القرآن تناولا أدبيا وتاريخيا .
ومن ثم يمسك بزمام المبادرة ، لكن كمن يستخدم السيف مجسما فى
طريق يكمن خلفه الأعداء .. فهو يهاجم فى صورة انكار ، وينكر
فى حين يحمل هؤلاء وأولئك مسئولية (تمزيق وحدة الشبان ،
وافساد الجيل ، وقطع أو اصر التآلف النفسى والتمازج الروحى
قطعا يعوق التعاون الاجتماعى الذى تتطلبه الوطن ملحا من هذا
الجيل) (١) ..

وهو يحس دون شك أنه مقدم على مخاطرة ... يعرف أولها
ولا يعرف آخرها . ومن ثم يضع بين يديه علامات على الطريق •

(١) انظر مقال (الأساليب) - مجلة الرسالة ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ م

(ان مالا يعقل قد يمتقد ، وان العقل ومنطقه شيء ،
والاعتقاد وسلطانها شيء آخر . . .) (١) . .

ثم يقول (لا يقال لناقل الخبر انك خاطيء ، بل يقال انك
كاذب أو غافل أو غير متحرر ، أو ما الى ذلك) (٢) . .

فاذا ما نشر الأديب عبد القادر على البجاعوني مقالا عن
الأوزاعي (٣) يقول فيه بعدم تأثير الأوزاعي بالفقه الروماني ،
وجد الفرصة ليؤكد ما بين الدين والعلم ، فقال :

(اني أرى هذا الاستدلال على عدم تأثير الأوزاعي غير مقبول
من الوجهة الاجتماعية والنفسية) . . وبين خطأ استنتاجه ،
وما ذهب اليه من الرأي (٤) .

ولكن الأديب صالح بن علي الحامد العلوي اعترض على ما
يقول به الأستاذ الخولي من أن الأوزاعي تأثر بالفقه الروماني ،
ولم يأخذ منه ، فقال :

(مهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر ، فكلا المعنيين
يجريان الى مدى واحد وهو أن يكون في أصل الفقه الاسلامي
ومزاجه شيء من الفقه الروماني) (٥) . .

فبين الأستاذ الخولي ان :

(التأثر قد يكون سلبيا صرفا ، فنقول ان الوثنية العربية

(١) مشهد ومكة الرسالة ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

(٢) رد على الدكتور عبد الوهاب عزام - الرسالة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

(٣) الرسالة ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ .

(٤) الرسالة - أول ابريل سنة ١٩٣٥ م .

(٥) الرسالة - ١٣ ابريل سنة ١٩٣٥ .

قد أثرت في تحريم الاسلام للتصوير والنحت ولن ينتهي هذا الى أن في مزاج الاسلام وأصله شيئا من الوثنية الجاهلية ، والنظر يقضى بأن التأثير السلبي قد يكون أقوى أنواع التأثير وأشدّها ، فلا محل للتسوية بين التأثير والأخذ (١٠) .

ثم قال :

(ان الرومانية حكمت الشام قطعا ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعا ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها للشام قبل الاسلام قطعا ، وكانت لهما شرائع مدنية وعسكرية ومالية قطعا وكان الاسلام هو الذي خلف على ذلك كله بلا شك ، وكان لهذا على طول الزمن أثره الذي تختلف به الشام عن الحجاز مثلا ولا بد ، والأوزاعي ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية ، فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرهما المحتوم في تكوين الأوزاعي ، ولهذا التكوين أثره في فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما) (١) .

ولم يقتنع السيد العلوي بهذا المنطق الواضح ، أو لعله اقتنع ، لكنه وجد أنه :

(لم يأت الأوزاعي الا والشام في دينه وروحه وثقافته اسلامي صرف ، ولم يبق به من ثقافة الرومان عين ولا أثر ، فالأوزاعي وليد بيئة اسلامية ، فتسرب الثقافة الرومانية اليه بعد أن اندثرت وسحب الدهر عليها ذيل النسيان ، وحل محلها ما هو خير ثقافة وأعدل حكما - من البعد بحيث لا يستسيغه عقل المتثبت الحازم) (٢) .

(١) الرسالة - ٣ يونيو سنة ١٩٣٥ .

(٢) الرسالة - ٢٢ يولية سنة ١٩٣٥ .

فيختتم الأستاذ الخولي المناقشة بقوله :

(أقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها ، فتقول لى : قد مضى على الرومان قرن أو أكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ، فرحم الله أسلافنا ، وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال ، وتقلب أزمان ، ورحم الله منطقى مع هذا التراث ، مادام قرن أو أكثر لا يدع عينا ولا أثرا وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والغرس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فان البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ، والفارس فى مكان القلع مستفيد من القلوع عند الفلاحين لا عند منطقى أنا ...

... وإذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى اكرامه ، لعله لا يحرص عليها ، لانه لا يحب أن يخالف سنة الله التى لا تبدل) (١) .

واشترك مع نخبة من العلماء فى تأليف (تاريخ الحضارة المصرية) تناول فيه (الحياة الدينية فى مصر الاسلامية من ظهور الاسلام الى مطلع العصر الحديث) (٢) .

فقال عن وحدة الأديان :

(الدرس العلمى لظاهرة التدين والأديان المختلفة يمضى على منهجه المحرر ، فيحدث عن نشأة ، وتطور ، ومقارنات ، ونواميس تنظيم الحياة الدينية ، وسنن اجتماعية لها ... ونحو ذلك ...

(١) الرسالة - ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٥ م .

(٢) المجلد الثانى من (تاريخ الحضارة المصرية) نشرته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

.. وهو اتجاه يخشى أن يجد فيه صاحب دين سماوى :
مسلميا أو مسيحيا أو غيرها شيئا من غضاظة ، أو مساسا بكرامة
عقيدته ، إذا جمع المدرس بينها وبين ألوان من التدين البدائي
أو المتطور ، لا يعدها صاحب الدين السماوى إلا أساطير أو
خرافات ، أو تحريفا ، شوهت عقائد سليمة الأساس ، كريمة
المصدر (١) ..

فالمقارنة لانسى الى الأديان السماوية فى شيء باعتبار
(وحدة الأديان التى يقررها القرآن بوضوح وصراحة تكررت فى
مثل : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا
إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ،
ولا تفرقوا فيه .. الآية » فهو يقرر أن الحقيقة التى شرعها الله
فيما وصى به الرسل المتعدين واحدة .. والوحى الذى أوحاه
إليهم جميعا متماثل .. وهذه الرسائل قد دخل عليها مع الزمن
من التفسير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما
جرى (٢) ..

وباعتبار (أن كل أمة قد جاءها نذير ، أى أنه قد ألقيت
إليها رسالة مبلفة ، كانت مناسبة لوقتها ، ملائمة لحالها ، وهو
ما تقرأه قويا بصيغة القصر فى آية .. » وأن من أمة إلا خلا فيها
نذير » .. وتظاهرها الى حد ما آية .. » وما أرسلنا من رسول
إلا بلسان قومه » ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال : أن ما عند كل جماعة
بشرية من دين قد جاءها على يد نذير ، وله أصل سماوى .. ثم
تغير مع الزمن كما تقضى بذلك طبيعة التطور (٣) ..

(١) المصدر السابق - ص ٥٢٩ .

(٢) تاريخ الحضارة المصرية ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٣١ .

وبذلك يفسر ما جاء في الوثنية المصرية عن الميزان الأثري،
على النحو الذى فى الكتب السماوية بعد ..

ثم تناول ملامح الشخصية المصرية الدينية ، متضمنة ن :

١ - عمق الروح الدينى .. وأورد قول هيرودوت (ان المصريين
أشد البشر تدينا ، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجاتهم
فيها ، فان صورهم بجمالها تمثل ناسا يصلون أمام الرب
وكتبهم - على الجملة - أسفار عبادة وتنسك) ..

٢ - قوة الايمان بالحياة الآخرة .. (فمقيدة البعث فى النفس
المصرية هى محور النشاط العلمى فى وجودها ، وهى أوضح
البواعث والدوافع فى أعمالها ، وهى سر تاريخها ، وخالصة
فلسفتها فى تفسير حياة الكون والانسان) ..

٣ - سعة الافق الدينى .. (ان هذه الشخصية المصرية الدينية
قد هيات لمصر المشاركة فى الأديان الكبرى ، بمعرفتها ..
ولقائها .. وتقبلها فى أناة ويقظة .. وتمكينها امن الحياة
فى بيئتها الاعتقادية ، ثم الوقوف الى جانبها بعد التمثل
الصحيح لها ، وقوف المستشهد العميق الايمان (١))

وبعد أن تكلم عن (حيوية مصر فى الاسلام) و (اسلام مصر ..
بلا نحل ولا مقالات اعتقادية) و (مصر .. وراء الخلاف الفقهي)
قال .

(يبدو اسلام مصر منسق الجوانب ، متماسك الأجزاء ،
فى روحيته التى قادت النصوص .. وفى ايمانه الذى لم يهش

(١) تاريخ الحضارة المصرية ج ٢ ص ٥٣٤/٥٣٦

للجدل ... وفي فقهه الذي ارتفع عن الخلاف المذهبي المفرق ..
ودعا الى التوفيق الموحد منذ بضعة أجيال ..

وحاول فعلا .. وكل أولئك يؤيد ما تمثلناه من ملامح
الشخصية المصرية الدينية .. في عمق تدينها .. وسعة أفقه ..
وإدراك الجوهر الصافي للدين (١) ..

... بهذه الخطوط السريعة للدراسة الطويلة التي قدمها
الأستاذ الخولى نستطيع أن ندرك لماذا وقف طويلا عند الوحدة
الدينية ، ولماذا أكد عمق تدين مصر ، وسعة أفقه ، وصفاء
جوهره ...

أحسب أنه يشير الى ما يرمى اليه من تجديد قائم على
سعة الأفق وصفاء الجوهر وسلام ديني كما يشير الى واجب
رجال الدين نحو المجددين ، وهم يرثون حضارة ، هذه معالمها
الدينية ..

✽ ولما قضى (أكثر النصف الأخير من سنة ١٩٥٦م في أقطار
إسلامية فسيحة ، مثل أندونيسيا والملايو والصين والهند) تعرف
فيها - ما استطاع - الحياة الدينية في هذه البلاد فخرج (من
ذلك كله بأن هناك من الأساليب الاجتماعية العامة ، ومن
الأسباب الدينية الخاصة ، ما يوجب العناية الجادة بالحياة
الدينية ، عناية تتعاون فيها الأقطار الإسلامية المختلفة ، لو وجدت
هيئة عاملة ، تستطيع تركيز قوى هذه الأمم وتوجيهها ، وتقوم
مصر في ذلك بدور خطير ، لو يسرها الله لما هيئت له من رسالة في
هذا الشأن) ...

(١) المصدر السابق - ص ٥٥٥ .

ومن ثم كانت دعوته الى (سلام ديني يحتاج اليه الدين والحياة :

(... ان النتيجة المنطقية لهذا الجدل المصطرع ، والخلاف الحاد بين الأديان هي القضية المعروفة : تعارضا فتساقطا ... كل واحد قد قام من جانبه بكل ما يستطيع عقليا وعمليا ، لا بطلان ما عند مخالفه ، ونقضه ... ولا يسلم له ما في يده الا حين يحس أنه فرغ من ابطال ما عند غيره ، وأتم ذلك في البيوت والمعابد والمعاهد والجامعات و ... ويهدا اقام كل فريق الحججة على ضلال الآخر ، فبطل الكل في تقدير الكل ، أو بطل الكل أمام من لا يدخل في طرف من هذه الأطراف من الأحرار بل ان لهذا الصراع أثره القريب والقوى على كل حقيقة دينية عند أشد معتنقيها حماسا لها ، و يقينا فيها ، لأن الضجيج المثار حولها ، والابطال الدائم لأسسها ، له أثره النفسى الذى لا ينكر فى زعزعة ثقة الواصلين ، فكيف بالضعفة والمتشككين !!

فهل نترك هذه الحرب الفريية الدائرة الرحى سرا وعلنا ولخير من هذا ؟ لا أحدث عن الحياة والأحياء ، ولكن أسأل أصحاب الدين أنفسهم ، الخير الأديان والتدين هذه الحرب ؟

واذا كانت هذه الحرب لشيء من خير الأديان والتدين فى وقت ما - فهل هى لخير الأديان والتدين الآن ؟ وفى هذا الوقت الذى انتزعت فيه من أراضى التدين تلك المساحات الشاسعة التى تربو على نصف الكرة الأرضية ؟ (١) .

★ ويشغل الأستاذ الخولى - فيما شغل نفسه به من قضايا الاسلام ومشكلاته - بقضية الرق فى الاسلام ، تناولها

(١) المجلة - مايو سنة ١٩٥٧ م .

أكثر من مرة ، لما لا بسها من جمود الفكر وجموح التعصب ، حتى ارتبطت بمسائل كثيرة تتعارض مع سمو الاسلام ونبل تشريعه ، وأخذة الحياة يتعاليم البذل والتضحية من أجل الآخرين ..

وقد عالج هذه القضية على أساس من الوعي الكامل للتعالم الاسلامية ، وللبيئة التي نشأت فيها هذه التعالم مبينا أن فهم الدين يتأثر (في كل عصر بالمستوى العقلي والاجتماعي لأهل هذا العصر ، إذ لن يستطيع الناس أن يسبقوا زمنهم ، ولا أن يرتفعوا على الدرجة الاجتماعية التي يضعهم فيها وقتهم ، ودورهم في الحياة) ..

... (ومتى سلمت بتأثر الفهم الديني في عصر من العصور بحال المجتمع في ذلك العصر ، سهل عليك أن تتقبل ما أعرضه عليك من فهم الاسلام بالأمس في مجتمع تستطيع أن تتصوره) ..

.. (فالحياة يدوية التقاليد ، عمليا ، واقتصاديا ، ونظاميا ، وحكوميا ، على ما يتمثل القاريء من هذه الحال .. مع تقدير ما يمكن أن ينعكس على تلك البداوة من أضواء للأوضاع الاجتماعية في مجتمع الدولتين الفارسية والبيزنطية ، وما يمكن أن يتسرب من تلك الأضواء بسبب الاتصالات المحتملة بمناطق الشرق الأقصى مثلا ، أو الغرب الاغريقي الروماني ..

ومع التوسع والتفاؤل في الانعكاسات على حياة الجزيرة العربية ومستواها ، يظل القاريء يقدر المستوى الاجتماعي والفكري للبيئة التي ظهر فيها الاسلام ، ثم يقدر تأثير هذه البيئة على فهم أهلها للاسلام ، وفهم من تلقوا عن أهلها هذا الاسلام .. فيدرك لماذا بدت في هذا الفهم اتجاهات مثل تقبل امتيازات لقبيلة قريش ، أو لأسرة كبنى أمية ، أو بنى العباس ، أو بنى هاشم ، وكيف يسند التشريع هذه الامتيازات ويبدل الجهود العقلية

لتأييدها ، ولماذا يقرر تفاوت الناس في مراكزهم ، حتى يكون بعضهم كفوًا لبعض ، وبعضهم ليس كفوًا ، وما سبب هذا الصراع المدمر بين العصبية والشعوبية في حياة تلك المجتمعات . وكيف يستقر الأمر فيها - مع اسلامها - على نظام من الحكم الفردي تكون فيه الأرزاق والأرواح في يد واحد أو آحاد معه ، ولا يجدون في ذلك بأسا على تدينهم ؟ وكيف ؟ وكيف ؟ من ظواهر أخذت صورة النظم الاسلامية المقننة ، لن نتعرض لشيء منها الا (الرق) لاتصاله أوثق الصلة بمسألة العنصرية ، تلك المسألة الاجتماعية الهامة التي أحب أن يعرف العالم رأى الاسلام فيها . .

... ومع ما يجب أن نذكره من ترغيبهم في حسن معاملة الرقيق ، أو الحث على تحريره ، أو ما الى ذلك ، فان الرقيق - على كل حال - كان موردا اقتصاديا ، ومادة مالية ، وأشياء في المجتمع لا ترتقى الى مستوى الأشخاص ، وكان العتق هو الذي يسبب لهم صفة المالكية ... ويعقد بينهم وبين ساداتهم الذين ملكوهم وأعتقوهم صلة كصلة النسب ، توجد بينهم رابطة أبدية هي الولاء ...

... وبالنظر الى اثر هذا الفهم على قضية الرق بالذات ترى انه لا يعطف عطفًا ايجابيا على تطور الانسانية في سبيل التخلص من هذا الرق والقضاء عليه ، مادام يبقى الحرب سببا لاسترقاق الاسرى ، والحرب لا تزال حتى اليوم مشغلة البشرية الحمقاء () ...

.. بهذا عرض لنا الأستاذ الخولى القضية ، بعد أن مهد لها بضرورة تجديد النظر وتطويره مع تطور الفكر الانساني .. ثم بين موقف حركة الاصلاح الاسلامية التي (انفعلت بما حوالينا من التطور والتحرر الفكرى فجعلت تفهم الاسلام فهما أكثر حرية

وأوسع أفقا) لكنها (قد تأثرت كثيرا بالهجوم السياسي العنيف على الشرق في صور مادية ومعنوية ، من بينها الهجوم على الاسلام فبدت في تفكيرها نزعة دفاعية تعنى بتبرير الأوضاع الاسلامية ، لأن لها نظائر وأشباها في عقائد الناس ونظمهم ، وما الى ذلك من دفع اللائمة بأى وجه أو حجة ، أو تنظير أو اعتذار ، ولم يتجه الجهد الحق الى فهم الاسلام فهما أصيلا أو عاما شاملا ، أو مؤسسا على منطق معين ، ومنهج خاص (١) . . . واذ كنا نجد في التفكير الاسلامي القديم تطلعا الى (مشارفة عالم الملائكة) بل يدنى مستوى الآدمية الى (عالم الألوهية) (١) .

فانه (لا يليق بنا اليوم ان نقبل في فهم الاسلام ومقرراته ذلك الأسلوب اليأس المتداعى ، الذى يقوم على أن ليس فى الامكان أبدع مما كان من تقرير الفقهاء والمفسرين القديمى ، وواقع حياة المجتمع الاسلامى ، على عيوبه . . فى عصبية الجنسية العنصرية ، وطبقيته المسترقة ، التى تبغ الانسان وتمتهنه بالرق (٢) .

.. وفى بحث كتبه للمؤتمر الاسلامى (٣) - فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ و (لا يعرف ماذا صنع به) - عالج القضية على الأساس الذى كان يجب ان تأخذ به حركة الاصلاح الاسلامية . . . فبين أن العرب كان لهم (نصيبهم من نظام الرق ، وهم أولئك القوم البداة السذج الذين تبهروهم المظاهر ، وتزدهيهم المفاخر . .

(١) انظر (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) للامام الغزالى -

ص ١٥ .

(٢) مجلة المربى - أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

(٣) نسخة بالآلة الكاتبة فى مكتبه .

والرفيق في هذا الجو مفخر ومظهر ، وزينة ووجاهة ، فوق
الذى فيه من رعاية المال ، وتوفير الشراء والخدمة الطيبة ..

وبكل أولئك تشق مهمة الاسلام في الصرف عنه ، والتنديد
به ، والتدبير للقضاء عليه ، فكان الظن أن تكون محاولة الاسلام
في هذا السبيل متثددة ، متأنية ، متلطفة ، فى شىء من التبادؤ ،
لكثرة ما يعمل لتغييره من نظم ، هى بالدين أمس والى جوه أقرب ،
أو هى اقل أهمية فى حرص الناس وتوفير منافعهم ولذائدهم من
ذلك الرق ..

فهل كان الأمر كذلك فى نظر الاسلام الى الرق وتغييره
لتغييره ؟

هل خفف وقوعه وشيوعه وقوة الرغبة فيه حس الاسلام
بسوء اثره ؟

هل عنى الاسلام بتغيير نظم غير الرق وأخر اهتمامه
بمقاومة الرق الى ما بعد غيره ؟

هل اثر حرص السادة على الرق وانتفاعهم على تدبير
الاسلام لمقاومته ؟

هل كانت مقاومة الاسلام للرق فعالة كافية للقضاء عليه مع
الزمن والتطور ؟

بعد هذه التساؤلات التى تكشف عن منهج تفكير الاستاذ
الخولى - من حيث المواجهة الأصلية دون أن يتخذ آراء الآخرين
مرآة أو قنطرة عبور .

بين (حسن الاسلام نحو الرق) على أساس أن

(الاسلام يسمى الانسان خليفة الله في الأرض .. وهو يأمر الملائكة بالسجود له .. وهو يكرمه ، ويفضله .. وهؤلاء الأرقاء بشر من أبناء آدم ، فهل ترى القرآن نسي أو تناسى لاي سبب هؤلاء الأبناء الذين قست عليهم ظروف العيش العملية ؟

..... ان القرآن لم يستعمل كلمة (الرق) ، ولم يسم هؤلاء الأدميين الأرقاء بل سماهم تسمية تؤكد انسانياتهم في تقديره .. انه يسميهم الرقاب ، والواحد منهم رقبة والرقبة جزء من الجسم الانساني أصيل في الحياة ، وموضع لهدم تلك الحياة بضرب الرقاب ، فوق ما في المدوان على هذا العضو من علامة اللذل والاهانة ..

... والى جانب ذلك أيضا لم يستعمل كلمة (العتق) ، بل استعمال مكانها (التحرير) ، ومن معاني الخرف في العربية الأصيل ، والكريم ، والخالص الجوهر ، ففي الاستعمال القرآني (تحرير رقبة) اشعار قوى بانسانية هذه الرقاب ، بل بأصالة انسانيتهما ، كما استعمل (فك رقبة) ، وفي هذا الفك لفت قوى الى ما في وضع هؤلاء الأدميين من سجن وضيق وأسر ..

... ذلك هو الحسن القرآني السامي الذي كان الرسول عليه السلام يتمثله تمثلا قويا .. فينهى عليه السلام القوم عن أن يقول أحدهم : عبي وأمتي ، وإنما يقولون بدل ذلك ، فتاى وقتاى ، لأنهم كما قال عليه السلام ، اخوانهم) .

واستتبع ذلك بيان (مبادرة الاسلام الى مقاومة الرق)
فقال :

(ان هذا القرآن قد قدم تأمين الحرية الانسانية على تأمين الحاجة المادية فبدأ في بيان كبرى العقبات بفك الرقبة ، وثنى بالاطعام في يوم ذى مسبغة ، وهو تقدير جليل للحرية ، وصدى كريم للاحساس الاسلامى بقسوة الرق ، وقبحه ، وثقله ، وكم يؤكد ذلك وما اليه من سمو النظر وكرامة الهدف ، ما يكمل به القرآن بيان الايمان في هذه السورة - البلد - وهو : (التواصى بالصبر ، والتواصى بالرحمة) ..

اما (مقاومة الاسلام للرق) فتتجلى في ان :

(أ) القرآن لا يسترق أحداً .. لأن معاملة الأسرى المغلوبين تحددها قوله تعالى : (فاذا نقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) .. ولا نعرف في القرآن أية أخرى تعطى شيئاً ثالثاً في معاملة الأسير ... وبحسبى ان يسلم لى هنا ما قررت قبل من أن القرآن لا يسترق أحداً وأن حسه النبيل ضد الرق . ومبادرته الرحيمة الى مقاومته .. و .. و .. من جليل اسلفنا من نظرة للرق يتسق كل الاتساق مع هذا الترفع منه عن استرقاق أحد والتعرض للذكر ذلك في آياته ..

(ب) الاسلام لا يوجب استرقاق الأسير .. ومن ذلك ما قرر الفقهاء أن ضرب الرق على الأسير اختياري ، مفوض فيه الحق للامام الذى يتولى أمر الأمة الاسلامية ... وامام المسلمين الممثل لمبادئ الاسلام أولى الناس بأن يدرك هذا الاتجاه الاسلامى ويتمثله حين يتزك التصرف فى الأسرى ،

وتقرير مستقبلهم ، فلا يسترق ، ولا يذل ، ولا يخنق رقاباً
جعل القرآن فكاً كما أخطر ما فى الحياة ..

(ج) تدبير الاسلام لتحرير الرقاب .. وخطوات الاسلام فى هذا
التدبير للتحرير خطوات ايجابية فعالة ، ترى قوتها فيما يلى :

١ - ايجاب العتق ... فى كفارة القتل الخطأ ، وفى كفارة
الظهار ، وفى كفارة الافطار فى رمضان عمداً ، وفى كفارة
اليمين ...

٢ - الزام الدولة برصد اعتماد فى ميزانيتها من مورد ثابت
ليصرف فى الرقاب وتحريرها (انما الصدقات للفقراء
والمساكين ... وفى الرقاب .. الآية) ..

٣ - مطالبة الجمهور الاسلامى ببذل المال فى سبيل فك الرقاب
وتحريرها ، لأن ذلك هو البر الحق .. (ليس البر ان
تولوا وجوهكم .. وفى الرقاب .. الآية) ..

٤ - إثارة عواطف الجمهور الاسلامى ضد الرق ، ليبذل فى
سبيل ذلك ما يستطيع بذله ، مدفوعاً بالعاطفة الاسلامية
الكريمة التى رباها الاسلام ، ولا سيما القرآن ، على
الكراهية الحادة للرق ، واعتبار العمل فى سبيل مقاومته ،
بل القضاء عليه ، من خير الاعمال التى يعملها المؤمن الحق ،
المدرك لهذه المثل الكريمة ... (من فك رقبة فك الله بكل
عضو منها عضواً منه من النار) حديث ..

(د) القرآن يقضى على الرق .. لئن كان القرآن لم يجعل
الحرب مدداً لنهر الرق المسموم ، بما سمعنا من تقرير مصير الأسرى
بأحدى الحسنين ، المن أو الفداء ، فانه لم يدع الامر عند ذلك ،

بل حارب الحرب نفسها ، بدعوة جادة الى السلام العام . (يايتها
الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ،
انه لكم عدو مبين) .. فاذا كان هذا الدخول في السلم كافة ،
فلا كانت حرب ، ولا كان أسر بغرى بالاسترقاق ، وان كان القرآن
لم يجعله نصيب الأسرى منذ أول الدهر ..

ثم تناول الموضوع مرة أخرى على نطاق واسع في كتاب
(نظرات الاسلام الاجتماعية .. أمس .. واليوم .. وغدا) (١)
بعد ما بين (أن الدين في هذه الحياة لا مفر له من التفاعل
والتبادل مع ما سواه من فهم وتنظيم لتلك الحياة) وأنه لن يكتب
لهذا الدين (البقاء الا على قدر ما فيه من قدرة على هذه المسيرة
والمفاعلة والاستفادة ، والانتفاع بما سواه من التفسيرات
والتدبيرات الأخرى) ..

(وهكذا يتبين لنا في وضوح ان الدين - في أى حال من
الأحوال - قد احتاج ويحتاج الى التطور والتجديد على مدى
الأدهار ، وبفعل العوامل القوية بل العنيفة التي تصطبغ حوله ،
وتتدافع أمواجهما الجارفة في قوة وجبروت) ..

ثم بين من خصائص الدعوة الاسلامية العامة الملائمة لما بلغت
البشرية وتبلغه من التقدم والتطور والقادرة على تحرير البشرية
من قيود الغيبية اللاهوتية ، ورفع الحواجز من طريق محاولاته
للمعرفة ، وجهدها في تنظيم الحياة تنظيما صالحا موقفا :

١ - تقدير تجدد الحياة المستمر ، والحاجة الى ما يعنى بمقتضيات
هذا التجدد الدائم ..

... وامتد هذا الشعور بالتجديد المستمر ، وعروض

(١) مكتوب على الآلة الكاتبة في مكتبته .

القضايا الجديدة الى حد تقدير جمهرة علماء الأمة انه لا يخلو
أى عصر من مجتهد يبين للناس ما يحتاجون اليه من متجددات
حياتهم ..

٢ - احترام المحاولات الانسانية التى يبذلها الناس فى استنباط
حلول المشكلات العارضة والحاجات المتجددة ، على هدى
التوجيه الدينى ... بل قال القائلون : ان لكل مجتهد
نصيب ... وهو تقدير واضح السعة والعطف على هذه
الجهود ..

٣ - الاعتراف بحق القوى الانسانية فى تفسير الحياة وتديرها،
تفسيرا مستقلا منطلقا ، يعتمد على طاقة تلك القوى فى
المعرفة ، والاستبانة للحقائق بوسائلها البشرية الخاصة
... ويتضح ذلك من تقرير : أن الناس أعلم بأمور
دنياهم ..

٤ - تخصيص التفسير والتدبير الاسلامى للحياة بالشئون
الخلقية المصلحة لنفوس الناس وقلوبهم ، والمقومة لسلوكهم،
حتى يكونوا أختيارا طبيعى النفوس ، يمارسون الحياة بممارسة
شريفة جادة ، متعاونة على البر والتقوى ..

٥ - عدم خوض هذا التفسير الاسلامى فى شئون غامضة عن أصل
الحياة فى الأرض ، أو نشأتها وتدرجها ، أو كيفية انتهائها،
وما الى ذلك من الحقائق التفصيلية عن مثل هذه الجوانب،
وبذلك لا يقيد النشاط الانسانى فى سبيل هذه الحقائق حين
يرى أن يجد فى سبيلها ..

٦ - عدم خوض التدبير الاسلامى فى أمور جزئية ، ولا تنظيمات

تفصيلية ، لما يعرض له من الشسئون الدينية والدنيوية
جميعا) ..

.. وبناء على هذه الخصائص العامة ، وبسبيل تطوير الفهم
الدينى يجب فهم القرآن الكريم (فهما لغويا أدبيا ، فى جو فنى ،
من المستوى البلاغى الذى عرف للقرآن منذ أول العهد) مع مراعاة
أن القرآن (لا يقيد المستقبل ، ولا يحدد مدى التقدم والرقى ، مع
أنه يقدر الواقع الشاهد ويراعيه .. فخطته أن يبدأ من الواقع
المبائل ويقدره ، ويمضى فى التدرج منه الى ما فوقه : آخذا بيد
البشرية الى أقصى ما تستطيع أن تبلغه من تقدم) ..

وعلى هذا الأساس تناول مشكلة الرق ، وانتقل منها الى
تاريخ العنصرية ، ثم خلص الى موقف الاسلام من الوحدة الانسانية،
فبين أن :

١ - ما فى الاسلام من فكرة انسانية ، وروح سامية ، طامحة للخير
والسلام ، تقلل خسارة الحياة بهذه العنصرية المحطمة
المفسدة ..

٢ - نهى القرآن عن البحث فى الروح والساعة واشباه لها من
مغيبات لا يحد نشاط العقل فى ميدان من ميادين المعرفة .
وانما هو توجيه الى التخلص من متاهات الغيبيات ، ومازق
اللاهوتيات ، ومجاهل ما وراء الطبيعة .. ليكون السلام
العقلى الذى ظفر به العقل منذ صدته عما وراء الطبيعة ،
وردته الى العناية بالطبيعة ..

٣ - سلام عقلى يخرج العقل الى بهرة النور ، ويرى من ظلام
الغيبية .. وانطلاق جاد فى السموات والأرض يهيم له كل
ما استطاع من حرية فكرية ..

٤ - ربط المؤمنين بأخوة قائمة على وحدة النفس والأصل (إنما المؤمنون أخوة) .

٥ - ثمة آيات تجهر بالخلق من نفس واحدة ، صريحا جليا . .
ووقف الاستاذ الخولي عند (وحدة النفس) وقفة طويلة
مع إيماءات الآيات التي تحدث عنها . .

وتصدى بعد ذلك لأزمة التدين اليوم ، وعواملها وأسبابها (١) ،

وتحدث عن مستقبل الاسلام اذا هذه الأزمة (٢) ، فبين أن :

١ - الاسلام اذا صح أن يميز بشيء يمتاز به امتيازا واضحا ،
فإنما يتميز بأنه رسالة المعرفة . .

ومن هنا يبدو مستقبل الاسلام من ناحية صلته بالعلم
مستقبلا مأمونا ، لا خطر فيه ، ولكن على شرط أن يدرك المسلمون
أن ما كان من أخطاء بعض أسلافهم في هذا الشبيل ، اذ حرّموا
علما ، أو اضطهدوا معرفة ، أو حددوا منطقة جولان العقل . . الخ
. . ان ساء أن يقع والانسانية في مرحلة دون ما هي فيه اليوم ،
فلن يسوغ اليوم وقوعه مطلقا ، ولا يؤمن الاسلام في هذا المستقبل
إلا أن يحرر العقل والعلم أكمل حرية يمكن أن تتحقق لهما . .

٢ - العقيدة الاسلامية - كما حملتها أصولها الأساسية ، وكما
تلقاها المسلمون الأولون - قد نجت تماما من أسباب
التعقيد والغموض ، وظفرت بأكثر ما يمكن الظفر به من

(١) الاسلام والمستقبل - الأدب - ديسمبر سنة ١٩٦٣ م

(٢) الأدب يناير سنة ١٩٦٤ م

١. الوضوح ، واليسر ، والقرب ، والسهولة ، والتكشيف . . فلم تدخل شيئا من مآزق صلة اللاهوت بالناسوت ، ولا التجسد وما يشبهه ، ولا الحلول وما اليه ، ولا التناسخ وما يدانيه ، ولا . . ولا من تلك الغوامض التي تجهد العقل ، وتولج في ظلمات مبهمة ، وتحوجه الى التبرير المكدود ، والتوفيق المتكلف ، والتفلسف الذي يضيق الوقت والنشاط ، وتجهد به البشرية وتقلق . .

والفهم العصري الصحيح للأصول النفسية للاعتقاد ، وتكوينه ، وتدعيمه . . مع الفهم العصري الصحيح للحاجة النفسية عند أهل العصر والايمان والتدين ، وما يمكن الدين أن يؤديه لحياتهم . . وعلى ضوء المعرفة لهذا وما اليه ، تفسر الأصول الاعتقادية في الاسلام تفسيراً يمهد لها الطريق الى النفوس ، ويمكنها من أن تقدم للبشر ما يشد تلك الحاجة النفسية الى التدين والايمان . .

٣. - الاسلام يسر ، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه . . وما جعل عليكم في الدين من حرج . . لكن الذين فهموه من مفسري نصوصه ، ومن مستخرجي النظم منه ، قد فهموه طبعاً من أفق حياتهم ، وفي حدود المستوى الاجتماعي والثقافي الذي عاشوا فيه ، وعند الدرجة الحضارية التي كانت قد وصلت اليها البشرية في عهود حياتهم . .

٤. - الاسلام دين عام للانسانية كلها في صريح دعوته ، ودين خالد باق ما بقيت البشرية على الأرض ، ومثل هذا العموم الشامل لا يمكن أن يتحقق الا بوعى يقظ لما تحتاجه البيئات الانسانية المختلفة ، باختلاف الانحاء والاهواء ، ويجعل التعاقد والاعمال وكافة الأسس الدينية في الوقت الواحد مرنة مرونة تتسع للالوان المختلفة ، والأجواء المختلفة ، والطبائع المختلفة . .

٥. - الاسلام حينما ينظر الى مستقبله . . سيتجدد ما وجدناه من

فعل الزمن بكل ما هو مادي معنوي ، وقد أوجد في حياة الاسلام
صورا من الرياسة ذات الصفة الدينية ، ولا سيما في متأخر عصوره
• فمن قاضي القضاة منذ أول العهد إلى شيخ الاسلام والمفتي الأخير -
وكانت هذه الرياسة الدينية تكأة لألوان من الحكم الاستبدادي
الفاسد ، ووسيلة لايجاد طبقة تنتفخ كروشها ، وتتورم عماثمها ،
وتصب في جيوبها أنهار من المال عن طريق الحاكمين ، والواقفين ،
والجهلاء ، والسفهاء ••

ومن أجل هذه السلطة الدينية المستأسدة (على كل مسلم أو
شرقي رجا الخير ، وابتغى البر ، ففكر وعبر ، أو تملل فتحرر)
قدم الأستاذ الخولي إلى قرائه كتاب (المجددون في الاسلام)
قبل أن يقدم كتابه (تجديد الدين الذي سبق أن أعلن عن تقديمه
لنشر أكثر من مرة ، ولم ير الكتاب طريقه إلى النور ، ولم نجد إليه
طريقا حتى الآن ••

وكان هذه المحاولات العديدة السابقة لبيان الحاجة إلى
التجديد ، والطريق التي يسلكها المجدد ، بل والحديث المتجدد عن
أزمة الدين ، ومستقبل الاسلام ، وضرورة الفهم الواعي لنصوص
القرآن ، والصور التي قدمها عن آدم ونظرية التطور ، وعن الرق
في الاسلام ، والوحدة الانسانية •• كان كل هذا لم يكن كافيا لأن
يقول قوله في الوجوه ، ودون حجاب ••

ذلك أن الأستاذ الخولي آثر أن يتخذ كتابي (التنبئة بمن بعثه
الله على رأس كل مائة ، للسبوطي (٩١١ هـ) و (بغية المقتدين ،
ومنحة المجددين ، على تحفة المهتدين) للمراغي الجرجاوي (ق ١٣ هـ)
أساسا وتكأة ، حتى إذا دون قول القدماء بعبارتهم في فكرة تجديد
الدين على رأس كل مائة ، ثم أكمل هذه الصورة التاريخية بترجمة
من سموهم من المجددين ترجمة تقصد إلى بيان أعمالهم وأفكارهم في
التجديد ، لا يكون مقال لقائل ، ولا اعتراض لمعارض ، ولم تعد

فكرة التجديد بدعا من الأمر يختلف الناس حوله ، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأعراض والأوقات ، مما ينبغي أن تدخره هذه الحياة ، لتفيد منه في ميادين نشاطها ، ولاتضيع الوقت والجهد في تلك المهاترات التي تكثر وتسخف حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية أو الاجتماعية الى مالا يد لها منه من سير ، وتقدم ، وتطور ، ووفاء بما يجد دائما من حاجات الأفراد والجماعات (١) .

واذا ما أسس السلف لفكرة التجديد ، وسموا رجاله ، حق لنا أن نكمل الفكرة في التجديد ومداه ، بالنظر في حياة من سموهم مجددي المئات فنلتبس من عمل الحاكمين منهم ، ومن تفكير المفكرين فيهم ما نرى فيه أضواء يبعثها الماضي ، فيضيء بها طريق المستقبل ، واتجاه التطور فتكون الافادة من هذه الأعمال والأفكار قائمة على أساس متين من اختيار القدماء ، وواقع من عمل الدين اعترفوا لهم قديما بحق التجديد (٢) .

وأجيب أننا واجدون في تصرفات المجددين وتفكيرهم ما لم تصل اليه الحياة اليوم ، أو قل ما لم تجرؤ عليه (٣) . وبذلك يكون كتاب (المجددون في الاسلام) طليعة لكتاب آخر هو (تجديد الدين) ، فهو يطرق بين يديه ، ويمهد ، ويعد النفوس ، ويذل العقبات ان شاء الله (٤) .

والاستاذ الخولي بهذه الحطة يطبق المنهج الذي عودنا من دراسة القديم وقتله بحثا ، ليكون طريقا الى التجديد ، فلا يكون التجديد

(١) ص ٨ المجددون في الاسلام ج ١ - دار المعرفة سنة ١٩٦٥ م - ص ٨

(٢) المصدر السابق - ص ٩

(٣) المجددون في الاسلام ص ١٠

(٤) المصدر السابق - ص ١١

تُبديداً بل بناءً ، وإقامة حاضر على ماضٍ تمهيداً لمستقبلٍ مرغوبةٍ .
ومن ثم لا يصدم عبدة المواريث ، أو لا يكون عنيفاً في صدامهم .
وقد رأى من أمرهم حين كفروا الشيخ محمد عبده ، وكفروا أو أكادوا
طه حسين ، وكفروا أو كادوا أمين الخولي نفسه . .

وإذا كانت معركة (الفن القصصي في القرآن الكريم) ليست
بعيدة ، وآثارها لاتزال تفعل فعلها في نفوس المعتركين ، فإننا نجد
التبرير لاتخاذ هذه السبيل ، ولأنحسن الظن الذي ارتآه الدكتور
شكري عياد ، وهو يناقش منهج أستاذة في هذا الكتاب .
اذ يقول (١) . (ولعل شعور رجال الدين أنفسهم بالتناقص الاليم
بين بعض الأحكام التقليدية وبين ما يمارسونه ويلابسونه في حياتهم
العادية أن يكون إيذاناً بالحاجة الملحة إلى ذلك التجديد . . ولعل في
الخسار الموجة الاتحادية التي كانت تاتينا من الغرب في أواخر القرن
الماضي وأوائل هذا القرن وحاجة الملايين من شبابنا إلى إيمان ينير
لهم السبيل وسط اشكالية الوجود المعاصر بكل تقصيره - لعل في
هذا وذاك ما يطمئن بال رجال الدين إلى أن الحدث عن الجديد ليس
الحادثاً مقيتاً ، ولكنه صرخة جرس روحى لا يبارك الله من يجنبها
بالحرمان) . .

والأستاذ الخولي - من واقع تجاربه - كان أكثر إدراكاً لمنطق
رجال الدين عندنا ، وسهولة استشارتهم ، لهذا اختار كتابي رجلين
من عصرين جامدين (غير مشرقين) حتى تقوم الحجة على كل مكابر ،
ويُدفع الحرج أى خرج عن كل متكلم في التجديد اليوم (٢) . .
ومن ثم لم (يتتبع فكرة التجديد التطويرى تتبعاً مباشراً في

(١) الجمهورية ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٥ .

(٢) المجددون في الاسلام - ص ١٢ .

التجارب العملية والنظرية للإسلام منذ الخلافة الأولى (- كما ارتجى الدكتور شكري - ولعل هسلاً سبيله في كتاب (تجديد الدين))
مادام هدفه (تدعيم فكرة التجديد ، ثم تجديدها وبيانها فقد ملك
النفس شعور الحياة بالحاجة الماسة الملحة الى تجديد تطوري يفهم به
الإسلام الذي يقرر لنفسه الخلود والبقاء ، فهما جيا ، يتخلص من
كل ما يعرض هذا البقاء للخطر ، ويعوق الخلود ، اذاً ماضى العزم
على هذا الفهم الجديد ، الذي مضت سنوات في تقرير أصوله وأسسه
درساً ، وتعليماً ، وتدويناً (١) .

ثم ذكر أن :

(القدماء يعنون بذلك التجديد في عامة قول من رأينا كلامهم
أنه : أحياء السنة ، وإماتة البدعة ، أو أحياء ما أندرس ، وما يشبه
هذا التعبير) . .

... فالتجديد قديماً ليس إلا حماية المجتمع ، والانتباه إلى
العوامل السيئة المفسدة لأمره ، وإذا ما لحظ مع هذا التجديد ما في
الإسلام من أصل عام اجتماعي قوى هو : وجوب الأمر بالمعروف ،
والنهي عن المنكر ، بتغييره كلياً أمكن ذلك ، والمقصر في هذا ملعون
لعنة (الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم،
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ،
لبئس ما كانوا يفعلون) . . إذاً لما لحظ هذا مع ذلك كان التجديد
الديني هو : العمل الدائم للواعين ، الحارصين لكيان الجماعة ، من
التيقن فيها ضلالة مفسدة ، أو مهلكة ضارة . . وإذا ما قلت :
أن ذلك التجديد في رؤوس القرون هو العمل الثوري الذي تحتاجه

(١) المصدر السابق - ص ١١ .

الأمة اذا ما طال عليها العهد ، وقست القلوب ، لم أبعد . . ويؤكد هذا ما سبقت الاشارة اليه ، من جعلهم التجديد مرتبطا بكبريات الأحداث الضارة ، التي يتعرض لها المجتمع بفعل آفات من التطور الاجتماعى لسبب ما ، على نحو ما أشار اليه من أمهات الأحداث ، التي توجب وجود مجدد يكون نفعه عاما ومطلقا فى الأرض . . ولهذا كان تحييد كثرة المجتهدين ، وقال قائلهم : (لا يجوز قلة المجتهدين ، والعياذ بالله (١)) . .

ثم بين أن (التجديد الذى هو تطور ليس اعادة قديم كان ، وانما هو اهداء الى جديد كان بعد أن لم يكن ، سواء أكان الاهتداء الى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا ، أم بطريق الاجتهاد فى استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن . . فالتطور لا يفهم بسهولة من احياء ما اندرس ، كما يقال فى معنى التجديد (٢)) . .

واذا كان التجديد - عند القدماء - (ليس الا حماية للدين ، وكيانه ، بالصورة الاولى التى أدى بها ، دون تدخل بفهم جديد ، أو تطبيق جديد ، يمكن أن يعد مسايرة لتغيير الحياة الذى هو معنى تطورها) . . (فان المجدد المناضل عن العقيدة مثلا ، قد ابتكر فعلا - على ما هو معروف تاريخيا - وسائل جديدة فى عرض العقيدة وتصويرها ، عرضا وتصويرا جليا ، مؤيدا بالأدلة التى تكون عادة للمدافعين عنها ، كاتخاذ المنطق اليونانى فى الجديد طريقا للاستدلال ، وكالذى يعرف من اختلاف طريق السلف فيما بوصف الله به من مشابهة الحوادث ، وهى التسليم بلا تاويل ، واتخاذ من بعدهم طريق التاويل وعدم الاكتفاء بالتسليم . . كما كان عمل المناضل عن أصوله

(١) المصدر نفسه - ص ١٧/١٨ .

(٢) المجددون فى الاسلام - ص ٣١ .

الدين الاعتقادية ، وعن أصول الأحكام العملية عملا لا يخلو من التطور ، لأن مهمته كانت معاونة هذين الجانبين من العلم والعمل الدينى على التقدم ، ومناجاة سائر الحياة بخطى لم يصلح شيء من هذين الجانبين الدينين للبقاء إلا بها (١) . . .

(وحين تجدد الامام الشافعى يقول : « لا أجعل فى خل من روى عنى كتابى البغدادى بعد انتقاله الى بيثة جديدة - مصر - ونظرة فيما ألف ببغداد ، فانا نشارف من فهم الأقدمين وقولهم المعنى الواضح الصريح للتطور ، وأنه تغير وانتقال من حال الى حال ، تأثرا بعوامل مادية ومعنوية ، تتعرض لها الأحياء والكائنات المعنوية ، بفعل تآمر من صار فى حساب العلم اليوم ثابتا ، فى جملة ، ومفهومة العلم ، وأصله الكلى ، مهما يجر الاختلاف على تفاصيل هذا التطور ، وخطواته ، أو فلسفته ، وتفسيره ، وتعليقه (٢) . . .

والقول بأن (هذه القوى الحيوية تشبه نبع صافيا عذبا سائغا ، ثم مضى يجرى فى وادى الحياة ، فعلق به فى مجراه ما يعلق عادة ، من أعشاب وطحالب ومواد ذائبة من أرض المجرى بل يتكلس من هذه الأشياء جملة ما يضيق به المجرى ويغطي سير التيار الحيوى ، فتوقف مياهه ، حتى تركد وتأسن ، فى وقت ما ، وعند مكان ما ، فيحسب من رأى هذا الماء فى زمانه ومكانه المتغيرين أنه كذلك كانت طبيعته دائما ، مع أنه كان فى الواقع نبعرا سائغا ، حينما فاض من عينه الأولى فاذا ما تابع الناظر هذا المجرى الذى فيه الماء الأسن أخيرا ، وتنبع مجراه حتى وصل الى منبعه الأول ، فسينكشف له ما فى هذا الماء من عذوبة وحلاوة وصلاخية لانبات الزرع وأحياء الأحياء) وبناء عليه (فالشجيد أو الاصلاح

(١) المصدر السابق - ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) نفسه - ص ٣٤ .

عندهم شبهة بهذا العمل في الرجوع الى المعين الاول للاستقاء منه ،
ورد الناس اليه ، ليعرفوا ان هذه الرواسب والعوائق ليست
الا طارئة عليه ، فاذا مانحوها عنه عاد عذبا قراتا) . .

وهذا القول - ان يكن في جملة صالحا لا يوضح المعنى
الاصلاحي او التجديدي فان (اصلاح المجرى ، وضيانة عذوبة
الماء وفائدته ، لا تقف أبدا عند الرجوع الى مصدره للاستفاد منه ،
بل يعود الرجوع الى المصدر نفسه عاملا من عوامل اكثار المساء
وحمايته ، وصونه ، وزيادة الانتفاع به ، وذلك هو التجديد او
الاصلاح التطوري (١) .

(ولا غرابة في المطالبة بالتطور في هذا الميدان ، لأن النظرة
الدقيقة السليمة الأساس تبين أن هذا الناموس ، في تطور الكائنات
المعنوية ، يبدو أكثر وضوحا في حياة الأديان وتدين الانسان ،
لأن الأديان على اختلاف أزمانها المتباعدة ، واختلاف حملتها من
المرسلين جنسا ودما ، انما تؤلف وحدة متكاملة لجانب من النشاط
الانساني ، فترسم الصورة المتناسكة لظاهرة التدين في تاريخ
البشرية . . والأديان نفسها تشهد على نفسها ، بعبارات من الآيات
المختلفة ، أنها مقررة لناموس أصيل ، كما تقول المسيحية ، وكما
تعتبر العهد القديم من الثوراة ، وما معها ، متكاملة مع العهد
الجديد ، من الإنجيل ، وكما يقول القرآن انه مصدق لما بين يديه . .

ثم هي مع ذلك ليست تكرارا لصورة واحدة من الرسالة ،
ولا لشخصية واحدة من الرسل بل لكل رسالة طابعها الخاص
لزمانها ، ولأسلوب التخيل ، وأهلها ، ولكل رسول شخصيته
الحيوية ، التي تناسب رسالته ، وتوائم أهل زمانه . . فاذا

بما انتهت الأمر إلى مرحلة تعنى بهما البشرية ما حولها ، وتخطو
مستقلة بتفكيرها ، مع الكليات الدينية العامة ، كان ما كان من ختم
الرسالات السماوية .. ومع هذا التطور الواضح في حديث
الرسالات السماوية نفسها فإنها تقرر وحدة الأصل ، وتجعل
اللاحق مكملاً للسابق .. وذلك هو التطور ، لا غيره (١) ..

واسس التطور في الاسلام عنده :

- ١ - امتداد دعوة الاسلام ، وحياته ، امتدادا مكانيا ، إلى
الناس كافة ، وامتدادا زمانيا ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .
- ٢ - اقتضاد دعوته في الغيبات ، وإراحة العقل منها بتركه
التفاصيل ..
- ٣ - عدم تورط الاسلام في كتابه الذي هو أصل أصوله
في بيان شيء عن نشأة الحياة على الأرض ، وظهور الانسان ، وما مر
به ذلك كله من أدوار ، وسنين تلك الأدوار ، وما يتصل بذلك ،
مما تورط فيه غيره ..
- ٤ - عدم تورط الاسلام في شيء من تفاصيل تاريخ الأمم
والرسل التي عرض لأحوالها جملة ، أو مع بعض التفاصيل
بياناً لبيئة الاجتماع في حياة الدعوات والرسالات وكيف تلقاها
الناس ، وكيف قاوموها ، وكيف تم انتصارها أخيراً ..
- ٥ - اقتضاده في تنظيم الحياة العملية بالعبادات وغيرها
بعد تيسير الحياة الاعتقادية - على الأمور الكلية والأصول العامة
الشملة دون التفاصيل المفردة ، والجزئيات الصغرى ..

ثم تلتبس التفاصيل بعد ذلك من مصادرها المختلفة ، مع كتاب
الدعوة الأصلية ..

٦ - جعل الاجتهاد أساسا للحياة الإسلامية ، وما الاجتهاد إلا
الانطلاق مع الحياة وفاء بجديد حاجاتها (١) .

فيم يكون التطور الديني ؟

بالنظر الى ما يوحى به قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وقوله « وقد فضل لكم ما حرم عليكم
الا ما اضطررتم اليه » ، وقوله : « وما جعل عليكم في الدين من
حرج » ، وقول الكلاميين : (العالم متغير) ، وقول الأصوليين :
(لا ضرر ولا ضرار) - نجد (امكان تطور الدين في جوانبه
المختلفة) (٢) ..

فما ينبغي ان نلاحظ نجد تلك الصور الساذجة من الحديث
عن غيبيات ، لم يأمر الدين بشيء من التفصيل لها ، وإطالة
الحديث عنها ، ولا أن تستمع الى صنوف من القصص الذي هو
تمثيل لمعان ، وتقريب لحقائق ، لا تاريخا ، ولا تسنجيلا ، لأن
مافيه من الحديث المفصل يصدم حس هذه الأجيال ، وينادى
تكوينها العقلي بعملية ، وتكوينها الفني بدقة ، بل أن عرض
صفة الألوهية وضرورتها ، ومدى المسئولية النفسية ، ومحاسبة
الضير أمام جلال الألوهية ، مما ينبغي أن يستعان فيه بتلك
النواحي الفنية ، ومالها من اثر في اجتذاب القلوب ، وإطمئنان
النفوس ، وحل العقد التي تصيب النفس ، من تصدع الحياة

(١) المجددون في الاسلام - ص ٢٨/٤٥

(٢) المصدر السابق - ص ٤٦/٤٨

حولها ، ومضى أصحاب الدين فيها بما لا يحتمله أصحاب الدنيا
ومنظموها (١) . .

(ولعل الوجوه أقل نجهما للتطور في العبادات ، لأن عامة
الناس وخاصتهم على السواء يعرفون اختلاف المذاهب الفقهية
العملية . .

ولعل أبسط صور التطور المغير أن تجد الحياة في هذا
الاختلاف فرصة للتخير بانتخاب ما تراه أيسر عملا ، وأصلح
مسايرة ، وأخف وقعا ، وأعمق أثرا (٢) . .

وأحكام المعاملات ليس لها طابع لاهوتي ، ولا لها صفة
دينية ، وإن من باع بيعا باطلا أو فاسدا لا يلحقه بذلك اثم ، لأن
هذه تصرفات عادية لا يلحق بها الاثم ، إلا حين تنطوي على شيء
من الفساد الخلقى ، أو العمل الناجم عن الفساد الخلقى فان غش ،
أو غر أو خدع ، أو خلب ، أو . . الخ ، مما هو في حقيقته عمل
نفسى خلقى له تأثيره الواضح على خلق صاحبه ، لا مجرد تصرف
عملى . . .

والأمر في المعاملات على كل حال ليس إلا أمر مصلحة واقعة
حيثما وجدت ، فثم حكم الله . . كما يقولون بصريح اللفظ (٣) .

وعرض الأستاذ الخولى لستة مجددین عرضا يهدف الى :

(استخلاص ما في أقوال أولئك الأسلاف الأخيار وفعالهم ،
مما تفيد منه الحياة فتتجدد وتتطور ، وتبرا من آفات آراء أو

(١) المصدر نفسه - ص ٥٢/٥١ .

(٢) المجددون في الاسلام - ص ٥٤ .

(٣) المصدر السابق - ص ٥٧ .

اضرار افعال ، باقتدائها باوثك الاعلام الدين شارفوا افق
التطور ، حين نعتوا بصفة التجدد ، واعترف لهم بحق
التجديد (١) .

واهتم بما قدم المجددون للحياة الدينية من حقائق كبرى ،
كالتطور الدينى ، والتسامح الدينى . . (اشهد على انى لا اكفر
احدا من اهل هذه القبلة ، لان الكل يشيرون الى معبود واحد ،
وانما هذا كله اختلاف عبارات) . . . وحرية الاعتقاد ، وحق الفهم
الصحيح للدين ، واصلاح الحياة ، لا طقوس واشكال ، كما
جاء فى قول عمر بن عبد العزيز : (انى رايت ان اجعل ذلك فى
اكباد جائعة ، فانه اولى بذلك من البيت) . . . والشعور بالوحدة
الاجتماعية ، وسعة الافق ، فى تمثل دائرة المعرفة البشرية ،
واجلال العلم ، وتقديمه على العبادات كصلاة النافلة ، وتصحيح
منهج التفكير الدينى بالايمان المبكر - من مثل الشافعى -
بالتجربة ، والفدائية العلمية . . (وددت ان الناس انتفعوا بهذا
العلم ، ولم ينسب الى منه شئ) . . . والنفور والتنفير من
التقليد . . (لا يجوز للمجتهد ان يقلد مجتهدا غيره) . .

كما اهتم الاستاذ الذولى بالجانب العاطفى والفنى فيمن
ترجم لهم ، لان الحياة (تعاني بهذا البعد للدين واهله عن مجال
العواطف ازمت صعبة عن علاقة الدين بالفن وشيوع هذا
الانقسام الضارخ فى حياتنا ، بين ما تبذل الدولة ، فى تشييل الفن
بفهمها وتطبيق ما ، وبين مال اصحاب هذا التدين الذين يتأثمون
من هذا الحديث ، ولا يملكون الاعتراض على المناكير القذرة التى تمارس
باسم الفن ، فتمضى الحياة المتفenne غير صادقة ولا سليمة) (٢) .

(١) المصدر نفسه - ص ١٤٣ . .

(٢) المجددون فى الاسلام - ص ١١٨ .

وشجب الأسلوب الانتخابي عند الأشعري ، لأنه (اشارة
عدم قدرة الفكر على الادلاء بجديد ، وأن التفكير في مثل هذه
الحالة يمر بفترة من عدم الخصوبة ، أو قل انه يشير الى ان
الوسائل المبحوثة قد استهكت آراء المفكرين فيها ، وأن طاقة
المتفائلين لهذه المسائل قد وقفت عن أن تواتى بجديد) (١) ..

وعاد ليؤكد انه لم يقصد (الى مناقشة فكرة التجديد
الديني من حيث مدى صحتها وقوتها ، أو من حيث سلامة
الملحظ فيها ومتانته ، أو من حيث مستنداتها ودليلها ، ودرجة
قوته أو افادته) (٢) .. لأن الهدف الأكبر منه أن يشيع في
الشباب نواحي الحيوية النابضة من أعمال المجددين ، مما
يصلحون به أن يكونوا مثلاً صالحة ، وقوى حسنة ، الى أزمنة
متطاولة (٣) ..

وفي نهاية مؤلفه اشار الى أن الجزء الثاني يبدأ بترجمة
الغزالي المجدد ، لكن الاستاذ الخولي ترك دنيانا ، قبل أن يجد
هذا الجزء سبيله الى الوجود ..

(١) المصدر السابق - ص ١٢٧

(٢) المصدر نفسه - ص ١٢١

(٣) المصدر نفسه - ص ١٥٩

التفسير الأدبي

... كانت الجامعة أول نشأتها الرسمية ، في ختام الربع الأول من هذا القرن ، قد وجدت الحاجة في درس الأدب وتاريخه ، إلى القول في القرآن ، بما هو مادة لذلك التاريخ الأدبي ، وقررت في ذلك ما كان وسيلة للفوغائية المتجربة بالدين إلى مهاجمة الجامعة ، والإغارة عليها ، فجاءها إذ ذاك هذا الشيخ ... لم يذكر اسمه - من شيوخ المدرسة القديمة ، في ختام حياته التعليمية ، وغير في مناهجها ما غير ، وجعل تفسير القرآن مادة دراسة فيها ..

وكان مفهوم التفسير عنده أو عند أمثاله ، لا يجاوز كثيرا تلك الكتب المتداولة فيه ، على اختلاف منازعها ، فأخذ الطلبة بقراءة شيء في تلك الكتب ، ولعل أروجها كان كشاف الزمخشري ... وكلها يمكن أن يقال فيه : انه لا يستطيع الوفاء ببيان ما في هذا القرآن من قوة بلاغية ، إذ شغل مؤلفوها بغير ذلك من أهداف ، وقعدت بهم مع ذلك عجمتهم ، ومستوى

الطاقة الأدبية لعصورهم ، فجاءوا بآخر ما استطاعوا ، ولم يكن
- في الحق - آخر ما يقال في القرآن ، أو مشارفاً لشيء من الغاية
في ذلك ..

وكانت الحياة الأدبية الجامعية إذ ذاك خصبة ، متجددة ،
متطلعة ، مستشرقة ، فابتغت وراء ما استشرف اليه القسرون
من حس العربية ، وذوقها ، وبلاغة هذا الأسلوب ، ما همي وراء
ذلك وأبعد ، على أن يكون لهذا التطلع ضابط من طبيعة اللغة
وحيويتها ، لا من القول المرعى لها أو عليها ، والاحتمال الظان ..

ولكل أولئك وغيره ، من عوامل محتكمة في حياة الأسرين
القدامى ، ومستوى عصورهم الثقافي ، راحت الجامعة تحول
درس التفسير درساً أدبياً محضاً ، يستعين بكل ما يلائمه -
ومستبلفه - الثقافة الإنسانية الفنية من دقة وتطلع (١) .

وما كان لصاحب (المنهج المتحرر) أن يخطو خطوة في
(التفسير الأدبي) قبل أن يدرس تاريخ القرآن ، تمهيداً
للتفسير ، وتوطئة تضيء ما حول النص ..

تاريخ القرآن (٢) ..

يقول الاستاذ الخولي :

(نريد أن نعرف بالقرآن فنحدده ، ونبين سماته المتعارفة ،
ونحدث عن نزوله كيف كان وكيف تلقى ، والبيئة المكانية والزمانية
لذلك ، وما جرى في ذلك من اصطلاح خاص ، وذلك - ان شئتم - هو
تأليفه ، وما يتصل به ، ثم كيف جمع وحفظ وكتب وتداول ،

(١) لغرات في مناهج الدراسات الأدبية - الأدب - مارس سنة ١٩٦٦ .

(٢) مخطوط بمكتبة المؤلف تجد خلاصة وإلية له بالملحق .

من أوائل عصور الاسلام الى ما استقر عليه الحال في عصرنا ،
ثم ما كان في سبيل تنسيقه وتنظيمه وضبطه وكتابته من جهد ،
وما له من أثر جري عليه الحال في تناقل نصوصه ، وتلاوة آياته ،
وأوجه التباين في ذلك ، وسببها وأثرها ، ومساسها بالمعاني ،
ثم اجمال عن مشتملاته ، وما تناوله من موضوعات ، وطريقة
تناولها ، وترتيبه اياها ، وميزته في ذلك من ناحية المنهج
والأسلوب ..

وهي كما ترى أبحاث تاريخية أدبية ، إلا أنها تدور حول
كتاب ديني ، قد عرفت له صفة من القداسة ورسمته في
عقيدة ، فبحثنا قد يمس من قرب أو بعد هذه الناحية ..

ثم .. تناول قضية النزاع بين العلم والدين بصورة
تشعرنا أن منهج الاستاذ الحولي القائم على أساس علمي قد يلتقي
فيما يعرض له (بشهوات متحركة ، ومصالح مهددة ، ومنافع
ضائعة ، وجهالة سائدة) تؤيدها قوة غاشمة (، ومن ثم أخذ
يلوح براية الأمان ، قبل أن تبين طبيعة درسه :

ثم تكلم عن المصادر والمراجع أو فرق ما بينهما ، وما
يقتضيه هذا الدرس من مصادر ومراجع ، وتكلم عن نشأة
علوم القرآن ، والتأليف فيها ، في العربية والافرنجية ، ثم بحث
في أصل معنى قرآن وفرقان ، وكتاب ، وذكر ، وحكمة ، وهي
الألفاظ التي وصف بها كلام الله ، ثم تناول نزول القرآن ،
باعتباره (يقابل ما نتصدي له في تاريخ كتاب عادي من بيان
تأليفه ، وأدوار وضعه ، إذا مر وصفه بأدوار) ، فتحدث عن
معنى النزول لغة ، وما ورد في استعمالات القرآن ، واتبع ذلك
ببحثين (كلاميين اعتقاديين أكثر مما هما تاريخيان أو أدبيان) :

(وأول هذين البحثين يتعلق بالمنزل من الله ، وكلامه كيف كان ، وثانيهما يتعلق بالمنزل عليه ، وهل له في هذا القرآن المتلو عمل أولا) ..

وأورد ما قالوا في ذلك .. ثم تكلم عن زمن النزول ومكان النزول ونظام النزول ، ورأى في أسباب النزول (ضرورة وقوف الباحث طويلا ، وتردده ، قبل أن يقرر أن سبب نزول آية كذا أو آيات كذا هو حادثة بعينها ، لأن من أقوال المتقدمين حول تلك الأسباب :

(أ) احتمال عدم جزم الصحابة بسببية حادثة لنزول آية ، فالأمر يتوقف على ملاحظة القرائن المختلفة بالحوادث ، والنظر في الأسباب ..

(ب) وهم الراوى بأن تذكر حادثة تنتهى بتلاوة آية ، فيظن الحادثة سبب نزولها ..

(ج) إيهام المفسرين العبارة في ذكر أسباب النزول ، وأنهم قد يذكرون أكثر من سبب لنزول الآية الواحدة ..

(د) تخرج المتقدمين من القول في أسباب النزول ..

ولو تقدمنا الى ما روى من تلك الأسباب لننقده ونمحصه لوجدنا فيه كذلك ما يؤيد هذا التخرج والتوقف في القول ، بسبب معين للنزول والشعور بصعوبة ذلك اذ نرى في تلك الأسباب :

(١) ما يقوم على اسناد أفعال وأقوال الى النبي ليس من السهل قبول اسنادها ..

(ب) قد يبدو التصنع والاضطراب في ذكر أسباب النزول بل انهم يسوقون حوادث خالية من التحديد ، بل يعوزها الضرورى منه ، حتى يكون لها شيء من الأثر في فهم الآية أو الاستنباط منها ..

لكننا حين نقرر أن في أسباب النزول ما نشير اليه من غموض واضطراب لا ننسى ان من بين تلك الأسباب ما هو معالم واضحة في تاريخ الاسلام وحياة الرسول . . .

وعلق على ما قيل في تكرار النزول قوله :

(والواقع أن المقام خال من أثر صريح واضح في تكرار نزول آية . . . والذي يبدو لى أن المتمسكين بالتكرار لم يدفعهم الى ذلك الا ما روى في أسباب النزول من أسباب عدة لآية واحدة مع اختلاف الأماكن والأزمنة ، فراوا المخلص من ذلك في تقرير أن النزول قد يتكرر تصحيحا لتلك الأسباب المختلفة ، بأن يجعل كل واحد منها سببا للنزول) ..

ووقفت المذكورة عند جمع القرآن ، فلم تتم القول فيه ..
التفسير .. معالم حياته .. منهجه اليوم .. (١)

بدا البحث بتحليل للفظ (التفسير) لغة واصطلاحا ..
وعرض لنشأة التفسير واتجاهات المفسرين ، ثم بين أنه :
ان (تضمن - القرآن - علوما هي من جنس علوم العرب ، أو ما ينبئ عليه معيها ، مما يتعجب منه أولو الأسباب ، ولا تبلغه ادراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره فليس بجائز كما يقول الشاطبى في الموافقات - أن يضاف الى

(١) نشر البحث في (دائرة المعارف الاسلامية) المجلد الخامس ، وفي كتاب

(منهاج تجديد) .

القرآن مالا يقتضيه ؛ كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ،
ويجب الإقتصار - في الاستعانة على فهمه - على كل ما يضاف
إلى السرب خاصة ، فيه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام
الشرعية ؛ فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول
على الله ورسوله فيه : (١) . . .

وانك لتضم إلى هذا من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه .
فمنها :

١ - الناحية اللغوية ، في حياة الألفاظ ، وتدرج دلالتها ، لو ملكتنا
هذه المأبذ لنا أن نملك في تحديد هذا التدرج ، وتاريخ ظهور
المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ، وعهد استعمالها فيها ،
أوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في
فهم الألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معان وإطلاقات لم
نعرف لها ، ولم تستعمل فيها . . .

٢ - الناحية الأدبية ، أو البلاغية إن شئت ، والبلاغة فيما يقال :
مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فهل كان القرآن على هذا
النحور المتوسع من التفسير العلمي كلاما يوجه إلى من
خوالب به من الناس في ذلك العهد ، مرادا به تلك المعاني
المذكورة ، مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا إلا بعد
ماجازت أمادا فسيحة ، وجاهدت جهادا طويلا ، ارتقى به
عقلها وعلمها !!

٣ - وهناك الناحية الدينية أو الاعتقادية ، وهي التي تبين مهمة
كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث إلى عقول الناس

وقواهم العالة ، عن مشكلات الكون وحقائق الوجود
العلمية ؟ وكيف يساير ذلك حياتهم ، ويكون أصلا ثابتا
لها ، تختتم به الرسائل السماوية ، كما هو الشأن في
القرآن ، مع أن هؤلاء المتدينين لا يقفون من معرفة هذه
الحقائق عند غاية محدودة ، ولا ينتهون منها عند
مدى ما ؟ (١).

ثم تحدث عن تلوين التفسير بثقافة المفسر (إذ أن المتفهم
لعبارة هو الذي يحدد بشخصيته المستوى الفكرى لها ، وهو
الذي يعين الأفق العقلى الذى يمتد اليه معناها ومرماها . .
.. فلن يفهم من النص الا ما يرقى اليه فكره ، ويمتد
اليه عقله ، وبمقدار هذا يتحكم فى النص ، ويحدد بيانه . . وعلى
هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن ، تطبع
تفسيرهم له ، فى كل عهد وعصر ، وعلى أى طريقة ومنهج ، سواء
أكان تفسيرهم له نقليا مرويا أم كان عقليا اجتهاديا) (٢) . .

ويذكر أن الاستاذ الامام محمد عبده يرى أن (التفسير الذى
نطلبه هو فهم الكتاب ، من حيث هو دين يرشد الناس الى ما فيه
سعادتهم فى حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخرة . . . ليتحقق فيه
معنى قوله تعالى : «هدى ورحمة») . . لكن - والقرآن (هو كتاب
العربية الاكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم) - فان (التفسير اليوم -
فيما أفهمه - هو : الدراسة الأدبية ، الصحيحة المنهج ، الكاملة
المناحى ، المتسقة التوزيع . والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبى
محض صرف ، غير متأثر بأى اعتبار ، وراء ذلك ، وعليه يتوقف
تحقيق كل غرض آخر يقصد اليه) (٣) . . وذلك

(١) مناهج تجديد - ص ٢٩٣/٢٩٤

(٢) منهج تجديد - ص ٢٩٦

(٣) المصدر السابق - ص ٢٩٩

بأن يفسر القرآن موضوعا موضوعا ، وأن تجمع آيه الخاصة
بالموضوع الواحد جمعا احصائيا مستقصيا ، ويعرف ترتيبها
الزمنى ، ومناسبتها وملابستها الحافة بها ، ثم ينظر فيها بعد ذلك
لتفسير وتفهم ، فيكون ذلك التفسير اهدى الى المعنى ، وأوثق
فى تحديده (١) (١) .

وهذا المنهج الأدبى فى التفسير يعتمد على :

دراسة ما حول القرآن ، ودراسة فى القرآن

وما حول القرآن

يتصل (بتلك الأبحاث من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما
اليها) ، وهى التى عرفت اصطلاحيا باسم علوم القرآن .

كما يتصل بدراسة ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التى
ظهر فيها القرآن وعاش ، وفيها جمع ، وفيها كتب ، وفيها قرىء
وحفظ ، وخاطب أهلها اول من خاطب ، واليهم القى رسالته
لينهضوا بأدائها ، وابلاغها شعوب الدنيا . . ومع هذا ما يتصل
بالبيئة المعنوية ، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من ماض مسحيق
وتاريخ معروف ، ونظام أسرة أو قبيلة ، وحكومة فى أى درجة
كانت أو عقيدة بأى لون تلونت ، وفنون مهما تنوع ، وأعمال مهما
تختلف وتتشعب . . فكل ما تقوم به الحياة الانسانية لهذه
العروبة وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربى المبين (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٦

(٢) مناهج تجديد - ص ٣٠٩/٣١٠

ودراسة القرآن نفسه

تقوم على :

١ - النظر في المفردات .. والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك تدرج دلالة الألفاظ « وأثرها في هذا التدرج بتفاوت ما بين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية ، والاجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له الفاظ العربية في تلك الحركة الجياشة المتوثبة ، التي نمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية ، والسياسة ، والثقافية التي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة (١) .

٢ - النظر في التركيبات .. لا على ان الصيغة النحوية عمل مقصود لذاته ، ولا يلون التفسير كما كان الحال قديما ، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديدده ، والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآية الواحدة ، والتقاء لاستعمالات المتماثلة في القرآن كله .

على أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني ، وتبين معارف هذا الجمال ، وتستجلي قسّماته ، في ذوق بارع قد استشرف خصائص التركيب العربية ، منضمّا إلى ذلك التأمّلات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية ، لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته ، فنا فنا وموضوعا موضوعا ، معرفة تبين خصائص القرآن في كل فن منها ومزاياه التي تجلو جماله ..

(١) المصدر السابق - ص ٣١٢

٣ - تفسير نفسياني للقرآن يقوم على الاحاطة المستطاعة ، بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية ، في الميادين التي تناولتها ودعاوى القرآن الدينية ، وجدله الاعتقادي .

ورياضة الوجدانات والقلوب ، واستدلالة القديم ما اطمأنت اليه ، وتوارثته الأسلاف والأجيال ، وتزيينها بما دعا اليه من ايمان ينقض مبرم هذا القديم ، ويهدم اصوله . . وكيف تنطف القرآن لذلك كله ، وما ذا استخدام من حقائق نفسية ، في هذه المطالب الوجدانية ، والمرامي القلبية ، وما أجدت رعاية ذلك كله في انجاح الدعوة ، واعلاء الكلمة . .

٤ - كما يقول الاستاذ الامام : (ان علم أحوال البشر - علم الاجتماع مما لا يتم التفسير الا به ، وانه لا بد للناظر في الكتاب من النظر في احوال البشر ، في أطوارهم ، وأدوارهم ، ومشاشهم ، اختلاف احوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر) (١) .

القرآن الكريم (٢)

بحث في سبع وعشرين صفحة كبيرة على غمودين ، تناول فيه الأستاذ الخولي قضايا هامة سبق أن تناولها في محاضراته عن (تاريخ القرآن) . . فيما يتصل بلفظ قرآن ، ونزول القرآن وأسباب نزوله ، وأبحاث في النزول ، ولغة النزول ، وجمع القرآن ، جمع أبي بكر ، وجمع عثمان ، وكتابة القرآن ، وقراءته وترتيبه ، وتفسيره وان كانت (المحاضرات) لم يتم القول فيها . .

(١) مناهج تجديد - ص ٣١٤/٣١٦

(٢) دائرة معارف الشعب ج ١ ط سنة ١٩٥٩ م .

غير أنك لا تكاد تجد جديدا يذكر هنا إلا ما تناول من :

١/ يمكن تقرير خصائص فنية أدبية لكل أسلوب من الأسلوبين القرآنيين : المكي والمدني ، يتميز بها كل واحد منهما بتميز حال المخاطبين ، في كل عهد ، ومدى تهيئتهم النفس لما يلقي اليهم ، وتقبلهم له ، أو مقاومتهم إياه .. إلى جانب ما ذكر من اختلاف مجال القول في الدورين ، وإن أحدهما جدال واقناع ومناقشة ورد ، كما يكثر ذلك في العصر المكي مثلا ، والثاني تلقين وتوجيه وترغيب ، وتفصيل ، كما هو الشأن الغالب في العصر المدني ..

وكذلك تجد الخصائص المميزة للعصرين واضحة في - كل من فنون القول فيهما ، وحسبنا على ذلك مثلا القصص القرآني في العصرين ..

٢٠ تجد القصص القرآنية قد عرضت في العصر المكي عرضا يختلف اختلافا واضحا عن عرضها في العصر المدني ، من حيث نظم الآية وقصرها وطولها بل من حيث ألفاظها ومعدن تلك الألفاظ . ووقعها الصوتي ، ثم من حيث الإيجاز المختصر المركز ، تسلط فيه الأضواء على مشهد واحد قصير من أحداث القصة في مكة ، ثم الأسهاب المغاير لذلك في المدينة .. إلى غير ذلك من فروق يتبينها الدرس الأدبي ، المتخصص ، ويكشف عن روائع من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في القصص وحده) ..

اصلاح الأزهر

سبق بيان أن الأستاذ الخولى صاحب فكر عملى ، يحاول تجديد الوجود عن طريق تجديد الفكر والوجدان ، كما يربط القيم الروحية بالمتطلبات الحضارية ..

ومن كان هذا شأنه لا بد وان يشغل نفسه بتجديد الأزهر - متاح القيم الروحية ، فى بلادنا ، بل فى العالم الاسلامى كله - عن طريق تجديد النهم لرسالته ، ومكانته القيادية ..

وعلاقة الأستاذ الخونى بالأزهر ترجع الى صباه ، منذ نشأة جده على علوم الأزهر ، يعيش دنيا (المجاورين) ، رفاقه ، وأبناء بلده .. وحين احتال على جده ليفر من الأزهر ، متطلعا الى حياة منطلقة متحررة ، تأخذ بحظها من سمات المدنية وأبهتها - اذا هو يفر من الأزهر الى الأزهر ، يعيش صميمة ، ويحيا مشكلاته ، ويكون فى مقدمة المطالبين باصلاحه ..

فاذا كان هذا الفتى قد مال عن الأزهر ميلا فانه لم يخرج
عن وجود الأزهر في ثقافته وزيه الا بمقدار ..

فما أصاب من معرفة (الالهامية) و (القضاء) ، ومن زى
(الالهامية) و (القضاء) ومن أساتذة (الالهامية) و (القضاء)
لا يبعد به عن الأزهر ..

ثم .. اذا أصبح الفتى - وقد عاد من أوروبا ، وثقف لغتين
جديدتين - موضع تقدير الجامعة والجامعيين ، يفتح الأزهر بابه
لينال قدرا مما فتح الله به على هذا الشاب العائد المرموق ..

ولا يضمن الأستاذ الخولى بما يملك ، ولكن به يدل
بقدراته ..

فاذا كان قد قدم لطلاب مدرسة القضاء (كتاب الخير) في
الأخلاق والفلسفة ، وقد طرق هذا المجال من قبله أستاذ
وزميل ، فليدرس لطلاب كلية أصول الدين جانبا آخر من جوانب
الفلسفة يرفع به راية الى جانب ما رفع من رايات فنى المسرح
والتاريخ والصحافة الأدبية والعلمية والدينية والسياسية ، وفي
تجديد البلاغة والتفسير والدراسة الأدبية بالجامعة ، وهى مواد
بنائه ..

وأهدى محاضراته (كناش فى الفلسفة وتاريخها) سنة ١٩٣٤
(الى روح - الأستاذ الامام) ، لأن هذا الكناش (١) (أول
ما يدرس من الحكمة رسميا فى العهد الجديد للأزهر) ، وسماه كناش
(طماعيه أن يتلوه جهد مبارك فى الحكمة يحمى ثقافة الشرق

(١) كناش : لفظ بريانى معناه المجموعة والتذكرة ..

التالدة ، ويصون شخصيته الخالدة) فقد (كان أول ما نرجم
المسلمون من الفلسفة كناشأ ، انهم بعد ذلك الغيت الذي
اهتزت به الدنيا وربت) ..

ولما كان رأى الاستاذ الخولى (ان ما يكتب للآزهر . ويلقى
فى الأزهر ، يجب أن يتصل خاضره بماضى الأزهر ، ويعرض فى
صورة ما ألف اهل الأزهر ، وينسج على أسلوبهم الأول فى دقته ،
وادب بحثهم فى سلامته ، حتى يتهيا لهم الانتفاع الحق به) (١) -
فقد عرف بالفلسفة لغة واصطلاحا ، وبين موضوعها والغاية
منها ، وفرق بينها وبين العلم ، مبينا (ان النتائج الفلسفية
تؤثر حتما فى حياة الفينسوف الشخصية ، وتشكل سلوكه
على وفقها ، وتختط منهجه العلمى فى الحياة ، لأنها ثمرة قواه
النفسية المختلفة ، وأثر اتكيف نفسى خاص له ، فلا بد أن يكون
لها صدى عملى .. والعلم لا يلزم أن تؤثر نتائجه فى حياة
العالم ، أو تشكل سلوكه ، لأنها أثر البحث الاستقرائى
التجريبى ، والعقل المنطقى ، الذى لا مدخل له فى السلوك
العملى) (٢) ثم ذكر أقسام الفلسفة قديما وحديثا ، وانتقل
الى عرض سريع للفلسفة قبل اليونان ، وعند قدماء المصريين
خاصة ، ونوه بآثار الالهيات المصرية فى الأديان الأخرى :

(فالأديان السماوية كلها كالاسلام تقرر البعث والحساب ،
ووزن الأعمال ، وشهادة الجوارح ، والنعيم والعذاب الأخرى ،
وغيرها ، على نحو ما نراها فى الآثار المصرية مكتوبة موضحة ،
كما أن بعض العقائد والشعائر التى نراها فى المسيحية الحالية
توجد على صورتها وأصلها فى المصرية الوثنية ، فمن ذلك أن

(١) تاريخ املل والنحل ج ١ للاستاذ الخولى - طبعة مدرسية - ص ٥

(٢) كاش فى الفلسفة وتاريخها - طبعة مدرسية - ص ١١

الصليب المسيحي مثلاً يشبهه في شكله رمز الحياة عند قدماء المصريين ، وهو الرمز الذى يرى فى التماثيل المصرية فى أيدي الآلهة على صوالجها ، كما يرى على المقابر المصرية ، ومن ذلك نظام الرهبنة المسيحي ، أصله فى الوثنية المصرية التى كانت تعود رجال الدين على الاعتزال ، والخلوة ، للتوافر على العبادة ، ومن ذلك فى زى القسوس النصارى اتخاذ الملابس البيضاء عند إقامة الشعائر ، وفحص بعضهم عن أوساط رؤوسهم (١) .

وعلى ذلك (بأن هذه الديانة المصرية ، الأصلية فى مصر ، الناشئة فيها ، لا ينفى العلم أن تكون ذات أصل سماوى ، أعنى أن البحث التاريخى العلمى لا سبيل له إلى القطع بعدم وقوع ذلك ، والدين يشير إلى عموم هذه البعثات وشمولها بقوله تعالى : « وان من أمة إلا خلا منها نذير » ، فيستطيع رجل الدين - فى غير حرج أبداً - أن يقرر أن ما فى الوثنية المصرية إنما هو أصول صحيحة لوحى الهى تناوله التحريف والتشوية على مر الزمن ، وعلى هذا لا تكون الوثنية المصرية هى التى أمدت الأديان المتأخرة عنها ، بل الوحى السماوى هو الذى أمد المصريين بما اهتدوا إليه من أصول دينية صحيحة ووصف الآخرة صادق) (٢) .

ثم تحدث عن الفلسفة عند العبرانيين والآشوريين والكلدانيين والفرس والهنود ، وخلص إلى الفلسفة اليونانية ، محبداً الفكرة القائلة بأخذ الأفريق عن غيرهم لوجوه ، منها :

١ - أن الأسبقية الشرقية إلى الحضارة والمعرفة جملة لاشك فيها مطلقاً ، والظروف الزمنية والمكانية لأفريقا ناطقة

(١) المصدر السابق - ص ٣٩ .

(٢) كناش فى الفلسفة - ص ٤٠ .

بدلت ، بل اليونان أنفسهم يصرحون بذلك قولا ، بدء نطق الآثار المختلفة من صور حضارتهم بأصولها ومآخذها ، من مصرية وغيرها ...

٢ - ان هذه الفروق التي نسلم بها بين معرفة الاغريق ومعارف الأمم الشرقية القديمة ليست في الحق الا الأثر الطبيعي لتدرج الانسانية وارتقاء الدهن البشري .

٣ - أنسبا - دون فحص للأدلة أو موازنة بين حجج الطرفين - نجد وراء ذلك ناموسا قطريا عاما هو ناموس التدرج الذي يعمل عمله في الكائنات كلها مادية ومعنوية باطراد ، فلا يحتمل أن يشاء عنه شاذ في أى ناحية من نواحي الحياة الانسانية (١) .

وتناول المدارس الفلسفية ورجالها عند اليونان بالتفصيل ، بدءا من الأيونية الفيثاغورية والايلياتية والجوهرية الى السفسطائية ... سقراط وأفلاطون وأرسطو ... لكنه لم يتناول فلسفة أرسطو تناولا كاملا ، معذرا عن متابعة طبع الباقي لضيق الوقت ، (ولما قضيت به حاجة الدراسة) كما جاء في المقدمة .

وفي سنة ١٩٣٥ قدم لطلابه بكلية أصول الدين (تاريخ الملل والنحل) ... بداه بدعاء ذكى يشير الى مشقة الطريق الذى يسلكه :

(جنبنا يا حق زلل من زل ، وضلال من ضل ، ويسر لنا يا حق توفيق من وصل ، انك أحكم الحاكمين) ...

وجاء في المقدمة أن منهجه (ليس تاريخا فحسب ، يقوم به

الكتاب - ١١٠ - ٩٩ - ٩٨ - ٩٧ - ٩٦ - ٩٥ - ٩٤ - ٩٣ - ٩٢ - ٩١ - ٩٠ - ٨٩ - ٨٨ - ٨٧ - ٨٦ - ٨٥ - ٨٤ - ٨٣ - ٨٢ - ٨١ - ٨٠ - ٧٩ - ٧٨ - ٧٧ - ٧٦ - ٧٥ - ٧٤ - ٧٣ - ٧٢ - ٧١ - ٧٠ - ٦٩ - ٦٨ - ٦٧ - ٦٦ - ٦٥ - ٦٤ - ٦٣ - ٦٢ - ٦١ - ٦٠ - ٥٩ - ٥٨ - ٥٧ - ٥٦ - ٥٥ - ٥٤ - ٥٣ - ٥٢ - ٥١ - ٥٠ - ٤٩ - ٤٨ - ٤٧ - ٤٦ - ٤٥ - ٤٤ - ٤٣ - ٤٢ - ٤١ - ٤٠ - ٣٩ - ٣٨ - ٣٧ - ٣٦ - ٣٥ - ٣٤ - ٣٣ - ٣٢ - ٣١ - ٣٠ - ٢٩ - ٢٨ - ٢٧ - ٢٦ - ٢٥ - ٢٤ - ٢٣ - ٢٢ - ٢١ - ٢٠ - ١٩ - ١٨ - ١٧ - ١٦ - ١٥ - ١٤ - ١٣ - ١٢ - ١١ - ١٠ - ٩ - ٨ - ٧ - ٦ - ٥ - ٤ - ٣ - ٢ - ١ - ٠

الباحث مقام الواصف، لا نير ، بل فيه مناقشات ومقارنات ،
يبحث فيها ما يخالف المقررات الاسلامية ، أو يبدو فيه ذلك ،
من تفسير لمظاهر الحياة الاعتقادية الانسانية ، أو حياة ملة بعينها ،
أو نحلة خاصة ، أو بيان لمعتقد ، أو بحث عن أصوله ، أو ..
أو .. مما استطالت به اليوم يد العلم ، واستشرف الى سناوله
في جراءة تختلف باختلاف الكاتبين ، وتجاوز حدها في غير قليل
من الأحياء (١) ..

وبين أن (كتب الغربيين في ذلك انما كتبت لبلادهم في ثقافتها
وبيئتها وعقيدتها ، فلها ترتيبها وتناولها الخاص ، ثم هي بعد
ذلك لا تبرا في كبريات الملل - كالمسيحية والاسلام - من هوى ،
ولا تخلص من تناول أو تحامل ، تصبغه صبغة العلم ، وتفيض
عليه طابع الفحص النزيه ، وما هو به) (٢) ..

ثم أخذ في التعريفات : للدين لغة واصطلاحا ، شرقية
وغربية ، وللملة والنحلة والتاريخ كذلك .. ونوه بما انتهى اليه
التاريخ (من تحر في المصادر ، وتقد للمروى ، ومحاولة اعتماد
على الطريقة الواقعية الاختيارية ورجوع الى ما عرف من نواميس
الحياة الفردية والجماعية ، وما الى ذلك من صبغة علمية) ..

وأكد ما سبق أن ذهب اليه من تواصل معنوى (٣) .

ثم بين (أن تاريخ الأديان يخضع له تاريخ الحياة الانسانية
على اختلاف مناحيها المادية والمعنوية ، دون خروج ما على
نواميس الاجتماع المقررة أو اخلال بأصول البحث العلمى النزيه الحر ،
ودون اعتداء ما على قدسية الدين وسماويته وصحته) (٤) ..

(١) تاريخ الملل والنحل ج ١ - ص ٦

(٢) المصدر السابق - ص ٥

(٣) انظر ص ٨٩ من هذه الدراسة وانظر ص ٥٥ وما بعدها

(٤) تاريخ الملل والنحل ج ١ - ص ١٠

وتناول اليهودية قبل وبعد موسى ، مفصلا القول في كتبها
وفرقها وأحوال اليهود الشخصية ، وفي الدياسخ والمطاعم ، وفي
الخلفيات ، وفي نظم فرق اليهود ورؤسائهم . .

وعاد الى اليهودية أيضا في الجزء الثاني من كتابه ، مبينا
أصل التسمية ، والجذور الأولى لبنى اسرائيل ، ثم ، حدث عن
اليهودية كما جاء بها موسى ، متخذًا التواراة وسيلة الى ذلك ،
مقتبسًا منها الشواهد . . وبين الشعائر والعبادات في اليهودية
الأولى ، مختتمًا القول بنظرة ناقدة لها . .

وبهذه الدراسة توطدت صلته بالأزهر ، وازداد تعرفه اليه
حتى اذا انعقد مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس بمدينة
بروكسل - ما بين ١٦ و ٢٠ سبتمبر ١٩٢٥ ، - كان رسول
الأزهر الى المؤتمر مع الشيخ مصطفى عبد الرازق - الذي
أصبح فيما بعد شيخًا للأزهر - وقدم في هذا المؤتمر بحثه المبكر
(صلة الاسلام باصلاح المسيحية) (١) ، تعبيرا عن ايمانه
بعالمية الاسلام وقدرته على العطاء .

وفي سنة ١٩٣٦ م أعلنت حكومة علي ماهر عن مسابقة بين
الكتاب والمفكرين في موضوعات منها ، (رسالة الأزهر في القرن
العشرين) ، وقبل أن يعلن عن اختيار الأستاذ الخولى عضوا في
لجنة التحكيم ، كان الموضوع قد مثل بين يديه ، فأهدى بحثه -
بعد صدور الحكم - الى الأزهر ، الذي طبعه الطبعة الأولى ووزعه .

(١) انظر (مع المستشرقين) من هذه الدراسة

وقد وقف (الكاتب) عند عنوان (الرسالة) مداعبا :

(لماذا في القرن العشرين الميلادى ، وليس الرابع عشر الهجرى ، ولا العاشر القمري من حياة الأزهر) ؟

لعل هذا العنوان الرسمى يوحى الى الكاتبين عن رسالة الأزهر أن يقدروا تلك العوامل الهامة التى تصرف الحياة اليوم ، وتملأ الجو الذى يتنفس فيه الأزهر (١) . .

ثم بين أن الكاتب فى رسالة الأزهر سيتحدث عن نتائج ، ويشير الى غايات ، دون أن يعرض للمقدمات أو الوسائل ، ومن ثم ، فالأزهر من حيث هو بيئة اجتماعية ، رسالته (أن يحمى الروح القومية لمصر والشرق الاسلامى حماية عاقلة متبصرة متدبنة لا تقف عند القشور ، ولا تعنى بالتافه . .

وفى سبيل هذه الحماية يحتفظ هو لنفسه بالطابع المصرى الاسلامى ، ثم الشرقى النابع الذى لا يعوق الحياة فى تجدداتها المادى ، ونشاطها العلمى ، مقدرا نوااميس الاجتماع وقوانين الحياة ، غير واقف فى طريق شىء من ذلك ، أو معارض الا على أساس من النظر البعيد والوزن الدقيق (٢) . .

ومن حيث هو مركز دينى ، رسالته (حماية الدين ومحامده الاجتماعية ، حماية فعلية ، وتمكين الانسانية من أن تسعد بأثر هذا العامل فى الحياة ، ويكون ذلك بالتدبير المحكم فى التعريف بالدين ونشر الاسلام على يد رجال لهم الصفة الدينية المتميزة بين طبقات الجماعات البشرية فى خلفيتهم ، وأسلوب حياتهم :

(١) ص ٢ سنة ١٩٦١ - دار الهنا - ص ٥

(٢) المصدر السابق - ص ٨

حتى يكونوا صورا من القدرة الحيه في المشاركة العامة المترفعة
النبيلة الغالبة للشهوات ، السعيدة بالمعنويات (١) . .

ومن حيث هو معبد علمي : يبدو لي أن عدم تفرد الأزهر في
الخطوتين الابتدائية والثانوية من التعليم هو الأولى به وبمصر . .
لثلاث تكون الحياة الدينية بمعزل عن الحياة العامة ، فيشيع الشعور
ببعد التدين والمتدينين عن الحياة وفمازجتها ، ويظن ذو الرغبة الطامحة
في النجاح العملي أن ذلك لا يكون مع التمسك بالدين) ، على
(أن تكون له عناية أوفر بالمواد الشرعية والاعتقادية والخلقية ،
مما في المدارس الأخرى وأن تكون اللغة الأجنبية اختيارية
في الابتدائي والقسم الأول من الثانوي ، مع تمكين طالبه من أن
يأخذ شهادة اتمام الدراسة الابتدائية دون امتحان في اللغة الأجنبية
أو مع الامتحان فيها ، أو أن يأخذها بالصفين أن استطاع (٢) ،
وله بعد ذلك أن يواصل تعليمه في الأزهر ، و أن ينتقل الى غيره
من التعليم الثانوي أو العملي . . وأن يتميز القسم الثاني من
الدراسة الثانوية الأزهرية تمايزا أزهريا واضحا ، يقسم على
حساب تقسيم التعليم العالي في الأزهر فيكون كل قسم منه اعدادا
لقسم من الدراسة العالية (٣) .

(وتكون رسالة الأزهر العلمية ذات شقين :

(أ) * عملي هو : اعداد معلمى الاسلام ، الواعظين به ،
الناشرين له ، اعدادا حيويًا ، يلقي به الاسلام المسيحية .

(١) المصدر نفسه - ص ١١

(٢) لعله يقصد النجاح في اللغة الأجنبية وفي المواد الأخرى

(٣) رسالة الأزهر في القرن العشرين - ص ١٢/١٣

وعيرها من الأديان لقاء يؤيد الحق ويقره ، واعداد العارفين
بالشريعة الاسلامية مثل تلك المعرفة ..

(ب) ★ نظرى هو : تأسيس البيئة العلمية التى تكون مرجع
الشرق كله والغرب كله فى الدراسات الدينية والاسلامية ،
من عقائد وشريعة . بحيث يعرف بشهادة الأزهر
من الكلمة له فى هذه الدراسات ، ثم مشاركة الأزهر لأرقى
البيئات فيما هو أهله من دراسات تاريخية اسلامية وأدبية
عربية وفلسفية (١) ..

ومما هو بسبيل رسالة الأزهر ، ما عالجه الأستاذ الخولى
بعد ذلك خاصا بتعدد الثقافات فى مصر (٢) .. فبين أن مفهوم
الثقافة (تعديل الانسان وتقويمه ليواجه الحياة مواجهة الصالح
لها المدرك لنواحيها ادراكا صحيحا) .

و (الثقافة فى خططها وغايتها ترتبط بالمسألة الفلسفية
الخالدة (مسألة المعرفة) .. وتعدد الثقافات يرتبط بالرأى فى
هذه المسألة .

فالدينيون يرون (انكار قابلية الكون للتعليل ، وانكار
مقدرة الانسان على هذا التعليل والتسبب .. اذ انهم جميعا
ينفون الأسباب ، ولا يرون شيئا يكون سببا لشيء ولا شيئا
مسببا عن شيء ، والأسباب ليست الا أسبابا عادية ، ووجود
المسببات عند وجود الأسباب انما هو بخلق الله ، لا بتأثير
الأسباب ، والاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا ، وما يعتقد
مسببا ليس ضروريا) ..

(١) المصدر السابق - ص ١٤

(٢) مجله كلية الآداب - عدد مايو سنة ١٩٤٧ .

والمتفلسفون والعلماء يرون (أطراد وقوع الظواهر عن وقوع اسبابها ، وعدم تخلف ذلك مطلقا ، وعدم وقوعها عند عدم ما هو العلة الوحيدة لها ، كما هو قانون الطرد والعكس) . .

وبناء عليه فالمشكلة (مشكلة عقيدة وفكرة مخالفة للحقائق التجريبية الواقعية ، تترك أثرا نفسيا عريفا ، ينجم عنه خلق وسلوك ، ليس صالحا لمزاولة الحياة ، تواجه فكرة منتزعة من الحقائق الانسانية ، تترك أثرا قويا ينجم عنه خلق وسلوك ، صالح لمسيرة الحياة ، في عصر تقدم العلوم ، ومحاولة الانسان السيطرة على قوى الكون التي سخرها الله له ، وفي هذه المواجهه تتأثر الفكرة الصحيحة ، والخلق الصحيح ، بالفكرة غير الصحيحة والخلق الملتاث . . فلهذه الأولى ضررها على من تستأثر بهم من أبناء الوطن كما لها تلويينها لمن يتاح لهم البعد عنها وقد أزممت آثار هذه الحالة بفعل وراثه عنيدة مضت عليها أجيال متعاقبة ، وأخرت الشرق ذلك التأخر المخيف الذي كان يستعصى على العلاج ، ومشكلة هذا شأنها ليس من العجب أن نقول انها تتطلب علاجا حاسما) :

١ - تصحيح هذه الفكرة ، تقويم تلك العقيدة ، ويقوم به رجال الدين في تعليمهم العقائد ، ووضعهم كتبها ايجادا لأساس سليم . . .

٢ - أن تؤدي الدولة واجبها ، وتستعمل حقها في الاشراف على الحياة الثقيفية للأمة اشرافا منفردا ، مباشرا ، يتناسب مع مسئوليتها أمام ممثني الأمة ، ويحقق رسالتها في أعداد أبنائها اعدادا صالحا للحياة . .

فلا تشتغل هيئة ذات صفة دينية خاصة بالتعليم اجنبية كانت أو وطنية ، لأن سلامة هذه الهيئات - من خطأ الأساس في

ثقافتها - غير مضمونة .. وتوحد خطوات التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية لأبناء الأمة جميعا بحيث لا تتولى هيئة ما اعداد طفل أو غلام أو شاب ، وتكوين عقليته وخلفيته الا تحت اشراف وزارة التربية والتعليم في الدولة ، وبنظمها وتبنيها ومحاولاتها في النهوض بالأجيال الخالفة ، ولا يكون هناك تعليم ديني مستقل عن التعليم العام ، بل تتعد هاتان المرحلتان اتحادا تاما ، ويعلم الدين فيها بمناهج يضعها المختصون في كل دين من الأديان التي ترى الدولة تعليمها ، على أن يكون لوزارة المعارف الاشراف على هذه المناهج وعلى تنفيذها ومنفذها ..

٣ - ليس يكفي مطلقا ان يكون كل عملنا في اعداد المعلم هو التثقيف العام ، والخبرة بالمهنة ، بل يجب أن تكون شخصيته كلها موضع العناية الدقيقة ، لأنه ينفث في روح الجيل أنفاسه ويعدهم بدوقه ووجدانه ، كما يعدهم بهمة وارادته ، أو خموله وتحلله ، وهو قدوة يرمقها الناشئون بعين مقلدة قوية التسجيل ، ونفس شديدة التأثير) ..



ولم يبد من رجال الأزهر تفهم لدعوة الاصلاح هذه ، كما لم تبد معارضة لها ، على ما جرت عليه العادة من معارضة اصلاحه ، وانهم مصلحيه ، حتى اذا كنت رسالة (الفن القصصي في القرآن الكريم) ، ونشبت معركة الأحقاد والأهواء ، تبينت حقيقة موقف كثير من رجال الأزهر نحو دعوة الاصلاح وصاحبها ، فاذا اتهم بالكفر ، واستعداء السلطات من (جبهة علماء الأزهر) ومن أعضاء هيئة كبار العلماء ، ومن وكلاء اللغة العربية والشرعية ، أصول الدين ، وغيرهم وغيرهم .

كانت الفرصة لينتقموا لأنفسهم من هذا الذى أراد أن يحدث فى دارهم حدثا ، فأشعلوا النار ، ورقصوا حول ما توهموه جثة غريمهم .. فإذا هم - وقد استسلموا أخيرا لارادة التطور - قد كشفوا سوءات ، لم يتبينوها الا بعد ما انتقل الزمن الى الستينات ..

لكن الخصم العنيد القوى الشكيمة لم يكن ليترك دعوة آمن بها ، دون أن يؤرث نارها من وقت لآخر . وكان لابد من عرض القضية فى دائرة أوسع ليشارك الجمهور فى المناقشة أو يتابعها ويكون على بينة من مستقبل أبنائه فلا يقضى فى الامر دونه ..

وأفسحت جريدة (المصرى) صدرها للاستاذ الخولى ثلاثة أشهر ، يشرح فيها رسالة الأزهر الاجتماعية ، ويبين العلاقة بين (الدين والحياة) .. فما من انسان عاقل يستطيع أن يتقبل حياة بغير دين ، أو دينا بغير حياة - كما قالت المصرى فى مقدمتها لهذه الأحاديث : واصلاح الدين نفسه بالحياة هو ما يرنو اليه الأستاذ الخولى ، (حتى يكون مادة للتجديد الروحى والسمو الخلقى ، وشرعة واضحة للتدرج البشرى والتطور العالمى ، فيكون أداة فعالة فى الاصلاح الاجتماعى) ..

... (وبحسب الحياة أن تشعر بشباب الأزهر طلابا كبارا أو أساتذة يظهرون فيها متطلعين لأهداف ذلك التجدد والنشاط العملى ، وهم ذوو شخصية واضحة المعالم ، جليلة السمات المصرية ، الشرقية ، الإسلامية ، يؤمنون الشعب على أن مصريته وشرقيته واسلامه تتفق مع ذلك التجدد ، بل تقوده بتوجيه

مستنير قادر ، واثق ، يقظ ، متحكم في سير هذا التجدد ، مسموع الكلمة فيه ، كأشخاص من أهل الصفة الدينية في أقطار أخرى حول مصر

... (لقد قامت بمصر في ربع القرن الأخير حركة قوية لوصل الدين بالحياة السياسية ، ترمى الى أهداف اجتماعية بعيدة ، تتطلب جهدا عقليا ، وقوة نفسية كبرى ، وكان الأزهر بطبيعته ووضعه هو انقادر على أن يمد تلك الحركة السياسية الدينية البعيدة المرامي ، بذلك العمل العقلي العلمي الكبير ، وإن يمدّها بتلك القدرة النفسية الروحية الفعالة ، لتكون حركة (الإخوان المسلمين) (١) وأشباهاها حركة قادرة عقلا وفقها للدين ، وفهما للمجتمع على الاضطلاع بتلك المحاولة الكبرى . أن رأى الأزهر صلاحها لذلك ، فإن كانت الأخرى ، فالأزهر هو بطبيعته ووصفه القادر على أن ينبه هذه الحركة وأشباهاها الى ما يعوزها وينقصها ، وإلى ما تخطئ فيه ولا تهتدي .. ولا منر له من أن يرتئى هذه الحركة وأمثالها أحد هذين الرايين ، ولا يقف صامتا ..

ولقد امتحنت هذه الحركة امتحانا عمليا قويا ، في الميدانين السياسي والاجتماعي فماذا رأى الأزهر في هذه الحركة يوم سرائها وماذا رأى الأزهر في هذه الحركة يوم ضرائها ، وهل قدم الأمر لهذه المحاولة الاجتماعية الكبرى شيئا مما تطلع اليه من تبرير بالأمر القريب أن رسالة الأزهر الاجتماعية هي ما سمعنا من

(١) يقول الأستاذ الخولي أنه عرف الشيخ حسن البنا ، لكنه لم يشترك في جماعة الإخوان المسلمين باعتباره ذا فهم ومنطق ، ويريد الاستقلال الفكري بعيدا عن أي جمعية أو حزب .. وإن كان اشترك في جمعية الشبان المسلمين عقب تكوينها فلاحياه الرابطة بين الشعوب الاسلامية .

حماية الروح القومية لمصر والشرق الاسلامى ، ومتابعة تجديد الحياة وشاؤها العلمى ، مع تقدير نوااميس الاجتماع وقوانين الحياة ؟ (١) .

الأزهر فى حياة مصر الدينية ..

(هو الذى يحمى احساس مصر والشرق الاسلامى بذاتهما احساسا قويا واضحا ..

وهو الذى يحمى روح مصر والشرق الاسلامى خاصة ..
وهو الذى يحمى الذوق المصرى الشرقى الصالح ، ويحييه .
وهو الذى يحمى الفضائل العلمية المصرية والشرقية ويغرى الناس بها وهو الذى يحمى العادات المصرية المصرية الشرقية الصالحة للبقاء ، ويقف بها فى وجه العادات الغربية التى لا تلائم البيئة المصرية والشرقية ..

وهو الذى ينظر فيما تقتبسه الحياة من جديد ، ويتدخل فى هذا الاقتباس بتعقل ولباقة ، ليقاوم الضار منه ، على ضوء الهدى الاسلامى ، والخبرة الاجتماعية ، والفهم الجيد لشئون الحياة) .. .

والتدين الاسلامى المرجو اليوم :

(انه تدين انسانى القلب ، نبيل العاطفة ، يؤيد التعاون البشرى ، ولا يعوق الاخاء الانسانى ..

وانه ليس العصبية المقيتة ، المعتمدة الاق ، التى تحتقر الآخرين ، وتنزلهم من مرتبة الانسانية ، وتنكر صفتهم البشرية .

وانه تدين لا يعرف تلك السلطة الفاشمة التي ترهب العقل
الطليق ، وتفت في العزم الوثيق ، وتفسد الذوق الرقيق ، وتتحكم
بجبروت لاهوتي في حياة الدنيا ، وتسد الطريق الى الآخرة ..

وانه تدين لا يخلق تلك الطبقة التي تحتكر الدين ، وتسد
المسالك الى الله ، ولا يعترف بتلك الطبقة ان خلقتها الظروف ،
لانه لا رياسة في الاسلام ، وكلهم قريب الى الله سبحانه وتعالى .

ثم أشار الى رسالة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ
الجامع الأزهر الى مؤتمر الأديان العالمى المنعقد في ٣ يولييه سنة
١٩٣٦ م :

(فهى تحدثك عن زمالة عالمية يتعاون فيها أصحاب الأديان
جميعا ، تعاوننا حقا جادا على تحقيق أغراض معنوية ، وأغراض
عملية جليلة مسعدة للانسانية المعناة بالبغضاء والجهل والبؤس ،
فأما الأغراض المعنوية التى تسعى هذه الزمالة الانسانية لتحقيقها
فهى فى اجمال ازاحة العلل التى حالت دون تأثير الشعور الدينى فى
تقريب ما بين الناس ، وأما الأغراض العملية فهى - على الاجمال -
جعل التدين أداة فعالة فى تهذيب الجماعة . وتمكين العوامل
المعنوية التى تشترك فيها الأديان من التأثير فى الحياة الانسانية
الواقعية ، وتصيير الفضائل العلمية التى تدعو اليها الأديان كلها
للواقعية ، تصيير الفضائل العلمية التى تدعو اليها الأديان كلها
نظما عملية) (١) ..

(١) المصرى ٥/٦ سنة ١٩٥٢ م .

دفاع عن الأزهر في حياة مصر الدينية (للشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء)

(ان الأزهر ليؤمن بإصلاح الحياة بالدين ، وان البشرية
يمكن أن تسعد به ، وتبلغ ما قدر لها من سمو ، ولكنه لا يؤمن
بإصلاح الدين بالحياة ، لأنه يرى أن الدين صالح ، وليس فيه فساد
يصلح بشيء آخر ، وهو اذا سمع هذه الكلمة من صديق له يحسن
الظن به كالأستاذ أمين الخولي ، فانه يؤولها . ويرى أن مراده
بالدين ما ورد عليه من يدع وخرافات ليست منه ، ويراه العامة
دينا ، وليس بذلك يقف بأمتة عن التطور ومطابقة روح العصر ، لأن
في الدين قواعد عامة محكمة تسير التطور ، بل تدعو اليه ، وتصلح
لكل زمان ومكان ..

.. وان الأزهر بالنخبة المستنيرة من رجاله لبالغ بأمتة ما
قدر الله لها من سمو ورفعة ، وواصل بالانسانية الى أعلى مراتب
التعاون والاخاء ، اذا حسن الظن به ، وممكن له من أن يكون له
رأى في توجيه أمتة ، ووقاه الله كيد الكائدين ، وحسد الحاسدين
وتعويقي المعوقين) (١) ..

أهل الأزهر في حياة مصر :

(.. كان أصحاب العلم الديني عرضة للمحن السياسية
التي أصيب بها غير واحد من علماء المسلمين في العصور المختلفة
كما كان أصحاب العلم الديني عرضة للمحن النفسية ، اذ
لا تسعفهم قوتهم على تحقيق أمل الناس فيهم ، فيهنون في الجهر
بالحق ، ويضعفون عن دفع الظلم ، وهو ما لم تحتل العصور
المختلفة منه قليلا أو كثيرا ..

(١) المصري ١٩٥٢/٥/١ م .

... ثم تتغير ظروف الحياة ، وتدفع الحياة المصرية دوافع النهضة العلمية من الغرب ، فتتغير الحال تغيرا جوهريا ، ويتغير الشعور الدينى ، ويتغير التدبير العملى ..

وصار أصحاب العلم المجرب ، وأصحاب الحق المشرع هم قبلة الحياة ، ولم تعد الحياة ترى شيئا من صور أولئك الأبطال الأشياخ تجذب الأنظار إليها ، أو تشير الاهتمام بعلمها التجريبي ، أو فقها الدستوري ..

لذلك افتقد المفكرون الفئة التى تستطيع أن تقدم للناس الأثر الحيوى المجدى ، للتدين الصحيح ، المسير للتقدم ، فلم يجدوها ، وبالتالي لم يعرفوا مكانها بين فئات الأمة ، ووجدوا الأزهر أمامهم ، بكثرة وضجته ، وما يبدل من كثير الأموال فى سبيله ، فتساءلوا : ما رسالة الأزهر الدينية فى القرن العشرين ؟ (١) .

الأزهريون بين أبناء الأمة ..

.. (وتنظر فترى الناس قد صاروا من الشعور بالكرامة الفعلية فى مستوى غير الذى فى تلك العصور الوسطى ، أو مطلع العصر الحديث ، فقد جرب الناس ما جربوا فى الشرق والغرب من شئون الهيئة الدينية)

وقد عرف الناس ما عرفوا من طبائع الأفراد والهيئات ، ومنطقها النفسى وسلوكها الاجتماعى ، وبدأ لهم ذلك كله عاربا واضحا ..

ولم يعد الناس أولئك البسطاء السذج الذين ترهبهم الغيبات ، ويقودهم الاستواء ، وتتحكم فى عقولهم الأهواء ..

والناس بهذا المستوى من المعرفة والتجربة لا يعترفون
للفئة الدينية بإمكان فيهم ، ولا حرمة بينهم . إلا اذا وجدوا
مساسها بكيانهم ، وعملها في حياتهم ، وشهدوا من رجالها صنفا
متميزا من الناس ، يحيا حبا دينية صالحة ، واضحة الشخصية
بادية التأثير في وجودهم) (١) .

أهل الدين في الدنيا . .

... (أن تلك الحقوق الدنيوية لا تقوم ، ولن تقوم ، يوما
ما على شيء من الصفات اللاهوتية الغيبية ، أو السلطة الروحية
الخاصة ، تميز أهل الدين عن أحد من الأمة ، أو تجعل لهم فضلا
على أحد في ذلك ، فقد عرف التاريخ خطر هذا الادعاء قديما ،
من منتحلي هذه السلطة ، وزاعمي هذا التمييز ، فلم تسم اللجنة -
لجنة شكلت للنظر في هذه الحقوق المادية . كان الأستاذ الخولي
عضوا فيها - هذه الفئة رجال الدين ، بل سميتهم الدينيين ، أو أهل
الدين ، لا أكثر ، لأن الاسلام لا يعرف تلك الطائفة المنفردة بسمه
أو تسمية) (٢) .

الأزهريون بين الدين والحياة . .

.. (أما أن تكونوا شيئا متميزا ، له طابعه الديني ، وخلقه
الديني ، وسلوكه الديني ، يقدم للحياة خيرا بالدين ، واما لا) (٣)

(٢) المصرى ١٩٥٢/٥/١٩ م .

(٢) المصرى ١٩٥٢/٥/٢٦ م .

(٣) المصرى ١٩٥٢/٦/٢ م .

الأزهريون بين أبناء الأمة .. للشيخ محمد عرفه

.. (العدل يقتضينا ان نعترف بأن كل شيء في مصر يحتاج الى الإصلاح ، وبحسب أحدنا أن يترك مكانه في هذا الوجود خير مما كان ، وذلك لايفتضينا ان نفرد الأزهر بالعيب ، وأن نصوره في أبشع صورة ، بل يقتضينا أن نكون عادلين ، وأن نذكر خيره ، وننبه على ما فيه من نقص ، ولذلك وضعنا رسالة الأزهر في القرن العشرين (١) .

الأزهر في الحياة .. من زاوية الى معهد

(بمناسبة زيارة هلين كيلر لمصر)

... (كنت أرى قريبا غير بعيد أن يوفد الأزهر الى الغرب من يحمل الى مصر جديدا من الرياضة العلمية والنفسية ، لاونك البصراء ، تكويننا لشخصياتهم ، واحتفاظا بقواهم ومواهبهم ، في تلك المعاهد العلمية والعملية الخاصة بهم ..

.. وكنت أرى قريبا غير بعيد أن يطبع الأزهر المصحف الشريف بطريقة (بريل) وأن يطبع ما عداه من كتب العلم كذلك .

.. ولذلك اقترحت منذ زمن بعيد أن تصير زاوية العميين بالأزهر معهدا كبيرا يتولى به الأزهر شئون هذه الآلاف في مصر (٢)

(١) المصرى ١٩٥٢/٦/٢

(٢) المصرى ١٩٥٢/٦/٥

رسالة الأزهر الدينية

ردا على الشيخ محمد عرفة

.. (نعيًا الشيخ من أن يرى احتياج كل شيء في مصر للإصلاح معفيا الأزهر من اللوم أو معتذرا له عن نقص وهو دارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإهماله جنود ذلك .. والنقص لا يشفع للنقص أبدا ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » (١) ..

الأزهريون والتوجيه الديني ..

بعد أن نفى عنهم المشاركة في الوجود المتطور ، على أساس من التوجيه والريادة وعدم التمثيل بأمثال ابن تيمية وابن القيم ووقوفهم من كل جديد موقف الإنكار والإسراع إلى التفكير ، قال :

.. (فما هو إلا أن تتجه الحياة اتجاهها ، بفطرة الله التي فطر الناس عليها فتأخذ ببعض أسباب التجدد الحيوى ، وتأخذ في ذلك طريقها ، ويشعر الأزهريون بعد فوات الأوان جدا بذلك التجدد ، أو يدفعهم إلى الشعور به دافع ، ويحرضهم عليه محرض ، فيتصايحون مفكرين ، وينشدعون صاخبين لاعنين ، ويجارون مكفرين ، وما تناولوا الأمر بشيء من حكمة تصيب الحق بالعلم والعقل ، ولا أدوا الرأي بموعظة حسنة مؤثرة مستهوية ، تعطف القلوب ، ولو جاءوا الخلاف يجادلون يالتي هي أحسن « لأن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » (٢) ..

(١) نصرى ١٩٥٢/٦/٩

(٢) النصرى ١٩٥٢/٩/١٦

.. يبدو أن جرح « الفن القصصى فى القرآن » ما يزال
ينزف !!

أمين الخولى بين الأزهر والجامعة

بيان من جبهة العلماء بالأزهر ..

.. (اعتاد الأزهر الشريف أن يسمع من حين لآخر أفرادا يحاولون أن ينالوا منه ومن رجاله ، وكأنما سولت لهم أنفسهم أن تعلقهم بهذا الجبل الأشم يلقى فى روع الناس أن لهم شأنًا ، أو عندهم رأيا ، أو فيهم غيرة على حق ، أو غضبا لدين ، أو حرصا على صالح عام ، ولكن هيهات ، فهم : كناطع صخرة يوما ليومنها) (١) .

الأزهريون وآفات التوجيه الدينى ..

(من هذه الآفات :

١ - أن قصدهم النفسى الى هذا التوجيه ليس بارثا من الشوائب ولا خالصا من الغايات المدخولة ، فسبيلهم فى هذا التوجيه والبيان سبيل غير قاصدة وتناولهم له غير مستقيم ..

٢ - سيادة روح التحكم فى فضل الله ونعمه ، والاستبداد بدين الله وهدايته فاذا أفتوا فقولهم هو رأى الاسلام ، واذا حكموا فحكمهم هو حكم الله ، واذا خالف عليهم السان فهو يحارب الله ، وما لأحد أن يطبق ويخرج ، أو يقرأ ويظفر بمنسى أو متروك ، كلا .. كلا ..

(١) المصرى ١٩٥٢/٦/٢٠ .

٣ - فتور صلتهم بالحياة ، وعدم معرفتهم الكافية لما
يجرى فيها .. ولا أقول الحياة العامة ، في آفاقها العالية
الفسيحة ، بل أقصد الحياة المصرية الخاصة ، في دائرتها
المحدودة (١) ..

رد جبهة علماء الأزهر ..

ان الأزهر يؤدي الرسالة على خير وجه بدليل أن :
الناس اليوم - وقد عرفوا قيمة الدين والتدين - يتطلعون
الى الأزهر في كل موقف ليسمعوا كلمته ، ويتأثروا خطواته ..
أما عن الأستاذ الخولى :

(فالشيخ بعدما انقطع عن الأزهر ، وكشف موقفه من
القرآن الكريم في الجامعة يريد الآن أن يلبس رداء النصح ، والا
فأين كانت هذه الحماسة الإصلاحية أيام كان هذا الشيخ يعمل في
الأزهر ، ويبالغ في اطرائه ، فلما صار بعيدا عنه ارتد بخاصة
ويعاديه ١٩ (٢) ..

الأزهريون واصلاح الحياة بالدين ..

أخذ الأستاذ الخولى على الأزهر موقفه من (الجمعية
الخيرية الاسلامية التي أنشأها الشيخ محمد عبده ، وقال في
(هيئة كبار العلماء للدعوة الى سبيل الله) ،

.. (جد جدى - وكنت فيهم أشغل بجهدى المتواضع

(١) المصرى ٢٣/٦/١٩٥٢ م .

(٢) المصرى ٨/٧/١٩٥٢ م .

فى التهيئة لهذه الهيئه الموعودة . التى استهلّت صارخة ، بئداء
أرسلته فى الصحف ، وهيأت به الاعلان المرجو ، ثم سقطت ميتة ،
فكفنت بلفائف الصحف التى دونت فيها نظمها وقوانينها ، وكانت
لفائف عريضة فسيحة الأرجاء ، بعيدة الآمال الواهمة . . وغفر
الله للموتى من أصحاب المناورة ، ورحم الأحياء منهم ، والمخدوعين
بما كان .

ثم أشار الى عدم وجود عملى لجمعية الدفاع عن الاسلام .
وقارن بين رجال الدين عندنا وبين المبشرين . . ثم قال :

(أين هذا من ذلك . . ان تلك المنشآت ليست صورا من
القرون الوسطى تتبع الطرق البالية ، والأساليب الفانية ، بل هى
توجيه عقلى حيوى ، وتدبير دينى جبار ، بين المعاهد الدينية
الأزهرية وبينه مسيرة خمسمائة عام (١)) .

ويواصل الأستاذ الخولى معركة لاصلاح الأزهر - بعد
سنوات فى مجلة (الأدب) ، فاذا هو يسخر من التطور الذى
يهدف اليه رجاله :

راحوا يتشبهون بغيرهم ، ويحشرون انفسهم فى سواهم .
هربا من طابعهم ، وبرما بشارتهم ، وامتهانا لرسالتهم . . فما
يحاولون الا اقتباس نظم ليست لهم ، ولا يلبسون الا ثوب زور ،
لم يفصل لجسمهم وهم على ما سمعت سيمنحون اليساس ،
والماجستير ، والدكتوراه ، فان تكن أسماء بلا مسميات فهى مهزلة
ساخرة ، وسخرية بالغة . . وان تكن على شرارها عند الآخرين
فماذا يكونون هم ؟ وأى مكان لهم بعد ذلك فى الحياة ؟ وأى
رسالة ؟ . . (٢)

(١) المصرى ١٩٥٢ / ٧ / ٢١ م .

(٢) محلك سر . . الأدب - فبراير ١٩٦١ .

كبار من العلماء ..

ويحصل الأستاذ الخولي على رجال يحترفون الدين الذي
دستوره القرآن - معجزة العربية الكبرى - ومع ذلك تجد لغة
القرآن غريبة على السنتهم :

.. (أتى يوم كنت أؤدى أمام أولئك المشيخة امتحان
التعيين في علومهم : التفسير والفقه والبلاغة والتعيين عندهم درس
يعين موضوعه قبل أيام ويؤدى بين يدي أكابرهم ، من شيخ الاسلام
وءفت وشيخ معهد ورئيس محكمة ، ومن في مستوى هؤلاء ..

وقد قررت - لمعرفتى بحالهم هذه من الوقوف عند العامية -
ان تكون حيلتى انما هي ان أؤدى التعيين بالعربية الفصحى ،
الطلقة ، المتفاصحة ، فلا يكادو يلاحقوننى فهما وتعقبا ، ولا
يوشكون ان يطرحوا اعتراضاتهم التقليدية ، المقررة في حواشى
الموضوع وتقريراته ، لأنهم لا يحسنون ذلك بالفصحى الصحيحة
ولا يسهل أن يؤدوها بالعامية ، وأنا أؤدى بالفصحى الصحيحة .
وحتى لو سألوا بالعامية لأجبت بالفصحى .. ويسعنى اذا غيرت
عبارات الكتب ان أطمئن الى أنهم لا يديرون واياى حجاجا بغير
ما ألفوا من عبارات ..

وكان ما قدرت ان يكون ، فغير الالتقاء بالفصحى جوهم ،
وغير الرد بالفصحى على اعتراضاتهم جو فهمها .. فلم يجدوا
فرص اللجاج المتشعبة بجدل عقيم ..

وأولئك كبار من العلماء ، وهذه حالهم في التعبير بالعامية
عن حقائق حكمتهم الفخمة في تقديرهم !!) (١)

(١) تجارب فنية في حياة بيرم - الأدب - مارس سنة ١٩٦١

أزهر ... أو ... لا أزهر ...

وبصدد تطوير الأزهر ، يبين لنا الأستاذ الخولى أن اهتمامه بهذا التطوير يرجع الى فترة امامته للبعثة الدبلوماسية المصرية في كل من روما وبرلين :

فقصدت الى دراسة الخطط والأساليب التى تتبع فى الدراسة اللاهوتية ، كما نظرت فيما حولى ، من الدولة الدينية القائمة فى عاصمة الدولة المدنية بايطاليا وطال تتبعى لهذه الدراسات اللاهوتية فى أقطار أوروبية عشت فيها بعد ذلك كالمانيا - أو أقطار زرتها مجرد زيارة ، وعمدت بعد الدراسة والتفكير للكتابة عن قضية الأزهر واصلاحه وتطويره (١) .

ثم يحدثنا عن شخصية الأزهر المرجوة ، القائمة على (تدين لا سلطة فيه ولا كهنوت) .

تمكيننا للانسانية من أن تسعد باثر هذا العامل على يد من هم قدوة حية فى المشاركة العامة المترفة السعيدة بالمعنويات ، التى تفقه من الدين لبابه ، وتحيا بروحه (٢) .

وحياتنا لا تتطلب من الأزهر الا (شخصيته المسجدية) .

... وانزعم (أن تظفر الحياة بدعاة اسلاميين ، يكونون أطباء ومتحدثين فى الدين ، يرتادون تلك المناطق البدائية ، فيبلغون من أهلها مبلغا ، بفضل نزعهم العلمية ، اذ يطبون ويدعون معا ،

(١) أزهر ... أو ... لا أزهر - الأدب - يناير سنة ١٩٦٢ .

(٢) كذا ... ولعل اللفظ (حوله) والخطا مطبعى .

على غراز طوائف التبشير الأخرى .. أهون من أن يطور على أساسه معهد كبير ، وماض طويل ، وتاريخ حافل .. لأن هؤلاء الدعاة الأطباء أو المهندسين أو الزراع سيقولون قوى من أصحاب الأديان الذين مرنوا على التبشير ، وخبروا الحياة فى هذه المناطق ، وكانوا فى هذا ذوى خبرة عالمية ، تسند لها دراسات علماء متخصصين ، متفرغين ، لحياة هذه المناطق وطبيعتها ، ولغاتهما ، وكل ما يتصل بحياتها وحياة ما فيها ومن فيها ، ونحن نعرف أن الكتب الدينية المسيحية قد ترجمت الى لهجات هذه المناطق بعدما خدمت تلك اللهجات ، ووضعنا أصول كتابتها ، اذ كانت لم تصل بعد الى مرحلة الكتابة ، وهذا طرف يمثل الجهد الجبار الذى تقوم به المقدرة الغربية ، فى دراسات هذه المناطق .. فهل نلقى هؤلاء بأشخاص لاهم علميون خلص ، ولا هم دينيون خلص لئلافسهم على كسب مناطق ، لهم فيها تلك الأقدام الوطيدة وتلك الدراسات التى نحتاج نحن الى مثلها ، فى خاص شئوننا ، وجنين تاريخنا ؟ ! .

(ان مبعوثى الشعوب الاسلامية الى الأثرى يعودون لبلادهم غير قادرين على عمل حيوى لقومهم ، أو يهربون أثناء وجودهم هنا الى دراسات أخرى ، غير الدراسات الاسلامية .. فكان هذه التطور من أجل امدادهم بمعارف حيوية ، مع التعليم الدينى ، ليكونوا فى بلادهم أنفع لها ، وأجدى عليها ..

.. واذا كانت الحياة الدينية فى بلادهم على مثل ما رأيتها ، فى غير بلد من بلاد الشرق الأقصى ، من التدهور والتحلل ، فلن يستطيعوا أن يصنعوا لها خيرا بهذا الخلط الذى لا يخلصون معه لدين ولا لعلم ..

والأمر فى التكوين العلمى ، والاعداد الدينى ، أعمق من

أن يؤخذ مختلطاً ، وينال جملة ، كما ان الأمر فى التبشير أحوج الى قوى نافذة ، وجهود أصيلة ، تسندها دراسات وخبرات المناطق التى نحسب أنه لايزال لها فيها مجال ارشاد أو مطمح دعاية . . .

اذن . . (لابد أن يسير هذا التطوير فى الاتجاه الذى رسمته الحياة للأزهر ، أى : الاتجاه الدينى ، السامى المثل ، الانسانى الثقافة ، الاجتماعى المنزع ، على نحو ما وصف خطوطه الكبرى فى رسالة الأزهر .

. . والاعتماد على الشخصية المادية والاجتماعية المستقلة للأزهر ، بكيانه ومائه ، وتقاليد ، وعاداته كذلك) .

وأن تكون (الدراسة العليا فى الأزهر متميزة متطورة) ، تقتصر على كليتى : (الدراسات الانسانية والدراسات الاسلامية) ولن تكون تلك الدراسات تكراراً للنظام الجامعى فى مصر . وزيادة لصنف من الخرجين موجود) . . .

. . . (ان قسم اللغات والآداب فى كلية الدراسات الانسانية بالأزهر سيتخرج فيه أصحاب دراسة عليا ، لن يمكن مع وجودهم أن يتأستد فى الأدب من لا يحسن قراءة آية من القرآن ، فضلاً عن فهمها . . و . . يكون قسم للتاريخ وآخر للفلسفة . . لن يتأستد مع وجود خريجيه من لا يستطيع أن يقرأ صفحة واحدة مفهومة من تاريخ الطبرى أو كتاب الواقف مثلاً . .

وكلية الدراسات الاسلامية فى الأزهر تدرس الاعتقادات بعلمها ، وفلسفتها ، وتدرس العمليات بأصولها وفروعها ، ويكون لها فى هؤلاء الطلاب الذين صنعهم الأزهر على عينة ما لن يوجد فى دراسة بكليات الحقوق أو غيرها من جهات تدرس شيئاً عن هذا الاسلام . .

والى جانب الكليتين معاهد تمتص المتخرجين فى كل مرحلة من الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وتدريبهم لعمل تحتاجه الحياة ، وتكفى فيه ثقافة المرحلة التى أتموها .. فىكون معهد البصراء الذى سيأخذ فى أمر المكفوفين بأقوى وأبعد ما أخذت تلك المعاهد فى الدنيا الحية المتطورة .. ومعهد القراء بعد مرحلة التعليم الابتدائي ومعهد التوثيق والأعمال القضائية بعد الاعدادية . يخرج مسجلين وكتابا للمحاكم ومحضرين .. ومعهد الشعائر الدينية بعد الثانوية لتخريج من يقيمون الشعائر الدينية فى المساجد ، وعلى ان يكون الدعاة والمرشدون مرحلة بعد ذلك من خريجي الكليات ..

وبهذا يكون التطوير .. وبدون تغيير تضيع معه معالم الطريق ولا يكون معه أزهر بشخصيته الخاصة .. ولا أزهر بلا شخصية ، بل يكون تكرار لما عندنا من جديد الجامعة الذى لم تستقر له على الجادة اليوم قدم (١) ..

تعدد الثقافات تصديع اجتماعي ..

جاء فى الأهرام - ١٦/٨/١٩٦٤ - (لاول مرة فى تاريخ الأزهر سيقوم بإنشاء « ٢٥ » مدرسة ابتدائية جديدة ، لقول الأطفال من سن السادسة واعتمد لهذا الغرض مبلغ ٧٢٧ ألفا و ٥٠٠ جنيه) ..

فكتب الأستاذ الخولى متعجبا ، أنساير التطور ، أم نساوئه ؟ !

... (طالبت فى رسالة الأزهر - منذ ثمانية عشر عاما - بعدم تفرد هذا الأزهر فى خطوتى التعليم الأولى والثانية ، لأن

(١) ازهر . أو لا ازهر - الأدب - إبريل سنة ١٩٦٢ .

هذا من خير الأزهر نفسه حتى لا يكون رجله الذى يتحدث الى الأمة صاحب عقلية منفصلة عن عقلية الدين يتحدث اليهم ، وصاحب نظرة الى الحياة تختلف عن نظرتهم ، وهو بذلك صاحب خلقية تختلف عن خلقيتهم ، فلا يكون بينه وبينهم تلاق ، ولا يرجى من عمله فيهم خير أو حسن أثر ..

وأصل من هذا كله وأجدى ، الدقة فى اعداد المعلم المثقف ، اعدادا يضمن حسن فهم الحياة ، وسلامة منطقها فيها ، ونظراته اليها ، فلا يكون صاحب أوهام ، ولا قابل خرافات ، ولا متلمس خوارق .. ومهما تكن صعوبة هذا الاعداد الصالح للمعلم ، فان أثره فى الحياة ، وعمله فى اعداد الأجيال يبرر احتمالها ، بل يوجب قبلها ، والعمل على تحقيقها ...

.. () فهل هذا الأزهر بمشيعته المنفصلة عن جامعته لا يزال شيئا له صفة خاصة ١٩ أو هو مجال من مجالات نشاط وزارة التربية والتعليم ١٩) (١)

مع المستشرقين

سبق أن شكا الأستاذ الخولى من الرياسات الدينية التى تتخذ الدين تكأة لألوان من الحكم الاستبدادى الفاسد ، وسيلة لايجاد (طبقة تنتفخ كروشها ، وتتورم عمائمها ، وتزعم أن حكم الله عندها ، وكلمة الاسلام حكرها ، وحماية الاسلام مهنتها ، فلا يكون افرادها أسودا الا على مسلم أو شرقى رجا الخير ، وابتغى البر ، ففكر وعبر ، أو تململ فتحرر .. أما حين يكون المتكلم مبشرا أو مستشرقا أو متكلم غريبا ، فلا غناء عندهم ، ولا خير فيهم ، ولا هم أصحاب فكرة تفرع فكرة ، ولا أصحاب لسان يقدم بيانا) ..

وكان واجبا عليه - وقد أحس من نفسه القدرة - أن ينهض بما نكص عنه هؤلاء ، وبخاصة أن المستشرقين يتناولون القضايا الاسلامية من وجهة نظر علمية ، سواء أكانت خالصة أم مشوية ، والنظر العلمى هو طريق الأستاذ الخولى الى التجديد .. وإلى ذلك فالتناول الدينى لا يتوفر الا بالفهم السليم للقرآن الكريم ، وهذا الفهم ليس سهلا على من لا يتذوقون العربية ، وإن عرفوها ، فحس العربية وإدراك أسرارها شىء ، وتعلم ألفاظها

وإدراك مراميها الظاهرة شيء آخر .. والأستاذ الخولى داعية التفسير الأدبي والبلاغي القرآن الكريم .. والقضايا الإسلامية لايتأتى تشخيصها منتزعة من بيئتها المادية والمعنوية ، وأبناء البيئة أنفسهم أقدر الناس على التفاعل معها وحس العوامل المؤثرة فيها ، كما يرى الأستاذ الخولى ..

ومن أجل هذا كله عمض لأقوال المستشرقين - على علم بهم عرض عالم يقظ أمين : يصحح فهمهم للإسلام ، ويؤكد فكرته في التجديد ..

وعنده بالاستشراق والمستشرقين يرجع الى العقد الثانى من حياته ، منذ أخذ يدرس التاريخ العربى الإسلامى ، وأعيان مجرى الأحداث ، متأملا الروابط التى ربطت بين الشرق والغرب مدركا أثر الثقافة العربية الإسلامية فى النهضة الأوروبية ..

وقد غالج الصورة الأولية لما ترسب فى وجدانه عن الصلة الثقافية بين الشرق والغرب فى مسرحية (ابن العمدة .. حين جعل أحد جدودنا يلتقى بأحد رواد أعالي النيل - بعد إبادة حملة (هكس) - ويسافر معه الى أوربا ، يعلمه العربية ويلتقى بالحياة الجديدة .. ثم يعود فى صورة مستشرق (١) ..

وفى مسرحية (الراهب المتنكر) قص علينا من أخبار الراهب (جلبوت) - سلفستر الثانى - حين ذهب الى الأندلس مع الملكة (طوطة) ملكة (بسبلونا التى قدمت على (عبد الرحمن الناصر) تستعين به لتجهيز جيش يحمى عرش ابنها المريض من ابن عمه الذى طمع فى الملك بعد موت زوجها ، والراهب يستعين بالقائد (سعيد ابن المنذر) فى طلب العلم بمساجد المسلمين (٢) .

(١) ص ١٧/١٦ من الحديث عن نشأته .

(٢) أنظر مجلة الأدب - عدد يناير سنة ١٩٦٩ م .

كما حدثنا في مسرحية (سفير الرشيد) عن بعثة الرشيد
الى (شلمان) تحمل الهدايا . وتقوم بالسفارة وتطلع على شئون
الروم (١) . .

ومع نضج شبابه . . عالج هذه الصورة - على نطاق أوسع -
في بحثه عن السياحات الاسلامية (الذى قدمه لمدرسة القضاء
الشرعى عام (١٩١٥ - ١٩١٦) م فى كراستين كبيرتين ، مبينا وسائل
المواصلات بين المسلمين والعالم وحياة السائحين فى اغترابهم ،
وانواع السياحات الاسلامية ، وذكر أشهر السائحين المسلمين .

واقترب من ميدان الاستشراق أكثر حين كتب بحثه
المدنية العربية فى صقلية (مبينا (تأثير الاسلام فى صقلية ، منذ
الصدر الأول قبل فتحها) ، وعرض للحضارة العربية الاسلامية
فيها ، الى ما بعد سقوط دولة العرب ، منوها برعاية (روجر)
النورماندى للثقافة الاسلامية ولعلماء المسلمين . .

وأثناء سفارته الدينية بروما وبرلين ، قوى اتصاله بحركة
الاستشراق ، من خلال الايطالية والالمانية اللتين اتقنهما ، ومن
خلال اتصالاته الشخصية . .

فلما تناول الأستاذ اسماعيل مظهر الحضارة العربية
والعقلية العربية بالاتهام والقدح - على صفحات المقتطف - عرض
له الأستاذ الخولى ، مبينا أصالة العقلية العربية فى الميدانين العلمى
والفنى ، وفضل العرب على أوروبا مستدلا بما وجد فى ديار
القوم (٢) . .

(١) ص ٢١ من الحديث عن نشأته .

(٢) ص ٤٣ ، ٤٤ نشأته .

صلة الاسلام باصلاح المسيحية

وفي عام ١٩٣٥ م (دعى الأزهر - في عهد الشيخ محمد مصطفى المراغي ، لخضور مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس المنعقد بمدينة بروكسل (١٦ - ٢١ سبتمبر) وقد اختار الأستاذ الخولي موضوعا لبحثه (حادث الاصلاح البروتستانتي في المسيحية) . فكتب في هذه الرسالة بحثا عن الصلة بين هذا الحادث وبين الدين الاسلامي والعلوم الاسلامية) (١) . .

ونوه الشيخ المراغي بهذا البحث - حين قدم له - قائلا :
(موضوع طريف وبكر - فيما اظن - ويبدو كأنه غريب ، لكن الأستاذ الخولي بما منح من رجاحة العقل ، ودقة البحث ، وسعة الاطلاع - استطاع ان يزيل هذه الغرابة ، وأن يمهّد الطريق للوصول الى رأى صائب في الموضوع) (٢) . .

. . (وهذه الدراسة التي حاولها الأستاذ في هذه المسألة خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين ، في دراسة الأديان دراسة مقارنة ، فهي تعين على أداء رسالة الاسلام ، وتوسع أفق العالم والمتدين ، وتزيده بصيرة في دينه ، وتقديرا لعلماء السلف من المسلمين) (٣) . .

. . (ولا يجوز لي أن أختم القول دون اظهار اعجابي بسعة اطلاع الأستاذ الخولي ، وقوة صبره على الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه) (٤) . .

ولقد استعان الأستاذ الخولي في بحثه - الذي لا يتجاوز

(١) صلة الاسلام باصلاح المسيحية - ص ٥

(٢) المصدر السابق ص ١٤

(٣) المصدر نفسه ص ٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٧٩

خمسا وستين صفحة - بأكثر من خمسة وثلاثين مرجعا ، أكثرها بالعربية والايطالية ، ومترجمات الى العربية والايطالية ..

وكتب البحث بالايطالية - كما يشير الى ذلك ص ٧٨ - ثم بالعربية .. ومضى في موضوعه على غير سابقة .. (لقد كنت أبحث ، متمنيا أن أجد من صرح بهذا الاقتباس في الشرق أو في الغرب ، لأشعر بنصرته للفكر ، ثم أمضى في بيانها وتأييدها . فلم تصل يدى الى شيء من ذلك) ..

ولكن (هذا الموضوع يشغل فكرى منذ نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى روما ورأيت نسخة من ترجمة القرآن الكريم ظهرت حوالى عهد الإصلاح الدينى ، وقيدت ذلك فى مذكرات علمية محفوظة) ..

وقد حرص الباحث كعادته - على أن يكون بحثه سهلا التناول : حسن تنظيم ودقة عبارة .. فعرض فى (الفاتحة) لأهمية بحثه ، ونوع الدراسات قبله عن الاتصال بين المسيحية والاسلام ، وما يقصده من مفهوم الاسلام واصلاح المسيحية ، ومنهجه فى ذلك الدرس الذى يعتمد على الاتصال المادى والمعنوى بين الاسلام والمسيحية فى أوروبا ، وآثار ذلك الاتصال فى أفكار الإصلاح المسيحى ، وآراء دعاة ، خلال أزمنة طويلة ...

وبين أن أظهر مظاهر الاتصال المادى تتمثل فى :

١ - مواجهة حربية سعى فيها الشرق حينما الى الغرب ، والغرب آنا الى الشرق ، فى غارات منظمة ، وأعمال عصابات قوية ، وحروب صليبية ..

- ٢ - اسرى يطول مقامهم ، ويتأثرون فكريا ، ودينيا ، وعمليا .
٣ - استعانة الغرب بالمسلمين فى جنده ، والشرق بالمسيحيين .
٤ - تداخل الحدود ، ووجود ما يشبه الجاليات الأجنبية من الجانبين ..

٥ - اتجاه الدعاية السياسية الى النواحي الدينية فى محاولات لتوهين القوى المعنوية .

٦ - تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقدير الصلح ، وتوطيد العلاقات .. وفى هذه الوفود رجال الدين يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية التى كانت تجرى عند التقابل ..

٧ - تبادل المد والجزر بين الفريقين ، كان يترك فلولا ، بل جموعا تطويها الغلبة السياسية والحربية ، فتصبح عناصر تلقيح، وطرق تعريف بالاسلام ..

٨ - مطالب السياسة تدفع رجال الحكم الى توثيق الصلات بأسباب التردد المختلفة ، ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الدينى ، ويهيىء التفاهم القريب ..

٩ - كما سعى رجال السياسة بعضهم الى بعض سعى رجال الدين، بغية نشر الدين ، وكسب الاتباع ..

١٠ - وراء ذلك الحياة المدنية العادية التى لن تخضعها للعزلة المواصفات المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادثتها ، بل تسيرها الروابط الاجتماعية والمصالح الاقتصادية القاهرة ..

وفى الوقت الذى كانت تجنب فيه الأمة الاسلامية الى الاستقرار ، لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا خلال المدة من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى كانت الحياة الاجتماعية والعقلية ، بل الدينية فى الغرب غافلة هامة .. وكان الدين المسيحى قد صار الى بدع بربرية ، واكثر رجاله جهلة لا يستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع ..

وبدا الاتصال المعنوى بين الدينين عن طريق :

١ - التعلم من مسلمى الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتشقف فيها الخاص والعام ..

٢ - محاولة نقل المعارف الى أنحاء أوروبا ، وأصبح للترجمة دوائر منظمة يؤديها ملوك فى أنحاء مختلفة من أوروبا .

٣ - حينما قويت حركة التعلم والنقل العلمى كان انتشار اللغة العربية فى أوروبا مظهرا له قيمته فى درجة الاتصال بين الاسلام والمسيحية الغربية ..

٤ - قامت فى أوروبا حركة مقاومة للاسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية والعبرية ، لاجراج مبشرين ضد الاسلام ..

٥ - نقل اليهود الثقافة الاسلامية الى أوروبا ، حين هاجروا من اسبانيا الى الشمال ، لأسباب سياسية ، أو اجتماعية ، مختلفة ..

٦ - لم يلبث الغربيون ان درسوا فلاسفة الاسلام جميعا ، بحيث صارت فلسفة العصور الوسطى اسلامية القيادة ، وهذا يؤهل فى غير شك للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ..

٧ - كان بين اللاهوتيين المسيحيين في الشرق والغرب رجال عرفوا الاسلام معرفة غيريسيرة الشأن ، ولاساذجة ، فاطلعوا على معارفه الدينية ، وناقشوا فيها ، وجادلوا أهلها ، ولم يكن (ريموند مارتن ق ١٣) يعرف القرآن والسنة فحسب بل كان يعرف كبار العلماء من رجال الدين الاسلامى وعظماء فلاسفة الاسلام ..

٨ - لآراء ابن حزم في نقد الفرق الاسلامية ، والتوسل بالأولياء ، والمذاهب الصوفية ، وادمحاب التنجيم - اثر كبير على رجال الدين المسيحي ، عن طريق أسبانيا الاسلامية ..

٩ - كان لفردريك الثانى وميوله الشرقية العربية ، بل الاسلامية وصلته بألفونس الحكيم ، والبرت الكبير - اثر كبير في البيئة الألمانية بخاصة ، وهى التى كانت ميدان معارك الإصلاح العلمى للمسيحية في دوره التنفيذى ..

وقد ترتب على هذا كله نتائج عامة في الحياة الدينية والعقلية الأوربية ، من حيث مظاهرها في تدين أهلها ، وفهمهم للدين ثم ما ترتب على هذا كله من نتائج خاصة في الإصلاح المسيحى نفسه ، وآراء القائمين به ، وما دعوا اليه من افكار ، وناضلوا في سبيله من مبادئ ..

(على أنا حين نفسير هذا الاتصال ، وذلك التأثير ، لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الإصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ودينية وغيرها ، قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعنت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلغنتها الى النواحي العقلية والدينية التى قربها لها ، وقدمها بين يديها ، ذلك الاتصال السالف بالشرق الاسلامى) ..

وكانت المظاهر العامة لهذا التأثير في حياة المسيحية بالغرب :

- ١ - الغض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها على الحياة .
- ٢ - تحرير العقل ..
- ٣ - الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ..

ومن الآثار الخاصة :

- ١ - رفض السلطة الكنسية ، سواء أكانت ممثلة في البابا أم في المجمع والنقد الاسلامي لهذه السلطة الكنسية قوى شائع حتى ليتمثل في أناشيد العصور الوسطى .. وأعظم عيب عاب به النصرانية هو عيادة البابا . ومسألة الاعتراف ..
- ٢ - يكفي للنجاة تصحيح العقيدة فالنجاة منحة من الله يتلقاها كل انسان من ربه رأسا دون توسط الكنيسة ، اذ لا واسطة بين الله والناس (لوثر) .
- وقول ، ابكهارت الألماني : (كان الروح الانسانية نفخة من الأزل ، وشرارة الهية ، فلا ينبغي أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصال بينهما مباشرة - يتصل بعلم النفس الديني عند الغزالي ..
- ٣ - ان كلمة (الله) هي الضابط الوحيد ، فالسلطة انما هي للكتاب المقدس وحده . وينبذ كل ما هو خارج منه من آراء المجمع والآباء والتقاليد ..

والبحث في منشأ هذه الفكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقه في تاريخ التشريع الاسلامي عامة ، وتاريخ الحياة العقلية في الأندلس بخاصة .

٤ - ان لكل مسيحي الحق في تفسير الكتاب المقدس ، (وليس من القليل الاثر في هذا ما عرفه الفريسيون ، المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى فى الاسلام ، من نظام التفسير عند عامة المسلمين لكتابهم المقدس وتحكم الأصول الدينية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحد بعينه فى ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة ، يتلقى منها التفسير) ..

٥ - الاعتقاد بوجود المسيح فى القرآن الى جانب الخبز والنبذ ، دون أن تكون استحالة حققة .. وانا لنجد ما (يبرر الاطمئنان الى استنتاج أن الفكرة فى وجود المسيح عند مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلا الى جسده ودمه ، قد تأثرت بفكرة أن المسببات يخلقها الله عند وجود أسبابها لا أن توجد بها نفسها ..

الفكرة هى الفكرة ، والنزاع يشبه النزاع ، والمتنازعات هما العقيدة والفلسفة . والتوفيق الاسلامى دينى يريد ارضاء الفلسفة والتوفيق المسيحى فلسفى يريد أن يفهم الدين ، أو يرضيه ، والتوفيق الغربى متأخر عن التوفيق الشرقى لوقت طويل) ..

٦ - ابطال الصور ، ورفعها من المعابد ، بل وصل الأمر الى تدنيسها وتحطيمها .. ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على ابطال عبادة الصور ، والعلاقة بين (ليون الثالث) مكسر الأصنام والذى أقلق سلام الكنيسة ، وأظهر الفكرة فى عنف - وبين الاسلام والمسلمين علاقة وثيقة ..

(واذا كان الأستاذ (الفريد جبوم) يقول بعد ما تحدث عن تراث الاسلام فى الفلسفة والالهيات مانصه : وسوف ترى - عندما تخرج الى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية - أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجمل شأنًا

وأكثر خطراً ، مما عرفناه حتى الآن - فاني لأقول .. سوف نرى - عندما تتجه الرغبة العلمية الى درس هذه الصلة بين الدينين في نزاهة واخلاص - أن اثر الاسلام في حياة أوروبا الدينية لا يقل أبدا عن أثره في حياتها الفلسفية والعلمية والفنية) ..

ومن هذا الاتصال الراسع بتاريخ الاستشراق وطبيعته . وموقف المستشرقين من التراث الاسلامي ، يقف الأستاذ الخولي على أرض صلبة - يحق حقهم ويبطل باطلهم .. تملك ثقافة غنية ممتدة في القديم والحديث ..

دائرة المعارف الإسلامية

ومنذ بدأت ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، والاستاذ الخولي يتابع ما كتب المستشرقون فيها بالتعليق والنقد .. كتب مادة (أصول) يوسف شاخ (١) ..

فعلق الأستاذ الخولي على ما جاء في هذه المادة يقول (٢) :

(كنا - ولا نزال - نرى أن أنفس ما يقتبس عن الغرب في الدراسات الشرقية والإسلامية ، إنما هو أساليب البحث العلمي وطرائق النقد الدقيق الحر المنتظم ولكننا نشهد بين الفينة والفينة أن تلك الأساليب وهاتيك الطوائق تلتوى وتضطرب بين أيدي رجال من المجلدين فيهم فلا يكاد يصلحها الا ملحظ دقيق قد جرى عليه المشاركة في دراستهم لتلك الشئون ، التي هم أهلها الأولون ، وأولو الرأي فيها ، كما سنشهد في مواضع النظر من هذه المادة)

وعلق على قول الباحث : (ان المسلمين لم يشكوا في قلة

(١) ص ٢٦٥ وما بعدها - المجلد الثاني .

(٢) ص ٢٦٦ وما بعدها ٢٠

ثبوت القرآن وتنزهه عن الخطأ ، على الرغم من امكان سعى الشيطان لتخليطه) ، ويستشهد لذلك بأية ٥١ - ٥٢ في المصحف الملكى من سورة الحج ، ولا يزيد على ذلك ، بل يحيل على تاريخ القرآن لنولده - .

علق بذكر حديث (الغرائيق) الذى جاء فى تفسير (الطبرى) سببا لنزول الآية ، وقال ان قصة هذا الحديث (قديمة الوجود كما هى قديمة النقد ، تولاهما العلماء بالهدم ، منذ عهد محمد بن اسحق فى القرن الثانى الهجرى ، الى عهد الاستاذ الامام محمد عبده فى القرن الرابع عشر ، ونالوه بصفوف من التوهين العاطم ، وأورد ما جاء فى ذلك نقدا للسند والمتن ، ثم أضاف (أن الآية مع ذلك كله لا تكون شاهدا على هذه الدعوى فى امكان سعى الشيطان لذلك ، لوجوه :

١ - ان الآية - على أن هذا سبب النزول ، وعلى فرض تخليط الشيطان على الأنبياء - ليست حديثا على تخليط حصل لنبي الاسلام ، ولا فيها اشارة اليه ، والى هذا يشير أبو حيان ..

٢ - أن معنى الآية - مع تسليم هذا السبب ، وتوجيه تفسيرها بمقتضاه انما هو أن ما يقع من التخليط الشيطاني مؤقت لا يلبث ان ينسخه الله ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ، فهو امكان مؤقت لا يترك أثرا ، فلا يتجه مع هذا الاستدلال بالآية على امكان التخليط ..

٣ - أن الذين فاتهم نقد هذه الآية من المفسرين ، وكبروا فى هذا المقام ، كالزمخشري والطبرى ، لم يجدوا فى هذا غضاضة ، بل عدوا المسألة كما ورد فى الآية محنة وابتلاء ..

.. فليست مع تسليم هذا التخطيط كله فى سبب النزول

المزيف حجة لا مكان سعى الشيطان لتخطيط القرآن تخليطاً ينقض على المسلمين القول بقطعية ثبوته ، ولا لهذا شيء من الاحساس الذي يجعل عالماً يلقيه حجة مسلمة ، وقولة مفروغا منها ..

.. (يقول الكاتب : ان النبي قد نسي عدة آيات من القرآن ، وهذا لا يتفق مع دعوى المسلمين أن القرآن وصل إلينا من غير تحريف ، ويستشهد لسميان الرسول عدة آيات من القرآن بآية « ١٠٠ » من سورة البقرة ، ولعلها ليست الآية ١٠٦ في المصحف الملكي ، وهي « ما تنسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير » .. كما يحتج لذلك بآية ٦ من سورة الأعلى ، وهو ولا شك يريد آيتي ٦ ، ٧ من هذه السورة وهما « سنقرئك فلا تنسى ، الا ما شاء الله ، انه يعلم الجهر وما يخفى » ، وهو احتجاج واضح الدخل ، واليك اجمال القول في بيان ضعفه ، وسوء حاله) ..

عن الآية الأولى :

١ - في آية « ما ننسخ من آية أو ننسها .. » قد فسرت الآية بالمعجزة وما يؤيد الله به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم ، وهو من معنى الآية لغة ، ويقويه جد التقوية ختم الآية بان الله على كل شيء قدير ، والتعقيب بأن له ملك السموات والأرض ، وأن لا ولي من دونه ولا نصير ، ثم القول في ارادتهم أن يسألوا رسولهم كما سئل موسى من قبل في الآيات والدلائل المؤيدة والمعجزات .. وهذا الرأي في تفسيرها هو الذي ارتضاه الأستاذ الامام ، وأوضح أوجه تأييده له ..

٢ - أن كلمة « ننسها » في آية البقرة فيها أكثر من إحدى عشرة

قراءة .. وفيها عدة معان ، فهي بمعنى التأخير ، أو بمعنى الترك ، أو من النسيان المعروف .. وإذا كانت الكلمة تتحمل هذه المعاني ، فكيف تحكم الكاتب فجعلها للنسيان فقط ، وطوى هذا في استشهاده واحتجاجة ؟ !

٣ - أنها ليست شاهدا مطلقا على دعواه أن النبي نسي آيات ، وأخل هذا بصيانة الكتاب عن التحريف ، لأن الكلام في انساء الله إياه ، لا في نسيانه هو ، وانساء الله الآية كعدل إيجائها ، وهو بالنسيان بعد ذلك يؤدي رسالته ، أما لو أراد الله إبلاغها فنسيها ، ولم يؤدها ، فهذا هو المحرف للوحي ، وليس هو المذكور في الآية ..

٤ - أنه - على أبعد التنزيل والمسايرة ، ومع فرض قصر الكلمة في الآية على « تنسها » بناء الخطاب ، وهو أبلغ ما يطمع فيه المستشهد - على هذا كله لا تشهد الآية على وقوع النسيان ، ولا على الإخلال بصيانة الكتاب عن التحريف .. وكل ما تفيد حصول الجواب أن حصل الشرط ، لا وقوع الشرط فعلا .. - ثم إن - الآية على عكس ما يريد الأستاذ - شاهدة - بفرض أن هذا تفسيرها ، وعلى كل هذا التنزل والتسليم - على عناية زائدة بمراقبة التبليغ . وإصلاح شأنه ، فكيف جعلها الكاتب شاهدة نسيان وتحريف ؟ !

عن الآية الثانية :

إن أبي إلا قصرها على معنى النسيان ، فالاستثناء منه - إلا ما شاء الله - قد فسر بأنه استثناء غير حقيقي ، وذلك لأوجه منها :

١ - أن الاستثناء إنما هو لإظهار قدرة الله ، وإن عدم نسيان الرسول منحة من الله - له وتفضل يؤيده به .

٢ - أن هذا الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار ، فهو استثناء في صلة الكلام ، وليس ثم شيء أريد إخراج . .

.. على أني أختصر الطريق . فأقول لكاتب المادة : لتكن الكلمة من النسيان بمعنى عدم الذكر لا غير ، وليكن استثناء حقيقيا قصد به إخراج شيء فمع ذلك كله لا شاهد في آيتي الأعلى على وقوع النسيان من الرسول فعلا ، ولا على الإخلال بصيانة الكتاب من التحريف ، وبيانه على نحو ما أسلفنا في آية البقرة أن كل ما ذكرت إنما هو أن الرسول لا ينسى إلا بمشيئة الله ، لا أنه نسي فعلا ، فإن نسي بعد ذلك فليس ذلك نقصا فيه ، وليس لنسيانه أثر مادام ذلك بمشيئة الله . .

.. (ويرى الكاتب أن وقوع النسخ في القرآن يتعارض مع قطعية ثبوته ، وهذا مالا يظهر وجهه ، وإذا كان لما تعلق به الكاتب أنفا من التخليط والنسيان شبه من شبهه ، فليس يظهر شيء من ذلك في النسخ ، إذ هو كما سبذكر ليس إلا تدريجا في التشريع على وفق ناموس الترقى الذي يسود الكون ، وليس لمساس النسخ بقطعية الثبوت وجه إلا أن يكون الذي قيل قديما من لزوم البداء ، أي ظهور شيء كان خافيا على الله ، وتلك شبهة واهية ، وقد مل القول فيها كذلك ، وواضح رد القدماء عليها بأن ذلك النسخ لم يكن إلا اتباعا لمصلحة الخلق لا تغييرا لعلم الله . .

.. على أنه كان يجب على الباحث العصري أن يقدر أن طوائف من المسلمين المتأخرين قد أنكروا جواز النسخ ، وفسروا الآيات المقول بنسخها تفسيراً لا يتوقف على القول بالنسخ ،

وفيه الكثير من الدقة ، وهذا الرأي مبسوط في كتب التفسير كما هو مبسوط في كتب الأصول التي اتصل بها كاتب المادة ، ولا بد .

.. (ويحكم الكاتب بأنه لم يكن قصد الرسول عليه السلام خلق نظام أو وضع أصول هذا النظام على الأقل الخ .. وهذا الحكم على القصد غريب في حساب المنطلق العلمي ، مهما يكن للأستاذ من قدرة على تبين النوايا والمقاصد) .

ويمضي الأستاذ الخولي في بيان موقف الرسول والصحابة من التشريع ..



.. وجاء في نقده للمستشرق الإيطالي « كايثاني » صاحب (حوليات الاسلام) :

يقول كايثاني : ما من أحد شغل نفسه بنقد النص نفسه . ان المحدثين والنقاد والمسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسنة الى ما وراء الاسناد ، بل يمتنعون عن كل نقده للنص .. الخ) ..

ويرى الأستاذ الخولي أن أشياء كثيرة من عمل المحدثين تبطل هذا القول منها :

١ - ما أسلفناه من صريح قولهم في عدم ربط السند بالمتن ، وذكر أشياء تؤثر على المتن ، بعد صحة السند ، كالشذوذ مثلا .

٢ - أعطائهم الحديث ألقابا اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم الحديث (بالشاذ) أو (المقلوب) ، أو (المضطرب) أو (مدرج المتن) ، أو (المحسرف) أو

(المصحف) . . ونحو ذلك من أسماء لا مرد لها الا اعتبارات
فى المروى نفسه ، يتبين فى علم الحديث دراية . .

٣ - وضعهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية الى حد بعيد
وتقوم حيناً على اعتبارات عقلية صرفة ، وحيناً على معان
أدبية فنية ، وحيناً تعتمد على مقرارات شرعية . .

٤ - أنهم نقدوا المتون الحديثية بالفعل نقداً مطبقاً على الأصول
النظرية السابقة التى قرروها ، ومن حسن الاتفاق أن قد
سبقنا لذلك كله أمثلة من نقد المتن فى التعليقة الأولى من
تعليقنا على هذه المادة ، وهى الخاصة بما يروى من سبب
نزول آية « ٥٢ » من سورة الحج . .

أفبقول (كاتبانى) بعد هذا لهؤلاء انهم لم يجرؤوا على
الاندفاع فى النقد الى ما وراء السند ، أو يقول (شاخت)
انهم أخفوا تقديم لمادة الحديث وراء تقديم السند ؟ !

... وجرى قول (كاتبانى) وأمثاله فى أسلات أقلام شرقية
فقال الأستاذ أحمد أمين أنهم (عنوا عناية بالنقد الخارجى ، ولم
يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلى) وأنهم (لم يتوسعوا كثيراً فى
النقد الداخلى) ج ٢ من ضحى الاسلام ح ١٣٠ / ١٣١ .

واغفل ما يستحق الملاحظة الهامة من اعتبارات ، منها :

ان علم الحديث علمان : علم الحديث دراية وعلم الحديث
رواية ، والأول هو علم أصول الحديث ، وهو المراد عند الإطلاق
وهذا مع عنايته بالسند لم يخل من نقد المتن . .

. . على أنه يجب قبل الحكم على هذا النقد للمتن فى الأمور
الدينية ان يلاحظ ما يأتى :

١ - ان نقد السند خطوة أولى بطبيعتها ، اذ ليس للشهادة قيمة
الا من الثقة بالشاهد ، والرواية والشهادة صنوان ..

٢ - ان ما يمس الأمور الدينية لا يرجع في نقده الى أساليب
التجربة والتحليل لأن طبيعته لا تقبل ذلك ولا تمكن منه ،
فهو يمس أمورا غير مادية ، وقد ينتهى الى غيبي وغير
منظور ..

وكتب الأستاذ الخولى بحثا مطولا في (البلاغة) (١) ، حين
توجد أن ما كتب في دائرة المعارف ليس ذا غناء .. خط فيه
منهجاً لدراسة البلاغة ، مبتدئاً باللفظة والجمله والفقرة ، الى
فنون القول الأدبي المنظوم والمنثور ، رابطاً رسوم المدرسة الأدبية
الأولى وآثارها وكتبها بكل ما في دراسة الفنون من أساليب
مجدية ومناهج مستحدثة ، مهملاً الدراسة الفلسفية
المستعجبة (٢) ..



.. وكتب (يول كرواس) مادة (التحريف) (٣) .

وعلق عليها الأستاذ الخولى ببيان ما يقع فيه المستشرقون من
أخطاء .

وما ينبغي لتحري الصواب ، ثم تعرض لما جاء في البحث
من تهجم على شخصيته الرسول ، وعلى القرآن ، ومن دفاع عن
العرب .. ونقض مفهوم التحريف عند الكاتب ، اذ رأى انه تغيير
المكتوب تغييرا يبدل المدلول الأصلي (ويبين أن (استعمال القرآن

(١) المجلد الرابع العدد الاول أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

(٢) خلاصة ما كتبه في مكانه من هذه الدراسة عن البلاغة .

(٣) المجلد الرابع ص ٦٠٢ .

نفسه وهو أصل البحث في المادة - أوضح دلالة على عدم التقيد بالكتاب، إذ لم ينص على التحريف في مكتوب مطلقاً، مع أنه قد ذكر التحريف في المسموع ، ففي البقرة ٧٥١ « يسمعون كلام الله . ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » ، وفي النساء : ٤٦ . « يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا » وهكذا لا يظهر له معتمد في تخصيصه التحريف بأنه تغيير المكتوب (١٠) .

وعلق على بحث (ارنديك) في (السلام) بقوله (١) :

(قدم الكاتب معنى المادة قاصراً ، لم يف فيه بحق المنهج اللغوي القديم ولا يحق المنهج اللغوي الحديث) . .

. . (وهذا الاقتصار على ما ورد من معان ، مع ورود غيرها في المادة ليس انصافاً للتفكير الاسلامي ، ولا وفاء بالمنهج اللغوي عند أهله ، فانهم لايسوون بين معاني الصيغ المختلفة من المادة الواحدة ، بل يخصصون كل صيغة بمعنى في تفريق دقيق فلا يستوى عندهم معنى السلامة والسلام والسلام . الخ . بل يقدرون ما لاختلاف المباني من أثر في اختلاف المعاني - كما يقولون) . .

. . (وأما عدم وفاء الكاتب بالمنهج اللغوي الحديث ، فلأنه لم يبحث عن المعنى المادي الأول ، والمداول الحسي الأسبق للمادة ، لينتقل منه الى تدرج معانيها ، وتطور مدلولاتها ، مستصحباً ما أحست اللغة لمادة (السلام) منذ بدأت في القديم استعمالها اياها في الماديات ، فيدرك بذلك ما تثيره اللفظة من أحاسيس ومشاعر ، في وجدان أصحاب تلك اللغة ، يجدونها قوية نافذة حين ينتقلون من المعنى الحسي الى الاستعمالات المعنوية ، ثم التجريدات الذهنية . .

والنظرة الباحثة عن المعنى الحسى الأول لمادة (السلام) تهدى الى أن السلام شجر ليس بذى شوك ، يكون أبدا أخضر ، يستظل به الظباء ، ولها فى ظله جمال يحدث عنه الشعراء - لسان العرب مادة س ل م .

واذا ما كان هذا الشجر كما ترى دائم الخضرة ظليلا فهو اصلح للدلالة على الرمز للسلام الحديث من فصن الزيتون ، الذى يرمزون به الآن للسلام .

وفى هذا المعنى المادى الأول للسلام من الإيجاء الفنى ، والآثار النفسية الطيبة ما سرمت منه المادة بصورتها التى قدمها بها الكاتب . .

وعلق على ماكتب (لبنى دلافينا) فى (السيرة) (١) .

تعليقات جزئية خاصة بما أورد الكاتب من طعون فى السيرة وكتابتها ، والتأثر بالكتابات الدينية السابقة ، والتواريخ البهلوية وفى المغازى وصلتها بأيام العرب ، ومحاولة النيل من مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم وشخصيته وفهم الصحابة لرسالته . .

وأورد تعليقا عاما قال فيه (٢) :

١ - ربط رواية السنة بعامة وفواعدها فى ذلك ومناهجها برواية السيرة بخاصة ، وما فيها من مواضع ضعف الرواية ليثب من ذلك الى مهاجمة طبيعة رواية الحديث ، وسوق ما لدى المستشرق الايطالى (كاتيانى) من قوى الهجوم

(١) المجلد الثالى عشر ص ٤٤٤ .

(٢) المجلد ١٢ ص ٤٥٥ .

على الرواية الاسلامية .. وما اجتمع حولها من قصص
نسجت على منوال القصص اليهودية أو المسيحية ، وربما
الارانية ..

وفي هذه الخطة الواضحة من الكاتب أخلال كبير بالمنهج
السليم للبحث ، يتجلى في غير جانب من جوانب المنهج ..
(ا) اخفاء الحقيقة عن عمد ، أو على أقل تقدير ، الاخلال بواجب
الاطلاع على أمور مشهورة سائرة في هذا المقام وهو الرجل الذي
اطلع على ذلك الحشد الكبير من كتابات قومه قديما وحديثا ..

(ب) ويتم هذا الاخفاء للحقيقة عدم رواية الاتهام الاسلامي القديم
للسيرة بقوته ووضوحه .. واخفاء المشهور ، وتوهين
المنقول يهدم أساس كل منهج للبحث ، ويذكر بواجب الأمانة
العلمية ..

٢ - تناقض الكاتب في المادة التي قدمها هو .. فبينما تراد يربط
هذا الربط الوثيق بين المغازي والسيرة ليهاجم ضعف
رواية السيرة أصلا ، فيهاجم رواية السنة كلها تبعا ..
بينما ينجم ذلك من عمله ، اذا بك تراه يحدث هو نفسه عن
النقد الحديثي وقوته ، وضجره الشديد برواية السيرة

فقيم اذن هذا العناء في ربط السيرة أو المغازي بالسنة .
وتعزيز وحدة قواعدهما ومناهجهما ، وبناء السيرة على الاسناد
الذي هو قوام الطريقة المتبعة في الحديث ، مادام فقهاء علم
الحديث المستمسكون بأصول السنة يحكمون هذا الحكم العظيم
الأهمية ، المفرق بين الحدث العقائدي الخالص تفرقة واضحة ؟

٣ - ان كاتب المادة يقول عن اصحاب مدرسة المدينة - حيث
كانت الغيرة الدينية في المحافظة على ذكر النبي تضطرم في
نفوس اهل المدينة - الدين مال بهم التقى عن السبيل الذي

كان ينبغي أن تسير فيه حياة النبي ، مستعينين في ذلك
بشتى التوقيفات الفقهية ، وبالأصول الداخلية ، فلا نجد
للحوادث التي رووها سنداً من الرواية التاريخية ..

.. يقول الكاتب هذا مقدار العوامل الاعتقادية النفسية
وأثرها ، فنسمع له ونصفي ، لكننا لا نملك إلا أن نذكر حديثه عن
العالم الجزويتي (لا منس) فنخشى عليه مثل الذي خشيه هو
على علماء المدينة من التقى الذي يميل عن السبيل .

وكتب (شاخت) مادة (الشريعة) ..

فعلق - على ما جاء فيها - بقوله : (أ) ان المادة عرضت
في أضيق الحدود ، وعنى فيها بأشياء يسيرة الأهمية .. (وما
عرض له الكاتب من الشؤون الكبرى ، كالعلاقة بين الشريعة
والحقيقة ، لم يأخذ ما هو جدير به من البيان بل جاءت عباراته
القليلة قاصرة موهمة للاشتباه)

.. (والدراسة القانونية العصرية تعنى بجانبين من البحث
العلمي ، هما : الدراسة التاريخية ، والدراسة المقارنة .. فكان
الأمل أن تتبعه العناية في كتابة مادة (شريعة) الى هذين الجانبين
فيكشف فيها عن مكان الشريعة الإسلامية بين شرائع العالم ، من
وضعية ودينية ، كشرعية المصريين ، وشرعية البابليين ، وشرعية
اليونان ، وشرعية الرومان ، وشرعية الهنود ، وغيرها من القديم
والحديث كما يوصف تطور هذه الشريعة التي تنشأ في الجزيرة
العربية ، ثم عاشت واستقرت في مواطن الحضارة المختلفة ، من
مصرية وفارسية وأغريقية ورومانية وغيرها ، وأن يكشف البحث
المقارن بين الشريعة الإسلامية وأخواتها عن المبادئ القانونية فيها

ومقاطع الحقبوق ومناشئ الواجبات ، وصورة العدالة ، وأمثال
لهذه الجوانب ، تعرض هذه الحقائق في حالة تليق بالعصر ،
وبمستوى من تصدر عنهم هذه الموسوعة ، وتلفتنا نحن الى
جوانب ينبغي أن توجه اليها عناينه ، .. وهي الصورة التي لانزال
نحتاج الى جهد يتعاون عليه ضليع في تاريخ القانون ، مع قدير
في الفقه وتاريخه) ..

.. (ذكرت) المادة ان الشريعة هي المحكمة الظاهرة ، وانها
لاتناول موقف الانسان أمام المحكمة الباطنة .. وكان عرض
هذه المسألة الكبرى موجزا جدا ، وموهما حتى يظن الظان انه
انكار للعمل القلبي في الشريعة ، مع ان النية التي بها قوام العمل
في الشريعة انما هي عمل قلبي !! ولو قد أسعف البيان في المادة
لأتضح ان النية عند الصوفية هي : ما يصحب الفعل من باعث
نفسى ، ومقصد خلقى .. واما النية عند الفقهاء فهي ما يسبق
الفعل من عقد العزم على أدائه .. وبهذا يتضح ان الشريعة محكمة
ظاهرة ، وان المحكمة الباطنية هي محكمة الصوفية) ..

ثم بين ان الكاتب لم يتناول النزاع بين الصوفية والفقهاء
وأثره الذي قد امتد الى الحياة الاسلامية السياسية والاجتماعية
العملية ، ومس العقائد في شهادة الوحدانية نفسها ، وفي الرسول
والأنبياء والملائكة والثواب والعقاب والجنة والنار ، كما مس
التشريع من حيث طريقة الفهم لمصادره العليا ..

(هذا .. وليست الشريعة الفقهية العملية هي العنصر
المميز للتفكير الاسلامي ، ذلك التفكير الذي كانت له جولاته
الفلسفية العامة ، وله ميدانه الخلقى النظري والسلوكي ، وله
من الميادين مالا يفهم معه هذا القول بأن الشريعة هي العنصر المميز
لهذا التفكير !!)

وفي الرد على قول الكاتب ، لا يجوز للانسان أن يبحث في الشرع من علل ومبادئ والمنطق الانساني والتعقيد قليل الحظ في الشريعة الاسلامية) يقول الأستاذ الخولي :

ويتجاهل أن القياس أصل من أصول الشريعة كالقرآن والسنة ، وأن جمهرة المسلمين قد مارسوا هذا القياس ممارسة مسرفة ، وحتى نفاذ القياس وهم الظاهرية ، لم يلبثوا أن اعترفوا بصور من القياس ، وعدوها من دلالة النص على ما هو معروف ، وقد سمعت قريبا (١) قول هؤلاء الظاهرية بوجوب الاجتهاد وجوبا عاما على كل أحد ، ولا معدي لمجتهد من البحث في علل الأحكام بأي طريق ، من قياس أو غيره ..

وما هذا القياس الذي هو أحد أصول الشريعة ومصدر من مصادر أحكامها ؟ انه ليس إلا عملا كبيرا في تعليل الأحكام !! وأنه ليس إلا عملا منطقيًا أصيلا ..

وجاء في الرد على ما أورد الكاتب في المصادر المادية للشريعة (من آراء عربية قديمة وبدوية ، قانون التعامل بمدينة مكة ، التي كانت مدينة تجارية ، وقانون الملكية في واحة المدينة ، والقانون العرفي الذي كان سائدا في البلاد المفتوحة وهو قانون روماني اقليمي الى حد ما ، وقانون هندي) :

(ان تسمية هذه مصادر مادية للشريعة تعبير جرىء ، وغير دقيق معا .. وقد جاء مباشرة لم تمهد له دراسة تاريخية ، ولم تثبته دراسة مقارنة ..

••• وانما دامت تراعى القواعد التي وضعها الرسول عليه السلام ، وهي السنة ، أي المصدر الثاني من مصادر الشريعة ،

(١) اشارة الى ما جاء في الرد .

وما دام العرف القانوني موجود في البلاد المفتوحة ليس عليه اعتراض ديني ، فذلك هو التفاعل الطبيعي بين الطائفتين وبين مكان البلاد ، وبين الشريعة التي حملوها والعرف القانوني الذي وجدوه ، وهو ما تقتضيه المرونة الحيوية ، والتأثر الاجتماعي ، ولا بأس به ، ولا عدوان على حقيقة .. وعلى هذا التفسير الذي تقرره المادة نفسها لا تكون تلك الأشياء التي تؤخذ في ظل التوجيه التشريعي الديني هي التي تسمى مصادر شريعة)

وعلق على ما جاء في بحث (بول) عن (صالح)

بقوله (١)

١ - في المادة كثير من الآيات ، وبالمراجعة يتبين اختلاف رقمها عن رقم المصحف المصري ، بالرقمين والثلاثة زيادة ، وتتبعها يطول في غير قائمة .

٢ - تكررت في المادة عبارات المؤلف التي ينسب فيها القرآن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله (وفقا للأسلوب الذي انتهجه محمد) .. وخرجت عن الحد في قوله (لا نستطيع أن نتحقق أن المصدر الذي استقى منه محمد اسم صالح وقصة الناقة) ..

وفي الحق أن هذه التعبيرات التي لا مبرر لها ، ولا مناسبة تتهم منهج الكاتب نفسه بالهوى ، وتلفت الى أنه لا يدرس الموضوع دراسة باحث عن الحقيقة ، أو حتى دراسة ناقدة متماسك ، بل يتناوله تناول مفتون بهواه ، مغلوب على أمره ، وتلك شر آفات المنهج ..

٣ - يؤكد الكاتب بقوة أن البيوت نحتتها ثمود من الصخر ليست القبورا ، ويروى فرض أن تكون كلمة (كفرا) أي

(١) المجلد الرابع عشر ص ١٠٦ .

قبر ، الواردة في نقوشها ، وقد فسرت بالكفر ضد الايمان ،
ولا تظهر قوة الاتصال بين هذا الغرض ، وبين كون بيوت
ثمود الصخرية المذكورة في آيات القرآن ، هي قصور أو قبور ،
الا أن يكون ذلك بتكلف كثير . .

ولو قدر الدارس أن معنى البيت في العربية (القبر) ،
وان القرآن يذكر لثمود قصورا في السهول ، ثم يذكر معها البيوت
في اجبال ، فيقول : « وبوآكم الأرض ، تتخذون من سهولها
قصورا ، وتنحتون من الجبال بيوتا » . لو قدر ذلك بأن له
أن ذكر القرآن البيوت بعد القصور يؤذن بأن يكون للبيوت
هنا معنى آخر من معانيها اللغوية ، ولا غرابة في أن تكون
منحوتات ثمود في الجبال بعد قصور السهول هي المقابر
التي يذكرونها . .

٤ - وأكثر من هذا اخلافا بالمنهج من كاتب المادة ، أنه - وهو
الذي يتصدى للكتابة في القرآن - لا يعرف أن فيه آية تقرر
أن العرب قد جاءهم المندرون مثل : « وان من أمة الا
خلا فيها نذير » والعرب بخاصة قد ذكروا بأن هذه ملة أبيهم
ابراهيم في قوله (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من
قبل) ، فكيف سماغ للكاتب - مع هذا كله - أن يقول
تناقضان الدعوة المألوفة التي أتى بها محمد في سور العهد
المكي (، من حيث انه قال (انه لم يرسل نبي قبله الى
العرب) ١٩ وجاء في تعليقه على ما قال به (الفرد كيوم)
في مادة (صحيح) (١)

(في هذه المادة شيء من قصور ، وشيء من سوء التعبير) .
وأورد مجالات القصور في فهم الاسناد . ومناطق الصحة ، وفرق

ما بين مسلم والبخاري وأنكر على الكاتب قوله عن ترجمات البخاري
أنها لا تنقسم في كثير من الأحيان بالهوى ، كما يكون في بعض
الأحيان مضللا ؟ (أهى تراجع البخاري ، أم تلك الدراسة القاصرة
أبدا الله منهج القوم ليتمكن الانتفاع بجهدهم) ..

ومما قاله كتب (ثابر) عن صدقه (١) :

(١) (قول الكاتب كلمة صدقة ليست شيئا سوى الكتابة
العربية للكلمة العبرية « صداقا » التي كانت تدل في
الأصل على السيرة الصالحة .. الخ) . وهي عبارة يشيع
فيها الهوى والخفة ، في تقرير أخذ العربية لكلمة صدقة
عن العبرية والمهم في ذلك وضوح فساد المنهج ، لأن الأصل
- اللغوي الذي عند الكاتب وقسومه هو أن العربية أخت
العبرية وأمهما واحدة ، فاحتمال وجود كلمة (صدقة) في
اللغة الأم ، ثم في بنتها ، احتمال جد قريب ، ومع قربه هذا
لا يهون هكذا القول بالأخذ الصرف ، دون أن يكون للكلمة
في العبرية معنى الحياة العربية مثلا) ..

(ب) (قول الكاتب : (ان البر بالفقراء شيء مميز للشعوب السامية
على أن العرب لم يكونوا يأبهون كثيرا لأحاسيس المشركين
للغير في آلامهم) ، فمنهجه في هذا التعبير مضطرب ، بل
شديد الاضطراب ، لأن سامية العرب لاشك فيها عنده أبدا
فهم بذلك يدخلون في الأصر العام الذي ميز به الشعوب
السامية) ..

وعلق على قوله (فنسبك) في الصلاة بقوله (١) :

.. (جاءت المادة طويلة ، في غير طائل ، متعثرة الخطى ،
في قديم من معتاد أخطاء القوم ، أو تمجدهم في الفهم والتخريج ،
في كل مجال إسلامي مما كثر وتكرر)

(ب) قال الكاتب : (ويبدو أن كلمة صلاة لم تظهر في الآثار
الأدبية السابقة على القرآن) .. مع أن الأعشى يقول : يراوح
بين صلواته إليك .. الخ

(على أنا لا نقفل ما في هذا المنطق اللغوي والأدبي من دخل ،
وهو أن ما وصلنا من الآثار الأدبية السابقة على القرآن لا يمثل
الحياة الأدبية العربية قبل الإسلام تمام التمثيل . وبذلك لا يمثل
الحياة الاجتماعية لهذه الفترة أصدق التمثيل) ..

(ج) (أن الظواهر اللغوية الاجتماعية لا تنسب لشخص ولا لعصر
بل لا تنسب لجمع ، فكيف تقولون بعد ذلك : أن محمدا
هو الذي اتخذ كلمة صلاة .. وأن محمدا هو الذي نقل كلمة
صلاة . الخ ؟ !

أن هذا القول يبطله المنهج اللغوي والاجتماعي الخاص
كما يبطله المنهج العلمي العام ، لأن قائله لا يملك أي دليل على
أن هذا من عمل محمد .. وهو يتناسى احتمالا سيظل موجودا
مادام العلم لم يثبت بطلان الأسلوب الديني والوحي الديني) ..

(د) وفي الرد على ما أورده الكاتب من وجود تشابه بين الصلاة في
الاديان الثلاثة ، كدليل على الأخس من اليهودية والمسيحية
.. قال الاستاذ الخولي :

(أن وحدة الأديان كان الاسلام بترتيبه الزمني داعيا واضح الدعوة اليها في اعلانه انه انزل الى النبيين من قبله ، وأوحى اليه كما أوحى الى من قبله ، وأنه مصدق لما بين يديه ، ولا مكان مع ذلك للقول بأن هذا قد أخذ من ذلك أو قد شابته تلك ، لأن الكل في بيان القرآن واحد المصدر ، واحد الغاية) ..

هذا كل ما حفلت به (دائرة المعارف الاسلامية) (١) من حاجة الأستاذ الخولى لهؤلاء القوم الذين يحاولون بعلمهم أن يسموا آبارنا ، وقد رصد لهم ذخيرته الحية من علوم الرواية والحديث ، ومن أدركه الصادق للعربية ، وفهمه الواعى للقرآن وعمله الواسع بما يتصل بقديمتنا من حديثهم ، فكان صورة فذة بكل ما أوتى من قدرات - لرجل الحق الذى لم تفتنه مهارات الغرب وفنونه ، فصدع حججهم ، وعرى باطلهم ، وكشف لمن يفرهم بالغرب الفرور خبيث ، نواياهم وخبىء افكهم ..

(١) له تعليق على مادة طلاق لم ينشر ولم اصل اليه

مشكلات حياتنا اللغوية

لئن يكن الدين توفروا على الدراسات القرآنية - منذ نشأتها - عنوا أشد العناية بالدراسات اللغوية والبلاغية ، بل والأدبية والتاريخية ، باعتبارها سبيلهم الى فهم القرآن ، ومعرفة أحكامه ، ووجه اعجازه ، فكان من ذلك مفردات القرآن ، وغريب القرآن ، واءراب القرآن ، ومجاز القرآن ، واعجاز القرآن ، والجامع لأحكام القرآن ، وقصص القرآن ، وقراءاته .. الخ . . .

- فان المنهج الادبي للتفسير يوجب هذه الدراسات ، لأنها طبيعة المنهج ، مادته وميدانه . .

ولئن يكن اتساع العلوم الانسانية أدى الى أن يتفرغ الباحث « لفرع » دون آخر ، بل لجزء في فرع ، حتى يستطيع ان يلم الماما واسعا بمادته ، وان تثاقى له القدرة أن يأتي فيه بجديد ، والأستاذ الخولى من المؤمنين اشد الايمان بحاجة البحث العلمى الى هذا النوع من التخصص - فان طبيعة الدراسات الأدبية - لا تقوم فيها الحدود الفاصلة بين فروعها ، لأنها متشابكة متكاملة ، لا تقوم في

فرع دراسة دون حاجة إلى الفروع الأخرى ، ولا يتصور أن يتقن
دارس فرعاً دون استيعاب لها جميعاً . . . فالحاجة إذن إلى التكامل
الواعى لقوة الصلة بين هذه الفروع كلها . .

من هنا كان توفر الأستاذ الخولى على الدراسات الدينية
والأدبية ومزجه بين الدراستين . . كان أن عالج المناهج الأدبية
على قواعد اهتدى إليها من كتبوا في ظلال القرآن والحديث ،
ورأى أن التفسير الأدبي للقرآن الكريم هو السبيل إلى فهم ما
أشكل على من نظروا في قصصه وأمثاله ومتشابهه وتعاليمه
وأوجه إعجازه . . وأثرينا بدراساته في هذه المجالات جميعاً ،
وبمنهجه الخاص ، ورأيه الذى أنضجه التكامل المنهجي والدارس
لهذه العنوم جميعاً . .

وكان الظن أن نبداً دراستنا لأعمال الأستاذ الخولى بالجانب
اللغوى على أساس أن اللغة لغة القرآن الكريم . .

ولكنى آثرت الحديث عن الجانب الدينى أولاً على أساس أن
الدراسات الأخرى تفرعت عنه ، وجاءت تبعاً له - فى تاريخنا
العلمى - بل فى تاريخ الأستاذ الخولى نفسه ، إذ كانت دراساته
الدينية فى القضاء والجامعة والأزهر أسبق من الدراسات
الأدبية . .

هذا النحو

نشط الأستاذ الخولى لنقد كتاب (تيسير النحو) الذى
شكلت له لجنة من كبار رجال العربية فى مصر (طه حسين ،
وأحمد أمين ، وعلى الجازم ، ومحمد أبو بكر إبراهيم ، وإبراهيم
مصطفى ، وعبد المجيد الشافعى) . . . وكان نقده (اجابة عن

تساؤلات وقضايا أثارها الكتاب (في محاضرة القيت خلاصتها بالجمعية الجغرافية الملكية بعد ظهر الخميس ٨ أبريل سنة ١٩٤٣م ونشرت بمجلة كلية الآداب في يولييه سنة ١٩٤٤ بعنوان (هذا النحو) ، ثم في (مناهج تجديد) .

ولما كان يصدد الحديث عن التيسير والتجديد ، فحينئذ علل لشروعية هذا العمل بأن أصول اللغة محمولة على أصول الشريعة (و كل من الشريعة واللغة مظهر قديم من مظاهر حياة الجماعات البشرية) ، إلا أن اللغة أقدم ، و (أشد المظاهر الحيوية لنا ، وأقلها تصلباً وتحجراً ، وأطوعها للتطور) . . ثم إن الفرق هائل (بين الفقه والنحو ، من حيث الصفة الدينية ، والنحل والحرمة في الأول ، وعدم ذلك تماماً في النحو . . ومع شدة صلة اللغة بالحياة ، ومسايرتها إياها مسaire قهرية ، لا يستطيع أحد الوقوف في وجهها ، وهو مالا يتوافر للشريعة بهذه القوة) . . ومع ذلك فرجال الشريعة قديماً وحديثاً اجتهدوا واختلفوا . .

ووضع بين يدي مستمعيه وقارئيه القواعد التي اتبعتها اللجنة التحضيرية للتشريع الجديد (في الأحوال الشخصية) - في اختيار الأقوال والآراء الفقهية ثم قال :

(أنا لن نطلب في هذا النحو أكثر مما فعل أصحاب الفقه في الفقه ، وهو أصل لهذا النحو في تفكير أصحابه) (١) ١٠ وأجمل قواعد تهذيب النحو على عبار قواعد لجنة الأحوال الشخصية ، ممثلة في :

١ - ملاحظة التيسير والرنق . .

(١) مناهج تجديد ص ٢٦

٢ - جمع كل ما يوجد من المذاهب النحوية ، حيثما وجد والتوسع في فهمه ، دون وقوف عند ظاهره . . .

٣ - عدم التقيد بمذهب نحوى واحد فى مسألة بعينها ، وعدم التقيد بالأفصح أو الأرجح أو الأصح ، الذى نصروا عليه . . .

٤ - تخير ما يوافق حاجة الأمة ، ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب العملية ، والخبرة التعليمية ، والشكاوى الحقة من المصاعب اللغوية (١) .

وقبل أن يرسم لنا جديده ، أنكر على لجنة (تيسير النحو) اشتراط قرار وزارى عليها - واشتراطها على نفسها - ألا يمس التيسير (من قريب أو بعيد أصلا من أصول اللغة أو شكلا من أشكالها) ، مع أن المسألة من الأهمية والخطر الاجتماعى بحيث تحتاج الى النظر المستأنف فى هذه الأصول نفسها (٢) . . .

كما انتقد نظرتها الى الاعراب التقديرى والمحلى ، وعلامات الاعراب الأصلية والفرعية ، وتقسيم الجملة الى محمول وموضوع ، وقدم جعل الاستثناء من الأساليب ثم عرض للصعوبات اللغوية اليوم - كما تراها اللجنة - مجملة فى :

١ - فلسفة حملت انقضاء على أن يفترضوا ويعللوا ، ويسرفوا فى الافتراض والتعليل . . .

٢ - اسراف فى القواعد ، نشأ عنه اسراف فى الاصطلاحات . . .

٣ - امعان فى التعمق العلمى ، باعد بين النحو والأدب (٣) . . .

(١) المصدر السابق - ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه - ص ٣٤

(٣) منهاج تجديد ص ٤١

ولم يطمئن الى تعليل هذه الصعوبات ، لأن (فلسفة القدماء في النحو لها نظائر في الدراسات اللغوية عند الأمم المختلفة ، وليس العيب في التفلسف ، وإنما العيب ان يكون التفلسف في الكتب المدرسية التعليمية) ، والاسراف في القواعد والاصطلاحات (ليس ذنب النحويين - كما ترى اللجنة - لكنه شيء اقتضت أكثره طبيعة اللغة وسعتها وأشياء في كيانها) والمباعدة بين النحو والأدب (شيء يتصل بطريقة الدرس وخطته ، ثم ان الوصل بين النحو والأدب لا يؤثر في كثرة القواعد ، ولا في تشعب الاصطلاحات)

وبين أن أسباب هذه الصعوبات في الحقيقة

- ١ - أننا نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة ، حين نتعلم لغة معربة ، وافرة الحظ من الاعراب ، واسعة الآفاق مع ذلك . . فكأننا بهذا نتعلم لغة أجنبية وصعبة . .
 - ٢ - ان هذه الفصحى الواسعة المعربة . مع ثقل اعرابها علينا ، لا يسهل ضبطه بقاعدة ، بل يسوده الاستثناء .
 - ٣ - أن هذه الفصحى - فيما وراء اعرابها المضطرب ، وسعتها وانتشار قواعدها ، باختلاف الكلمات - نعود فلا تستقر على حكم وقاعدة في الكلمة الواحدة ، أو التعبير الواحد . .
- وإذا ما قدرنا أن هذه العقد جوهرية ذاتية فقد بدا ان حلها يمس الجوهر والكيان ، لا بد ، ويحتاج الى عمل جراحى ، أو ما يشبهه .
- بمباضع معروفة من أصول نحائنا وان نستعين على علاج العربية بحيويتها هي . لا بنقل دم ، ولا اعانة بغريب عن جسمها أو عن نظامها (١) . .

(١) المصدر السابق - ٤٤/٤١

والأصل العام لهذا الحل :

أن ندع النحاة وآراءهم وقواعدهم ، ونمضي إلى ما وراء ذلك من أصولهم التي استخرجوا منها هذه القواعد ، فنحاول - بحسب استعمالهم هم لها ، وكما دلوا على هذا الاستعمال ، وعلى رغم ما لنا من اعتراض على هذه الأصول - أن نرجع من منقول اللغتين ، ومرويهن في اللغة ، أوجها تدفع هذه الصعوبات ، وتقلل هذا التعدد ، وتغني المتعلم عن بدل جهد عنيف . . .

وسنلاحظ في اختياره اعتبارين :

١ - تقليل الاستثناء ، واضطراب الأعراب ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

٢ - اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا ، فان لنا في عاميتنا أعرابات بالحروف مثلا ، قد نظمنا إلى أن لها أصلا عربيا ، بل هذا ما قد يرجحه البحث أو يشبهه . . .

وفي كل فان أنسنا بها ، والف المتعلم لها ، في لغة البيت والشارع سيجعل الوجه الذي نختاره من الفصحى قريبا من أنفسنا سهلا ، لا جدة فيه ولا أعنات ، وسنجد التمثيل لهذا في موضعه حين نعرض له قريبا . . .

وقبل أن نعرض أمثله برر ما فعله (بالاجتجاج بالقراءات الشاذة في العربية ولو خالفت القياس ، ويقول مالك (أن الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء ، ولكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين ، فان احتاج لذلك في شعر أو سجع . . . فانه مقبول منه ، غير منكر عليه . .) ويقول ابن جني (أما أن يحتاج إلى ذلك في شعر أو سجع ، فانه مقبول منه ، غير منفي عليه)

ثم عقب على ذلك بقوله : (فهل ترون يا قوم ان جدوى هذا السبج خير من تخفيف بلايا هذا الاضطراب عن الصغار ، وخزايا الافتضاح عن الكبار ، على ما صرحت به وزارة التربية والتعليم قائلة : أن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهدا كبيرا ووقتها طويلا في تعليمها وتعلمها ، ولا يصلون بعد هذا كله الى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد ؟) ..

وأورد قراءات واقتولا تلتزم الواو مع (أب و ام) والالف المقصورة مع (حم) كما في عاميتنا .. ثم قال : (ما أنا فحسبي هنا في هذه الاسماء أن تلتزم الالف كالمثنى فتقل الأقسام) (١) .. ولا أدري لماذا أخشى كثرة الأقسام مع أنه جعل (اختيار ماهو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا في اعتباره ؟ ! وكان الأولى أن تلتزم الأسماء الواو ماعدا (حم) فتلتزم الالف ، ولو أراد اطراد القاعدة لكانت الواو .. لكنه أخذ بلغة القصر المشهورة .

ومن واقع الأمثلة التي أوردها ، رجح قصر المثنى ، كما رجح الياء في جمع المذكر السالم ، ونصب جمع المؤنث السالم بالفتحة - كما أجاز الكوفيون - وصرف ما لا يصرف وجره بالكسرة ، ثم قال :

(أين أنتم يا قوم من لغة الشعراء ، ترحمون بها صفاركم وكباركم أيضا) (٢) ..

ورأى حذف نون الأفعال الخمسة رفعا ونصبا وجزما ، وقياس المعتل بالياء على المعتل بالالف ، كما جاء في شواهد عربية وبذلك (نقوم بأمرين) :

(١) مناهج تجديد ص ٤٥ - ٤٩ .

(٢) مناهج تجديد - ص ٥٤

١ - محاولة الاحتفاظ باطراد القواعد ما أمكن .

٢ - اختيار ما هو أيسر أعرابا . أو أقرب فهما ، أو أكثر رواجاً في حياتنا اللغوية الحاضرة (١) . .

وقال : (انما أتحدث بهذا الى الذين ليس عملهم في الحياة الاشتغال باللغة وأوجه أعرابها ، من سائر الطبقات العاملة والعامة في الشعب) (٢) . . فاذا ما مكنا للفصحى في السنة هؤلاء وقلوبهم فقد أمددناها في صراعها للعامة بقوة تهى لها شيئا من الثبات والمقاومة ، ان لم يكن التغلب والانتصار ، أما أولئك الذين عملهم في الحياة هو الاشتغال باللغة وعلومها وآدابها فمنذ يبدأون تخصصهم في ذلك ، ويفصلون عن التعليم المشترك الى أقسامهم الخاصة ، لهم أن يرددوا من هذه الاستثناءات التي تربك الأعراب ما يشاءون ، وان يتبعوا من أوجه الاختلاف ما يعرفون به الفصيح والأفصح والأقل والأكثر ، مادامت الدنيا حولهم مكنهم من ذلك وتجيروهم لهم) (٣) . .

... وأخيرا . . رد على (شبه واهية) مثل اختلاف القواعد المتعددة عن قراءة القرآن ، فقال : (تغيرت قواعد الكتابة العربية ، وتقرر ما يخالف رسم المصحف فقال الزمخشري منذ مئات السنين : (وقد اتفقت في خط المصاحف أشياء خارجة عن القياسات ، التي بنى عليها الخط والهجاء ، ثم ما عاد ذلك يضر ولا نقصان لاستقامة اللفظ ، وبقاء الحفظ ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف) فشتان بين اختلاف الكتابة عن المصحف واختلاف النحو عن بعض قراءات هذا المصحف !!) . .

(١) المصدر السابق - ص ٥٩

(٢) نفسه - ص ٥٦

(٣) نفسه - ص ٦٠

أما عن (المتكلمين بالعربية واختلاف سنتهم) فيكفى (أخذ
أصحاب العروبة في كل إقليم بهذا التهذيب ، وجاء أن يجتمعوا على
فصحى يسيرة ، تهاجم العاميات ، فتغيرها أو تضعف شأنها ،
وحبذا) (١) .

ولا شك في أنهم لو وصعوا في اعتبارهم ما وضعه الاستاذ
الخولى في اعتباره من (اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة) لكان
الاختلاف أبعد مدى ، واتسع الخرق على الراقع !!

الاجتهاد في النحو العربى ..

وكتب بحثا تحت هذا العنوان لمؤتمر المستشرقين الدولى
الثانى والعشرين المنعقد باستنبول فى سبتمبر سنة ١٩٥١ . أشار
فيه الى محاضراته السابقة ، ثم بين قصده من الاجتهاد النحوى
بأنه :

(البحث الحر المنتفع بأخر ما وصلت اليه الانسانية من
جهد فى الدرس اللغوى وعدم قبول أقوال الأولين فى ذلك ، بلا
تمحيص ، على أن يبذل فى ذلك ، البحث الحر أقصى وسع الانسان
فى طلب المعرفة ، أداء لواجبه الكامل فى طلب الحقيقة ، حتى
يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب للمعرفة) ..

مع مراعاة أن الأقدمين أنفسهم أن أعلنوا باب الاجتهاد
الفقهى فقد ذموا التقليد فى النحو ، ولم يصونوا من الخطأ اجماع
نحاة البصرة والكوفة ، واشتروا لاستنباط النحو العام بلغة
العرب ، والاحاطة بكلامها ، والإطلاع على ثراها ونظمها ، والخبرة
بصحة نسبة ذلك اليهم ، مع علم بأحوال الرواية .. ولا يتشددون

فيما تتحقق به هذه الشروط . . وصرح بعضهم بأن للانسان أن يرتجل من المذاهب النحوية ما يدعو اليه القياس ، ما لم يخالف نصا ، فمن فرق له عن علة صحيحة ، وطريق نهجه ، كان «خليل» نفسه ، و (أبا عمرو) فكره (١) . . .

ومن ثم يجب مراعاة ما يأتي حين ننظر في التراث :

١ - أن مستوى الدرس اللغوي بعامة لا يوضع إلا في الدرجة التي يقف عليها زمنه من سلم الرقي ، ومع اكبارنا لهذا الجهد من أهله في حينه ، لا يمنعنا قط أن ننكر أن الحياة اليوم قد تقدمت بهذا الدرس اللغوي ، مع تقدم سائر فروع المعرفة . . ويقتضينا هذا أن تكمل دراستنا بالجديد من علم اللغة العام ، ومن فروعه الخاصة .

٢ - أن اللغة في فهم قدمائنا نشاط عقلي ، يضبطه العقل المنطقي الفردي في وضعه ، ونموه ، وتطوره ، وأنتم خير من يعرف أن الدرس اللغوي اليوم يطمئن الى أن اللغة ظاهرة اجتماعية . . والتغيرات اللغوية تتم بطريقة آلية . مستقلة عن ادارة المتكلم بها ، بل بغير شعور منه . .

٣ - أن النحو عندهم عمل منطقي ، قامت في عقول العرب علة ، بل نصت العرب على تلك العلة أحيانا ، فهو قياس كله ، والمجال فسيح في تعليقه للعقل المنطقي . .

وان من الانصاف أن نقرر أن الثقافة القديمة بدقتها المعهودة ، لم يفتها ادراك وجه الصواب في هذا ، فمن ذلك ما كان خارج البيئة النحوية ، ومنه ما كان لحا حفيفا في البيئة النحوية

نفسها .. فهم يقررون في مقدمتهم اللغوية لأصول الفقه : أن القياس لا يجرى في اللغات ، والكوفيون كانوا يميلون الى تتبع اللغوى وعدم اتباع التأويلات البعيدة ، والامعان المنطقي ، الذي جنحت اليه مدرسة البصرة ، وقولة (أى كذا خلقت) : للتسائي دليل ذلك ..

وبالتخلي التام عن التعليل نهمل ما تمتلئ به منه متون النحو العربى نفسها ، وتفيض به شروحه ، ويلقى دارسوه منذ اللحظة الاولى منه ما يلقون ..

ويتبع التخلي عن هذا التعليل ترك ما خلفته اللغوية المنطقية من صيغ اعرابية تلقينية ، يرددها غير قليل من الدارسين دون وعى ..

ويقتضينا تصحيح المنهج النحوى الاجتهاد بمعنييه : اللغوى والاصطلاحي : فاما الاجتهاد بمعناه اللغوى ، فهو الجد الدائب فى تاصيل الدراسة اللغوية العلمية واستكمالها والاعتماد عليها وحدها فى فهم نص العربية ، وتقديم التفسير اللغوى الصحيح لظواهرها الصوفية والنحوية بدل تلك التعللات النظرية والتفسيرات المخترعة والمتوهمة لتلك الظواهر ، كما تسجل الكثير منها الصبغ الاعرابية التقليدية ..

وأما الاجتهاد بمعناه الاصولى الاصطلاحي ، فلا يكون وراء ذلك الا النظر المجتهد فيما خلف المنهج القديم ، من قواعد العربية ، وتقديرا لصحة هذه القواعد وسلامتها ..

٤ - واذا كان جمع الأقدمين للثروة اللغوية ناقصا ، كما وصفوه هم انفسهم يقتضينا هذا النص استكمال الجمع قدر الطاقة الانسانية ، ثم الاجتهاد الحر النظر فى الاستفادة مما عسى

أن تصل اليه الأيدي من تلك الثروة ، باستقراء دقيق يؤثر
على القواعد الأولى ، أى تأثير ، تقتضيه طبيعة هذا
الواقع (١) ..



مشكلات حياتنا اللغوية :

والقى مجموعة محاضرات على طلبة معهد الدراسات العربية
العالية - أواخر سنة ١٩٥٧ - وطبعت سنة ١٩٥٨ م ، شعارها ،
(ادرسوا التطور اللغوى للعربية ، والا فلا أساس لعملكم
فيها ..)

ومهد لهذه المشكلات بأنه ليس بالكثير ، ولا المبالغ أبدا أن
نقول : أن آفات حياتنا فى جمهورتها تعود الى علل لغوية ، تصدع
الوحدة ، وتحرم الدقة ، وتبدد الجهد ، وتعوق تسامى الروح
والجسم والعقل والقلب (٢) .. وفنية حيوية .. وهى ببعض ذلك
خليقة بأن تكون أزمة وطنية وسياسية .. تهز الكيان الاجتماعى
كله (٣) .

لذلك لا يريد علاجها (كطبيب المستشفى الأميرى ،
لا يتكلف فحصا ولا اختيارا ، فلا يكشف علنة ، ولا يحسن
تشخيصا ، فهو لا يهتدى فى دواء) .. ولكن :

(١) ص ٧٧ - ٨٤ بتصرف يسير - مناهج تجديد .

(٢) ص ٢ مشكلات حياتنا اللغوية - ط معهد الدراسات العربية .

(٣) ص ٦ .

(نريد أن نفرغ الى تاريخ مرض لهذه العربية . نعرف فيه .
كيف نشأها اهلها ؟ وعلى أى منهج اقاموا دروسها ؟ وعلى أى أساس
بنوا قواعد علومها ؟ وهل كانوا فيما اخذوها واخذوا انفسهم
اسوياء راشدين ، جارين على ما هدى البحث الى صوابه ؟ او كانوا
على غير هذا السبيل وماذا خلفت تلك التربية - غير الرشيدة -
من آثار في بناء اللغة ؟ ثم ما وجهه الراى التجريبي الصائب في
اصلاحه ؟ (١) .

فلنعرض - اذن - مقررات علومنا العربية : من لغة ..
ووضع ..

واشتقاق .. وصرف .. ونحو .. الخ ، للتحليل في متخاير
المناهج اللغوية المحدثه ، المدعمة بما بلغ الانسان من ثقافة علمية ،
تجريبية بعامة ، وثقافية بخاصة . وفي ضوء الاشعة النافذة من
هذه المعرفة الانسانية انظيقة المنطلقة ، نستطيع تشخيص
مشكلات حياتنا اللغوية (٢) .

وعرض لتشخيص سابق فيما كتب ابن جنى والسيوطى
واحمد امين عن جمع اللغة والاشكال الوارد بسببه ، وقال : انا
لا نتكلف هنا الخوض في شيء منه . لأن زاوية النظر في الملاحظة
على هذا الجمع هي الزاوية المتينة في النهاية لأنها عنيت ، بل
قصرت على عمل للرواة فات زمانه ، ولا سبيل الى امادة شيء منه
مطلقا ، ليؤدى على وجه أتم أو أكمل ، فيؤدى الى فائدة في
حياتنا اللغوية الآن أو بعد الآن (٣) ..

(١) مشكلات حياتنا اللغوية - ص ٩

(٢) المصدر السابق - ص ١٣/١٤

(٣) نفسه ص ٢٣

وطالب بالجمع المنقب العملى فى أرض الجزيرة العربية ،
التي لا شك مطلقا فى أنها تحتفظ بوجدائع من الماضى ، لها الأهمية ،
فى معرفة ذلك الماضى بكافة صورته ، ومن جميع نواحيه : لغوية
واجتماعية وفنية وسواها ..

وانكر على المتحدثين فى أولية اللغة ووضع اللغة ، وقال
عن (علم الوضع) أنه كان (هزىلا ضامرا ، لم تشعر الحياة
بحاجة الى نموه ، فظل فى تلك الحدود الضيقة أقساما تردد ،
وخلافات حولها ، لا عمق فيها ، ولا أثر لشيء منها ، إلا فى حياة
كحياة تلك الأيام التي ظهر وعاش فيها علم الوضع ، حياة
صناعية متكلفة ، يرتزق فيها ناس بأشياء يوهمون بها ، أو
يعمونها على الناس ، أو يقدررون لها ، - على غير أساس - أن
لها شيئا من الأهمية) (١) ..

كما انكر الوضع اللغوى الجديد : (لأن الوضع لا ينبغى
أن يشغل حيزا من عنايتنا ، ودراستنا اللغوية ، لأنه فى القديم
فرض غير قريب الوقوع ، ولا سليم العقبى ، وفى الحديث
محدود ، ضعيف الجدوى على اللغة ، ولا أمل فى التثبيت
به) (٢) ..

ثم ناقض قول ابن فارس وابن جنى ومصطفى الرافعى
وعبد الله العلايلى فى استكمال اللغة ، وأجمل ما وصل اليه فى
(أن القدامى قد شعروا شعورا قريبا المدى بأن اللغة لم توضع
مرة واحدة ، وأنها قد تلاحق تابع منها بفارط ، فكان هذا
الشعور - على نحو ما سمعنا من قولهم عنه - ليس انتباها

(١) نفسه ص ٣٦

(٢) مشكلات حياتنا اللغوية - ص ٤٧

للتطور بما هو حقيقة حيوية .. فلم يدفعهم الى التعلق بشيء من أمر هذا التغير المتلاحق ، ووصفه أو تبيان مظاهره .. واحسن الظن منا بهذا الشعور منهم أن تقول : انه ليس كفرا جاحدا للتطور يعوق القول فيه ..

تم ان طلائع المحدثين في عصرنا قد لفتهم ما حولهم من جد في الحياة وتناولها الى التحدث عن شيء من تهذيب العربية وتنقيحها ، ففأوا فيه الى شيء من قصص التاريخ غير المحقق ، يصفون به مرات من التهذيب أو التنقيح اللغوي ، ذلك الذي سمعت من الوصف الساذج الخطابي الذي ينتهي الى كهوف الغيبة وخوار في الأحداث الكونية للطبيعة (١) ..

وأورد ما قال ابن فارس وابن جنى والسيوطي والرافعي والعلايلي والكرملی وبرجستراسر في : (كمال اللغة والتفضيل اللغوي) ليقول كما قال الكرملی : (ان الناطقين بالضاد الذين امعنوا في تدبير لغتهم وتقليبها على مناخ ووجوه شتى ازدوروا بكل لسان سواها ، ظانين أنها فوق كله لغة ، ولا يمكن أن يداينها شيء من كلام البشر ، فكان هذا الاعتزاز داعيا يل ناعيا كل تبخر في معارضتها بسائر اللغى والألسنة) (٢) ..

ثم أورد من اقوال العلايلي وعلى عبد الواحد وافي ، وبرجستراسر في التطور اللغوي ، لينقض رأى المجمعين : (أن التطور يتم مع الاحتفاظ بأصول اللغة وقوامدها ، وبالفصيح من مفرداتها وشواهدا) .. وقال :

(١) المصدر السابق - ص ٥٩

(٢) نفسه - ص ٧٥

(ولا ندرى أى تطور هذا الذى يكون بلا تغير ؟ ... لكن -
فى حدود ما نشر لآنرى للمجمعين اتجاهها عناملا نحو درس
التطور اللغوى للعربية ، والانتفاع بما يكشف عنه هذا الدرس
من حقائق ذات أثر كبير فى فهم مشكلات اللغة وعلومها ، كما
انها ذات أثر كبير فى المحاولات الاصطلاحية للغة وعلومها) (١) . .

ثم أشار الى المحاولات اللغوية الجادة لبرجستراسر
والدكتور حسن عون والاستاذ العلايلى ، وخص عمل العلايلى
بأنه (محاولة جريئة تامة لشرح تطور العربية منذ عهدها الفطرى
الى يومها الحاضر ، فى توسع وجراحة ، قسمت ذلك التطور
أدوارا ، وقسمت الأدوار الى حلقات ، كما وصفت تطور العربية
المادى ، وتطورها الشكلى ، وبينت مسامرة هذا لذلك ، وتقابل
أدوارهما وحلقاتهما ... وأهم من ذلك كله أن الدراسة قد حققت
الغرض العملى المطلوب من تصحيح المنهج اللغوى ، ويتبين
وجهة سير العربية فى الحياة وعن طريق معرفة اتجاه تطور
العربية أمكنها أن تساعد سير التطور ، وتعين العربية على
متابعة نمائها متابعة لا تعد الا الامتداد الطبيعى لما أراد لها أهلها ،
والتحقيق العملى لما تمثلوه نظريا ، وكانوا يتمنونه لو ظلت لغتهم
تأخذ طريقها فى بيئتها ، ولا تزعج عنها وتخرج منها) (٢) . .

وختم هذا الحوار الجاد الساخر أحيانا الملتزم بتعيين
المراد من اللفظ التزاما يشهد الانتباه الى قدرة باهرة فى الحجاج
بقوله : (وكلما هدى الى الايمان بالمنهج فرد واحد توفر جهد
يضيع بددا ، وعمل يذهب سدى ، فى غير وجهة ، عندما نختلف ،
ونتناقش ، ونقرر على غير أساس من منهج محرو) (٣) . .

(١) مشكلات سياننا اللغوية - ص ٨٣/٨٤

(٢) المصدر السابق - ص ٩٢/٩٣

(٣) نفسه - ص ١٠٤

لسان العرب اليوم

وفي جلسة ١٣ مارس سنة ١٩٦٢ م بمجمع اللغة العربية
القي بحثا ، بداه بنظرة الى موقف المجمع من الكفاح الدائب بين
الفصحى والعامية ، منذ انشاء المجمع الى يوم القاء البحث ، «نتقلا
من قول أحد منسبيخته سنة ١٩٣٥ ، (ان ادخال ما يسمى بالعامى
والبلدى والدارج فى اللغة الفصيحة .. أفساد للغة وابطال لجهد
العاملين ، ومضيعة للأموال التى تنفقها الدولة المصرية على تعليم
اللغة العربية) - الى قول مجمعى سنة ١٩٥٨ : ان مما لاشك
فيه ان التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وأنه يرداد امكانا
فى العصر الحاضر - ايبين ان (خطة الفصحى كانت هى : اقامة
الحصون المنيعه حول نفسها ، والخروج منها الى مهاجمة العامية
فأما الحصون التى أقامتها فمثل وضع النحو وجمع اللغة ،
والدراسة المتصلة اذلك نله ، والاستظهار بالتأييد الدينى
والسياسى ، ووضع القوى لحماية تلك الحصون . ثم هى تهاجم
العامية بوسائلها هذه ، فتؤلف الكتب فى تتبع لحن العامية ،
تحصيه ، وتصححه وتندد به ، على توسع فى فهم للحن ، وأنه
الخطأ اللفظى أو المعنوى .. وعلى امتداد كبير لمنطقة الهجوم ،
فلا يوقف بالعامية عند الدهماء والسواد ، بل يدخل فيهم الخواص
والثقفون الذين يتسرب الخطأ الى أسنتهم ، ولو فى أبسط
صورة ..

.. وتلقى السامية هذا كله بقوة خفية ، توشك ان تكون
سحرية هى قوة الحياة ، وقوة المجتمع .. فهى من الحياة . وفى
الحياة . وهى تستجيب لسنن الاجتماع مرنة طيعة فلا تتأثر بتلك
المهاجمة ، بل مضت تنمو نموا مطردا ، فتشرى فى مفرداتها ،

وتزويد طاقاتها الفنية ، فتتخذ أوزانا للفن القولى جديدة ، غير تلك التى عرفتھا الفصيحة (١) . .

وضرب مثلا للاهتمام بالعامية ، والاعتراف بحظها من الصواب منذ بعيد ، بما فعله اللغوى المصرى أبو الحسن على ابن الحسن الفانى (كراع) فى القرن الرابع الهجرى ، حين ألف كتابه (المنجد) ، (فيما اجتمعت عليه الخاصة والعامّة من الألفاظ سنة ٣٠٩ هـ تقريبا) . .

٢٢

ثم ذكر أن السيد برقا أفندى محمد أمين، الكتبخانة الخديوية المصرية سنة ١٢١٠ هـ طبع مقدمة كتاب (التحفة الوقائية فى اللغة العامية المصرية) مبينا (الحاجة الى توحيد اللغة العربية ، والوسيلة النافعة لذلك) . . ووسيلة هذا التوحيد الواجب عنده أنه (لا يكون الا بتقويم أود العامية ، واصلاح فاسدها ، حيث انه بهذا الاصلاح لا يكون هناك فرق بين ما يدون فى الكتب ، وما عليه عرف التخاطب العام ، ولا يبقى أدنى امتياز فى مبادئ التعليم العمومية ، الا فيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة ، وذلك لا يضر بأصل الغرض المطلوب ، متى صارت لغة التخاطب هى لغة التدوين ، اذ من السهل بعد ذلك أن يراعى فى التأليف سهولة العبارة ، بحيث يستوى فى فهمها العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس على اختلافهم) . .

وبهذا تكون (فكرة التقريب . . فى مصر نفسها ، منذ أكثر من سبعين سنة أوضح وأقوى ، وأبين طريقا ، وأهدى سبيلا ، مما انتهت اليه الفكره اليوم فى المجمع) (٢) . .

(١) لسان العرب اليوم ، طبعة خاصة للمجمع اللغوى سنة ١٩٦٢ - ص ٢/٤

وقد نشر البحث فى مجلة الأدب - مايو سنة ١٩٦٢ - .

(٢) لسان العرب اليوم - ص ٨/٥ .

لذلك .. يـرجو للمـجمـعين (من المواقف العلمية ، ما يـرجوه رائد لا يكذب أهله ، ومؤمن هو مرآة أخية ، وذلك هو :

١ - ثبات الايمان بفكرة التقريب بين لغة اللسان ولغة القلم ، وصدق العزم الأخذ بوسائل ذلك .

٢ - توسيع مجرى التيار الذى رأيناه فى المعاونة بين لغة الحياة ولغة الكتابة ، وذلك يكون بالجد العامل فى تتبع كتب أسلافنا فى التصويب لقول العامة ، والظفر بها ونشرها بعد تحقيقها ..

٣ - تصحيح الصلة بين المجتمع والحياة ، بأن يكون تعامله معها أخذاً واعطاءً معا .. يأخذ ما أخذه أسلافه المصوبة ، من العامية فى الماضى البعيد أو القريب ، من صحاح كلماتها . ثم ما فى السنة الناس الآن من ذلك ليصنع من ذلك كله معجماً ، يسمى مثلاً ، لسان العرب اليوم .. يكون وسيلة تقارب وتفاهم يرد العربية عاملاً فعالاً ، فى قومية أهلها ، وألفة بينهم ، واتصالهم (١) ..

لكنك تسمع فيما أثير من تعليق على هذا البحث ما يحقق الظاهرتين الآتيتين :

١ - أن التطور اللغوى لا يأخذ مداه فى حياة الشعوب التى تتكلم العربية ، بل تصيبه نكسة ، أو ردة ، أو رجعة ، فينقلب على عقبه .. وتعود الدورة من جديد ..

٢ - أن اليقظة الحية فى كيان الشعوب التى تتكلم العربية لا تنتفع بـماضيها ولا تلتفت لما حولها ، ولا تستفيد من تجارب

أسلافها الأقربين أو الأبعدين . وبخاصة في الميدان اللغوى ،
بل في هذا الميدان ذاته تختلف الظنون ، وتخطئ الواقع ،
ولا تفعل فعلها في غيره ..

وأسوق اليك نتفا من هذه التعليقات موجزة ، لتقدر منها .
مابدا لى من وضوح هاتين الحقيقتين القاسيتين .. فمن هذه
التعليقات مثلا :

— أن البحث مقرون بالجرأة .. ولنتعاون مع العامة في
حيطة وحذر دائما !!

— مأخشاها هو التوسع في هذا الباب الذى قد يدخلنا في
معترك واسع مع بعض الأوربيين ، ممن نصبوا أنفسهم للدعوة
لاستعمال العامة !!

— أن هذه المسألة من الخطورة بمكان !!

وما أحسبك قد نسيت أن المقترح ليس الا العناية بصحيح
لغوى معترف به ، مدون في المعاجم والنصوص الأدبية ، وليس
موضعا لخلاف جدلى .. وهو شاخص قائم فى متن لغة القلم ،
وعلى ألسنة الناس ، وليس المراد الا اللفت اليه ، وتوجيه العناية
له ، فما الجرأة ؟ وما المعترك ؟ وما الخطورة التى بمكان ؟ (١)

★ ★ ★

فى ميدان التيسير والتقريب

ومن التيسير ما جاء فى (الجزء الخامس عشر سنة ١٩٦٢ ،
من مجلة المجمع اللغوى تعليقا للأستاذ الحسولى على ما اقترحه

(١) بين اللسان والقلم — الادب — مايو سنة ١٩٦٢ م .

الدكتور محمد كامل حسين من (أن العدد يجب أن تكون له حالة تتعلق به وحده ، دون نظر الى تمييزه . فيجب أن يكون هناك عدد خمسة ، دون أن يتعلق ذلك بخمسة رجال أو خمس نساء ، والاتفاق تام على أن حالة العدد مستقلا عن تمييزه هي (خمسة) بالتأنيث ، أما على أن ذلك أصل ، أو على أن تمييزه كلمة (عدد) مضمرة) ..

قال الأستاذ الحولى بعد أن عرض أقوال النحاة بالتفصيل وناقشها :

(نستطيع أن نلخص نتائج هذا التناول فيما يأتي :

أولا : صعوبة مخالفة العدد لمعدوده تزول بتقديم المعدود ، ولاحتجاج من المجمع الى اللفظ اليسير اليها ..

ثانيا : صعوبة مخالفة العدد لمعدوده تزول أيضا بذكر لفظ (عدد) قبل الرقم المذكور ، ووضع (من) قبل المعدود ، وهذا الوجه يحتاج الى قرار أو اعتماد من المجمع ، ان شاء الله ، وان شاء اكتفى بالتقديم في ازالة صعوبة المخالفة هذه ..

ثالثا : يمكن تثبيت الأعداد مؤنثة الألفاظ ، ويكون تمييزها مذكرا أو مؤنثا ، أو يكون بذكر لفظ « عدد » قبل الرقم ، وجر المعدود بمن) ..

وهذا يحتاج من المجمع الى قرار يعين فيه الصورة التابعة للأعداد التي لا تتغير مهما يختلف المعدود : على أن يذكر قبلها لفظ (عدد) ويجر بمن) ..

وأورد في (الجزء الثامن عشر) اقتراحا يقول :

(كل مالا علامة للتأنيث فيه من أسماء الحيوان ونحوه يصح تذكيره ، وإذا - أريدت أنثاه قيل أنثى كذا . .

وكل ما فيه علامة للتأنيث من أسماء الحيوان ونحوه يصح تأنيثه ، وإذا أريد مذكركه قيل ذكر كذا ، إذا لم يوجد له لفظ خاص) . .

وفي مؤتمر المجمع (١٠ يناير سنة ١٩٦٣) قدم بحثا تحت عنوان (مما أن تفعل) خلاصته :

(أنه لا وجه للقول بأن هذا التعبير يدل على الكثرة ، لأنه كما قال ابن هشام يدل على المبالغة في الكثرة ، وكما قال الصفار فيه التكثير والمبالغة ، ومع هذا لا تسهل افادته القلة) (١) .

وقدم بحثا آخر عن المركب المزجي . . جمع فيه صورا مختلفة لهذا المركب ، من أعلام الأشخاص وأعلام الأجناس والظروف والأحوال والأصوات ، ثم قال :

(ويمكن أن تصاغ كلمات بهذا الضم عند الحاجة ، ويعرض ذلك على المجمع ليقره ، ويدخله في معاجمه) . .

كما قدم بحثا عن تسكين الأعلام الثلاثة (محمد على حسن) أجزاء للوصل مجرى الوقف ، أو وصلا على نية الوقف . بيان موقعها مجتمعة في الجملة (٢) . .

هذا . . ولم يقتصر نشاطه في المجمع على ماسبق بيانه ،

(١) . مما أن تفعل - طبعة خاصة في كتيب سنة ١٩٦٣ - ص ٨١ .

(٢) البحوث والمحاضرات للمجمع اللغوي - ١٩٦٤ - ١٩٦٥ - ص ٨٠ .

بل : (كان مقرر لجنة الأصول يحمل رسالتها) ويعبر عن رأيها ولم يمر مؤتمر من مؤتمرات المجمع الخمسة (١) الماضية الا وله تحقيق في ترجيح رأى لغوى ، أو كشف عن رخصة ، تيسر أمر العربية على الباحثين والدارسين ، وأسهم في لجنة معجم الفاظ القرآن ، وأعد جزءا من أجزائه ، وكان له في لجنة الأدب تربيته وتقويم ، وفي لجنة القانون ملاحظات ومقترحات ، وكانت لجنة المعجم الكبير ترقب مشاركته واسهامه (٢) . .

(١) اشارة الى فترة وجوده بالمجمع .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ج ٢٢ ص ٢٣٩ .

البلاغة وفن القول

صور الأستاذ الخولي خطاه في هذا الميدان ، فقال :

« شاءت الأقدار أن أَدع مدرسة القضاء الى كلية الآداب بجامعة فؤاد ، لأمضى في هذا الدرس الأدبي ، فدخلت ميدان التجديد الأول ، على خبرة به ، و رأى ثابت عنه ، و خطة بينة فيه ، أدت عليها عملي في درس البلاغة وسواها .. »

وكان طلبة الحقوق - اذ ذاك - يتلقون دراسة في كلية الآداب ، يراضون فيها على القدرة الكلامية في عملهم بالقضاء والمحاماه ، ويمرنون على الخطابة ، وجو هذه الدراسة وهدفها يقضيان باتخاذ طريقة عملية ذات أثر ايجابي قريب ، بعيد كل البعد عن المحاولات النظرية ، فكان هذا أول ما ألزمني الخروج عن المألوف في درس البلاغة ، ومنعني الاعتماد على كتبها .. »

ثم كانت الدراسة لطلبة قسم اللغة العربية ، في هذا الجو المتجدد ، الذي اشرت اليه ، وبعد معاناة لهذا الاتجاه العملى ، فكانت ثانية ما الزمنى الخروج عن المؤلف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ، وكان الخروج على هدى من تلك الخطة التى وصفت آنفا ..

طفقت اتعرف معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة ، ولأدبى منها بخاصة ، وأرجع الى كل ما يجدى فى ذلك ، من عمل الغربيين وكتبهم ، وأوازن بينه وبين صنيع أسلافنا وأبناء عصرنا فى هذا كله .. وكانت نظرتى الى القديم - تلك النظرة غير اليائسة - دافعة الى التأمل الناقد فيه ، والى العناية بتاريخ هذه البلاغة ، أسأله عن خطوات سيرها ، ومتحرجات طريقها ، أستعين بذلك على تبين عقدها ، وتفهم مشكلاتها ، ومعرفة أوجه الحاجة الى الإصلاح فيها ..

وبذلك كانت الطريقة التاريخية ، مع الاستفادة بالحديث ، منهج درسى للبلاغة فى الجامعة ..

وجعلت أقف الوقفة المتأنية ، عند الجانب من جوانب حياتها ، أتولاه ببحث مفرد ينشر ، أو بدرس طويل ، وإن لم يخرج عن شئ مكتوب .. فأخرجت رسائل مفردة : عن (البلاغة والفلسفة) سنة ١٩٣١ ، وعن (مصر فى تاريخ البلاغة) سنة ١٩٣٤ ، وعن (البلاغة وعلم النفس) سنة ١٩٣٩ ، كما كتبت مادة (بلاغة) ، كتابة مستقلة ، فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٣٨ م ، فوصفت المعالم الكبرى لما انتهيت اليه من رأى فى التفسير ..

مضيت فى هذا الدرس المتأنى ، أمس مسائل البلاغة مسام رقيقا جريئا معا ، أقابل فيه القديم بالجديد ، فأناقد القديم ، وأنفى

غثه ، وأضرم سمينه الى صالح الجديد .. وتلك خطة لا تدوم في دراسة جامعية ، أساسها التجدد ، وحياتها في نماء متصل ، ولذا قاربت أن أفرغ من النظر في القديم ، بعد ما ضمنت خياره الى الجديد ، فألفت منهما نسقا كاملا ، يرجى أن يكون دستور البلاغة في درسها .. ومضيت أتناول أقسامه بالدرس ، قسما قسما ، وأدع في كل عام ما درستته الى غيره ، الا أن تكون إعادة شيء تقضى به حاجة الطلاب ..

وبهذا صارت البلاغة في الجامعة (فن القول) ، وان بقي لها اتصال يسير بقديمها ، تحوج اليه الصلة بين المعاهد المتعددة لتعليم العربية ، وما تجره تلك الصلة من منافسة ، قد تزعم أن ترك هذا القديم جهل نه ، فنبقى الطلاب صلة به ، ترد عنهم مثل هاتيك التهمة ، ريثما يستقر ما بين تلك المعاهد على حال مقبولة (١) ..

اذن .. فالمنهج الذي اختطه في دراسة البلاغة منهج متطور يقوم على أساس قتل القديم فهما ، وتعريته من العناصر الغريبة عليه ، ثم الانطلاق به مع الحاجات والدواعي الجديدة ..

يقول في (مناهج تجديد) عن منهجه في درس :

البلاغة

من محاضرات بدأ القاءها بكلية الآداب جامعة فؤاد (القاهرة) سنة ١٩٣٠ م ، ولم ينشر منها شيء ..

(أحاول بالتاريخ العلمي الصحيح للبلاغة ، أن أتعرف

ماضيها وحاضرها ، راضى طريقها الى مستقبل احيى حياة ،
وأقوى قوة (١) .

فهو يدرس (تاريخ مسائل المادة ، وقضاياها ، تاريخا
يصف نشأة المسألة وبدء ظهورها ، ثم تدرجها ، وكيف تنفس بها
القول ، واختلف التناول وأين استقر بها الأمر أخيرا ، بحيث يعطى
تاريخ المسألة سجلا يينا لعمرها ، وماطرا عليها اثناءه من تغير ،
يتضح فيه جليا عمق التفكير في المسألة ومدى ما صارت اليه من
سعة ، وما تأثرت به من المعارف البشرية ، او الأحداث
الاجتماعية ، وما أثرت هي فيه من ذلك ، أن كان) .

ويدرس (تاريخ العلماء ، وقادة الرأي ، من أصحاب
المذاهب والآراء المتميزة في حياة المادة ، بحيث تريكم في هذا
التاريخ شخصية أولئك الرجال في هذه المادة ، ونوع تناولهم لها
وأثرهم فيها ، وما تأثروا فيه بغيرهم ، ومالهم من أثر في غيرهم ،
وآفاق تناولهم لهذه المادة ، وما كان يلوح في تلك الآفاق من أضواء
وألوان ، توجه التفكير ، وتلون المزاج ، وتطبع الرأي) .

ويدرس (تاريخ التأليف والمؤلفات في المادة ، فالرجل بما
يفكر ويقرر ، قد يكون غير الرجل بما يكتب ويدون ، وما يكتبه
المؤلف يتلقاه عنه متلقون ، يختلف فهمهم له ، ويتجه اتجاهات
متغايرة) ومن ثم (نؤرخ ما كتب في المادة تاريخا ، نبين فيه عمل
المؤلف في كتابه ، ومن أين أخذ ، وبمن ، وبم تأثر ، وماذا زاد
أو جدد ، واسلوبه في ذلك ، وكيف عرض المسائل وسجلها) (١) .

ومع هذا التخطيط الواضح ، المرسوم بدقه ، فان الأستاذ
الخولى لا يعتمد الا (تخطيطا مبهما ، واشارات عامة ، لم
استنكف أن أدونها على حالها هذه ، طامعا ان يكون فيما تستأثر

به تلك الدراسة من وقت وعمر ما يحقق بعض ما تشير اليه تلك
المدونات الأولى) . .

ومن يرجع الى ما نشر من المحاضرات التي بدأ القساءها
بكلية الآداب سنة ١٩٣٠ ، وهي جزء من كل - كما يفيد قوله
عن (الاصطلاحات البلاغية المختلفة) ، (وقد أشبعنا فيه القول
هناك ، بما يهيئ لنا الإلمام الجامع الشامل هنا) مع أنه قد أعاد
النظر فيه ، كما يبدو من قوله : (أما حين تجدد تلك البلاغة ،
ونكون فيها نرجو لها من صورة يجعلها ما يلي هذا التاريخ من
محاولات تجديد البلاغة حتى تكون (فن القول على ماسياتي) (١)
من يرجع الى ما نشر ، لا يجد فقط المنهج الذي سار على خطاه
(الأستاذ) سيرا متواصلا ، بل يجد معالم بارزة لكثير من آرائه
النقدية . .

فمن خلال تاريخ البلاغة وبيان ادوار حياتها ، نتعرف الى
أنه (ما تظهر حقيقة من الحقائق ، في فجأة ، يظفر بها واحد
من الناس ، أو تنقدح في عقله انقداحا ، ولا تتحقق ظاهرة من
ظواهر حياة فكرة أو مادة ، أو بحث ، على يد رجل بعينه ، في
يوم من أيام الله ، يعتبر ميلادها على الأرض . . لأن ذلك سيجري
في مسارب خفية مستترة ، يكون آخرها هذا الظهور السدي
يحسب مفاجئا) (٢) . .

ويؤيد قوله هذا بالقاء الضوء على ما قيل في الأوليات
البلاغة ، وبخاصة كتاب (المجاز) لأبي عبيدة ، وما بعده ، الى
ما كتب عبد القاهر . . مع التأثير الكبير بما نقل عن اليونان -
وبخاصة أرسطو - (وثقافات الأمم التي جاسوا خلال ديارها ،

(١) المصدر السابق ص ٩٤/٩٣

(٢) نفسه ص ١٠٤/١٠٣

وخلقوا على تراثها ، ومازجوا بنية أهلها ، وتفاعلوا مع أبنائها
وفي ذلك نذكر السريان ، والعبرانيين ، والفرس ، ولا تغفل الهنود
واللاتين ، وسواهم (١) .

ثم بين غلبة المدرسة الكلامية على المدرسة الأدبية ، والتزام
البلاغة للمقاييس الفلسفية والقواعد المنطقية ، مما أدى الى
احتراق الفكر قبل نضجه ، وأصبح هذا (لفتا الى وجوب متابعة
العمل لانضاج البحث البلاغى . . . بما يعرض عليه هذا التخلف
الذى قضى به عليه البحث الكلامى فى البلاغة) (٢) .

وقد حدد سمات جمهور البلاغيين فى (أنهم - فى كثرتهم -
ذوو صلة مسا بالفلسفة وبيئتها ، سواء أكانت الفلسفة العامة
أم الفلسفة الكلامية الخاصة) ، و (أن كثرتهم من غير العرب . .
وإذا كانت عجمة مع فلسفة فقد كمل البعد عن مجالى الفن) ،
الى (عدم قيام رابطة مكانية بين نفر منهم ، فتكون لهم مدارس
منسوبة الى مكانها ، كالمدرستين البصرية والكوفية فى النحو
مثلا) . . .

وختم محاضراته بتعريف موجز بأصحاب المؤلفات
المتخصصة ، وبالمؤلفات أيضا . . .

البلاغة العربية واثـر الفلسفة فيها

ثم . . . عاود البحث عن أثر الفلسفة فى البلاغة العربية ،
محاضرا فى الجمعية الجغرافية الملكية - مساء ١٩ / ٣ / ١٩٣١ -
ممهدا بالحديث عن التجديد : (متابعة الحياة من حيث عاقبتها غفوة

(١) مناهج تجديد - ص ١٢١

(٢) المصدر السابق - ص ١٢٧

اجتماعية ، ومواصلة النماء من حيث وقفته عوامل جمود (١) ، داعيا الى أن يتبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه ، ليسكون كالطبيب كشفت له الأشعة عن ديبب العلة ..

ثم .. عرف كلامن البلاغة والفلسفة ، أخذنا يقول سقراط (حددوا الألفاظ التي تستعملونها) ، وبين أثر الفلسفة الإسلامية في البلاغة العربية (قويا باديا في نشأة البلاغة وظهورها .. قويا في تطورها وسير دراستها .. قويا في ضبط أبحاثها ، وتحديد دائرة درسها .. قويا في تعيين غرضها وغايتها) .. وتولى بيان ذلك (نقطة نقطة ، ومسألة مسألة) ثم عاد آخر الأمر (فعرض - بنظرة شاملة - لما كان لذلك التأثير من عائد على البلاغة ، وما جر عليها من نفع أو ضرر) .. وختم بحثه بأن (البلاغة تسمى أن لو لم يكن لها بالفلسفة تلك العلاقات السابقة ، وحيدا لو لم يكن لها الا تلك العلاقة العامة .. وهي عناية الفلسفة والبلاغة بالجمال ، فتعمل البلاغة العمل الصادق في درس الجمال القولي) (٢) .. ودعا معلمى البلاغة ومتعلميها فى أنحاء العالم العربى الى اعمال الفكر فى القضايا التاريخية والتجديدية التى عرض لها ، ولخص هذه القضايا فى آخر البحث .

مصر فى تاريخ البلاغة

وفى ٧ مارس سنة ١٩٣٤ ألقى خلاصة بحثه عن (مصر فى تاريخ البلاغة) بقاعة الجمعية الجغرافية ، معللا الدراسة الاقليمية بأن :

١ - (الاستقرار التاريخى الاجتماعى يشهد أن نهضات الفنون - على اختلافها - تسبق جميع نهضات الأمم ، وتتقدم

(١) نفسه - ص ١٤٣

(٢) نفسه - ص ١٧٥

حركات عظمتها وتجدها ، ثم يليها غيرها من النهضةات ،
بعد أن تكون قد مهدت لها (١) ، ولذا كانت (الحياة الأدبية
دائما خير ميدان لجهاد العاملين على رفعة الشعوب ، كما
رأيناها أبدا هدف اعداد النهضةات الساعين الى تعويقها) .

والعناية بالدراسة المصرية - حتى تستطيع أداء واجبها -
يقضى بها (ما لدراستها من الصلة والأثر ، في هذا الدور من حياة
مصر الناهضة ، فتغذى بهذه الدراسات المصرية الخاصة بحركة
النهوض المصرية ، وتمدها بما ينعشها ويحييها) (١) .

٢ - (تقوم الدراسة الصحيحة على العيان والاختبار ، ويعتمد
البحث الفنى الصالح على الادراك العميق للروح الفنية ،
وفهم أسرار الحس بالجمال فى البيئة المدروسة ، ونحن
بنى مصر ، ولا مشاحة - أقرب الناس الى مصر ، وإقدر
الناس على فهم مصر ، نحن نغزو فى الوادى ونروح ، تنال
أيدينا وعيوننا ، وعقولنا ، مواد دراسته) (٢) .

(واستطرد الأستاذ الخولى الى بيان رأيه فى تاريخ الأدب) على
أساس تقدير الأثر القوى لكل بيئة نما فيها أدب عربى .

وبعد تناول للبيئة المصرية الطبيعية ، والبيئة المصرية
الاجتماعية ، بما يميزهما ، بين ان دراسة أثر مصر فى البلاغة
يساعد على أن نظفر بصورة الزواج المصرى الخاص فى الأدب العربى
ونسلم آراء مصرية فى النقد ، تكشف عن الأثر الشخصى لتلك
البيئة المصرية فى العربية وأدبها ، وتكون لها من ذلك نواة أدب
مصرى وعصرى ، هو الصورة المصرية للعربية فى هذا الوادى
الأزلى) (٣) .

(١) مناهج تجديد - ص ٢١٩/٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق - ص ٢٢١ .

(٣) نفسه - ص ٢٢٦ .

ثم بين موقف مصر من المدرستين الأدبية والكلامية في البلاغة متوصلا الى أن مصر (لم تكن تساير المدرسة الفلسفية في المشرق ، ولا تتبعها ، بل كانت تنفرد عنها وتخالفها ، وربما لم تكن تتصل اتصالا قويا بآثارها ومؤلفاتها ، حتى بعد مضي زمن يسير على ظهورها .. و .. ان هذه الدراسة المصرية غير المندمجة في المشرق كانت أدبية الاتجاه ، عربية المنزع ، مخالفة في ذلك أكثر ما كان في المشرق من نزعة كلامية ... مع .. المشاركة القوية الواضحة الجدوى على حياة تلك المدرسة - الفلسفية - ورجالها ومؤلفاتهم والتوجيه الخاص الجديد لتلك المدرسة توجيهها انتهى الى ظهور مدرسة مصرية لها خصائص واضحة .. فقد .. عاشت بمصر المدرسة الفلسفية في رجالها وكتبها ، وأسدت اليها مصر المعونة والحماية ، لكن رجال مصر عابوا هذه الطريقة الفلسفية بروحهم الأدبية ، فقوموا بجفافها وجمودها ، وأدخلوا عليها روح أحياء أدبية ، غلبت على الاتجاه الفلسفي (١) ..

وختم بحثه بالتنويه بكتاب (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) للبهاء السبكى ، ودعا الى تدريسه بالجامعة والأزهر ، عارضا مظاهره المميزة ..

البلاغة .. مرة أخرى ..

وطالعنا دائرة المعارف الإسلامية - المجلد الرابع سنة ١٩٣٨ - يبحث آخر في البلاغة (١) ، كتبه الأستاذ الخولي (حين ترجم ما جاء في الأصل - الأوربي - فبدأ أنه ليس بلدى غناء) ، وفيه بيان لمعالم حياة البلاغة ، وخلاصة لفكرة تجديدها ، على أساس ..

١. - تقتصر على كلمة (البلاغة وصفا لجمال الكلمة والكلام ، ونوفر كلمة الفصاحة ونقسم الدرس الى بلاغة اللفظ وبلاغة المعاني ، وفي بلاغة الألفاظ نبحث عنها من حيث ان تلك الألفاظ أصوات ذات جرس ، ثم من حيث هي دوال على المعاني ، مفهومة لها ، ونبحث ذلك في المفرد والجمله والفقرة والقطعة ، ونقسم المعاني بما يناسبها ، حتى ننتهى الى دراسة فنون القول الأدبي المنظوم والمنثور فنا فنا ، وما به قوام كل فن وحسنه متخطين الفنون القديمة ، من المقامة والرسالة والخطبة ، الى الفنون الحديثة ، من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها . .

٢. - نضم الى البلاغة مقدمات جديدة لا بد منها لدراسة فنية ، تقوم على الاحساس بالجمال ، والتعبير عنه ، دراسة تتصل بالحياة ، وتحدث عن خلجات النفوس ، وأسرار القلوب ، وتسعد آمال الجماعة وآمانيتها ، وتغنى نصرها ، وتفدى طموحها ، كما هو شأن الفن الصحيح فى الحياة الجادة (١) .

البلاغة وعلم النفس . .

وفى سنة ١٩٣٩ نشرت مجلة كلية الآداب بحثه القيم (البلاغة وعلم النفس) الذى رسم فيه منهجه فى النقد ، ووضع الخطوط العريضة لفهم البلاغة والدراسة الأدبية . .

(ليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها الا البصر بخفايا الحس البشرى ، والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخله العاطفية ، ومسايرة الأمل ، والتحليق مع الخيال ، والوقوع على مواطن الهوى ومكامن الرغبة ، التى احتوت النفس منها أسراراً باهرة ، وقوى رائعة) . .

لذا يجب أن (تقدم بين يدي الدرس البلاغي مقدمة نفسية .. لندرك المعاني النفسية في الشعور بالجمال ، والتأثر به ، وتقديره ، ليكون قولنا في ذلك ، حينما نصنع مثله ، أو ننقده ، قولا معتمدا على غير اللمحة الخاطفة ، والملاحظة السطحية ، والهاجس الطائر ، وبهذا لا يكون فننا لعبا بالألفاظ ، ولا خواطر متناثرة ، ولا رعاية لمشكلات سطحية ، أو التماسات متكلفة ، كما لا يكون نقدنا فارغا ، معادا ، نضعه في كل بيت ، ونلبسه لكل قصيدة ، بل يكون فنا عميقا مغنيا للروح ، محدثا عما تجده النفوس القوية ، الشديدة الاحساس ، فيسحرها أن تسمعه ، ويفتنها أن يترجم عنها أصدق مما استطاعت ، كما يكون نقدنا وزنا مقاييسه حقيقة اختبارية ، وتقديرات دقيقة) (١) .

و (فن القور والبحث عن الجمال فيه ، كيف ، وبم يكون ؟) هو التبريف الجديد للبلاغة ، وصلة البلاغة بعلم النفس قديمة ، فكونها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) يراعى انكار السامع أو موافقته أو خلو - ذهنه ، كما يراعى ذكاؤه أو غباؤه أو عناده .. والأقدمون يتحدثون عن البلاغة (ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ) ، ويخالفون بين اضرب الخبر باختلاف حال المخاطب ، كما يفرقون بين المولدين والعرب ، ويتحدثون عن التخييل والايهام والوهيم ، والغيرة وفعلها في النفس وأثرها في اخفاء أشياء وحذف أشياء عند القول ، كما يتحدثون عن التشويق وطلب الاصفاء ، ومواضع ذلك ووسائله ، والطرق القوائية المثيرة له ، وعن الطمع والرغبة الملحة والاطماع والايناس ، وعن السرور بخلف الظن الخ .. وشرحوا - في اطالة - تنادي

المعاني ، وأنواع الترابط بينهما . فيما يبينونه من جامع وهمي
أو خيالي أو عقلي ، وحقائق تلك الحركات النفسية ، وفرق ما
بينها في تعمق (١) .

و (١) البلاغة من بين العلوم الأدبية هي روح الأدب ، والأدب
مادتها ، تعلم صنعه ، وتبصر بنقده ، ولن تعدو البلاغة ذلك
عند القدماء والمحدثين ، مهما اختلفوا حوله ، أو غيروا
حدوده . .

(ومن هنا كانت البلاغة أحق ما يتأثر بالتغيير في مناهج
دراسة الأدب ، وتظهر فيه نواحي التجدد ، في الغاية والغرض
من تلك الدراسة الأدبية . . وكانت صلة الفن بكل ما يصح اتصاله
به أعود على البلاغة ، وأبرز فيها تأثيرا ، فإذا ما تسامى الفن
القولى فاتصل بالفلسفة ، وعمق فزادت النفس خبرته ، ودق
فصح عن همسات الوجدان حديثه ، كان على البلاغة أن تقدر
ذلك له ، وتمهد طريقه إليه ، وتعينه على الإبداع فيه) (٢) . .

فن القول

دراسة مقارنة تصير البلاغة فن القول - ١٩٤٧م

قال فيه الأستاذ الخولي :

(من أهداف الأمناء ، أن يكون درس الأدب وتاريخه على
منهج تصححه الخبرة بالحياة ، والنفس ، والجماعة ، ويمثل
التقدم الانساني والرقى العقلي . .

(١) المصدر السابق - ص ١٨٤

(٢) مناهج جديد - ص ١٩١

وهذا الكتاب محاولة لتصحيح منهج درسنا للبلاغة التي هي
فوام الحياة الأدبية الصانعة والناقدة (١) ٠٠

عرض فيه ما سبق ان تناوله من مسائل البلاغة في أبحاثه
السابقة ، وزاد مقارنة بين قديمنا وحديث الفريين (أدناء
للجديد من افق القديم ، وتمكيناً للقديم من تمثل الجديد
وتلقيه) (٢) ٠٠

وختمه بعرض موجز سريع لمباحث فن القول ، وخطته . .
واذا كان الكتاب مجموعة محاضرات في (طلاب معهد
الدراسات العليا) الذي أنشأته وزارة المعارف - في أوائل
الأربعينات - (لتدفع مدرسي المدارس الثانوية الى النماء
المستمر ، وتصلهم بما جد في موادهم من اتجاه وتغير) ٠٠
فقد حرص على ايضاح واجب المعلمين ، وتوجيههم التوجيه
الذي ينهض بالدور الهام الذي يضطلعون به :

(فليست الصلة الواجبة لمعلمي لغة الأمة بمصادر التأثير
العصرى في حياتنا ، واقفة عند دراسة بعض المعارف الضرورية ،
من مسائل العلوم أو نوع الرياضة ، ليصيب المعلم ثقافة حديثة
تصله بمن حوله ، وليست الصلة بمصادر هذا التأثير العصرى
في حياتنا منتهية عند معرفة لغة من اللغات الحديثة ، والاتصال
الوثيق أو اليسير بشيء من أدبها ، وليست الصلة الموجودة في
معرفة دراسات المستشرقين للغتنا وآدابنا ، واعتناق آرائهم في
ذلك ، والترويج لها في اندفاع بغير تمحيص - ليس بشيء من
ذلك تكون هذه الصلة ، وإنما الصلة المرجوة بهذه المصادر تكون

(١) مقدمة فن القول ص ٥

(٢) المصدر السابق - ص ١٣

بتمثل النواحي المحدثثة التي اتجهت اليها الدراسات اللغوية والأدبية والفنية عامة في لغاتهم وآدابهم وفنونهم .. والشعور بأن أنماط الحياة الانسانية وأساليبها المتشابهة المشتركة تحوجنا الى مثل ذلك في حياة لغتنا وأدبنا وفنوننا ، وفي مناهج فهم ذلك كله ، وفي أساليب تناوله بالتأليف أو الجمع أو الشرح أو العرض التعليمي ، على أن يكون لنا مع ذلك كله الاتصال الشديد الوثاقة بقديم لغتنا وأدبنا وفنوننا ، اتصال ينال كل مستتر خفي ، ويجمع كل ما تفرق ، ويستخرج منه خير ما فيه ، ويعرف طابعه الخاص ، ومزاياه المفرقة بينه وبين غيره ، بعد معرفة مثل هذه الفوارق والخصائص لما عند الآخرين ، حتى يكون الأخذ على هدى وبصيرة (١) .

وبعد بيان للصورة البلاغية - افرادية وتركيبية - عند القدماء والمحدثين وما تنوء به الصورة القديمة من فكر المتكلمين ورجال الدين ، على حين تبدو الصورة عند المحدثين - مرتبطة ببقية الفنون الجميلة - أنضر وجهها ، وأبهى قسمات (٢) .

- بين أن دائرة البحث البلاغى عند القدماء مقصورة على الجملة ، ومحدودة بالألفاظ ، على حين تتسع دائرة البحث المحدث باتساع خطوات العمل الفنى الإيجاد والترتيب والتعبير (سواء أمر بها المتفنن متعجلا مقصرا ، أم متأيا مترشا .. ملهما مستوحيا ، أم متديرا مفكرا) (٣) .

وإذا كان الإيجاد قائما على الإرادة والملاحظة والقراءة

(١) فن القول - ص ٧/٦

(٢) فن القول - ٤٥

(٣) المصدر السابق - ص ٥٤

والتأمل والاخلاص .. الخ (يجب أن تقدرُوا ، وأنتم مدبرُوا
مزاج الأمة الفنى ، أن التكوين الادبى لبنيتها لا يتيسر لكم بنجاح
الا اذا بعثتم ارادة تلاميذكم انى الأهداف الأدبية التى تغرونها
بها ، فكانت لهم الرغبة فى ايجاد ما تريدون منهم ايجاده من عمل
ادبى ، والا فلن يقرأوا قراءة مجدية ، ولن يتمثلوا ما يقرأون تمثلاً
مفيداً ، ولن ينتفعوا بما ينتهى اليهم من ذلك انتفاعاً صالحاً ،
ولن يكونوا بعد ذلك الأشخاص الذين يحسنون استعمال اللغة
أداة من أدوات التعبير الفنى ومصدراً من مصادر القوة والمتعة
والحياة .. وانكم ايها المعلمون لتحسنون جد الاحسان الى
الفتية الذين تعدونهم ، اذا ما جعلتموهم يكتبون معانيهم الأدبية
من النظر فى الكون ، والملاحظة للموجود وتهيتوهم بذلك لانتظة
أوسع من الميدان الفنى ، وأشمل لحياتهم كلها فى عملهم وعلمهم لا
فى فنههم فحسب) (١) .

وتكلم عن منهج درس البلاغة فى البيئة الكلامية والبيئية
الأدبية ، وعما بين البيئتين من صلات ، وبين أن (البلاغة هى
الدرس الموضوعى الوحيد فى الأدب ، اذا كان ماعداها من علوم
الأدب انما هو درس للجانب الفنى من القول ، أو هو درس لايمس
الصميم من هذه الناحية الفنية) (٢) .

ودعا - مستعينا بمنهج المحدثين الى (ربط الدرس بالثروة
الأدبية للغة المدروسة ، ربطاً لا ينتهى عند التزامهم أيراد الشاهد
الفنى الأدبى ، دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى
الضابط ، ولا ينتهى عند اكثارهم من هذه الشواهد ، بل يمضى
الى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية تورد بجملتها ، لينظر فيها

(١) نفسه ص ٥٦/٥٧

(٢) نفسه ص ١٠١

نظرة متدوقة ، يشار عندها الى مالصاحب هذه القطعة من
روائع أدبية أخرى في مثل هذا الصنيع ، من تشبيه خاص ، أو
صورة تعبيرية موفقة وكذلك القول الى اشارات تاريخية ، تربط
هذا الفن الأدبي في اللغة المثروسة بأصولها في الأدب أو الآداب
التي كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة (١) .

وأفرد فصلا للغة والحياة ، تحدث فيه عن معركة الفصحى
والعامية ، وغلبة العامية بحيويتها ومرونتها ونمائها . . وبين
أن السبيل الى فصحي صالحة لعصرها لا فصحي من قواميسها
ومخلفاتها - دون معاداة للعامية ، ونسيان ما فيها من مادة
الفصحى وخصائصها - رهن بعمل معلم اللغة ، لوصل الفصحى
بالحياة ، وعمل المعلم قاموس ونحوى وبلاغى . .

١ - القاموس . . . مرتبط بظواهر أربع :

- (أ) كلمات مستحدثة لمعان مستحدثة . .
- (ب) وكلمات مقربة قد واثاها الاستعمال . .
- (ج) وكلمات مهملة قد أخطأها الاستعمال . .
- (د) وكلمات ترف : أصداد أو مشتركات (مترادفات) (٢) .

٢ - والعمل النحوى :

يعتمد على الاقناع بأننا نصقل القوة اللسانية ، والقدرة
اللغوية ولا نعلم لغة أجنبية (. . وعلى (تقريب العمل الاعرابي
في الفصحى بأشباهه القريية ، بل البعيدة أيضا ، من العامية ،

(١) فن القرار - ص ١٠٧ / ١٠٨

(٢) المصدر السابق - ص ١٢٨

أو اللغات الأخرى . التي يكون لتلميذنا بها عهد ، لئلا ينس إلى
أن هذا الإعراب في صورته المضطربة ، ليس شيئاً من صعوبة هذه
الفصحى وحدها (١) . .

٣ - والعمل البلاغي :

قوامه (أن أنماط الحياة وطرزها ووسائل تنسيقها ليست
إلا تطبيقاً مزاجياً وجدانياً ، يوجه أذواق بنيكم ، ويربيهم -
مزجتهم (٢) . .

وإذا كانت (غايات البلاغة اليوم غايات لا تلتبس لغيرها
من أغراض أخرى وراءها ، دينية كانت أو سواها ، بل تلتبس
وفاء بحاجة الحياة التي يحيها الفرد والجماعة ، وسعيها إلى
ترقية مستوى هذه الحياة ، وافتتاح آفاقها المعنوية (٣) . .

فأنا سنحاول تحقيق ما يلي :

١ - تحكيم الذوق المصري الخاص ، حين نتحاكم إلى الذوق ،
والقياس بالعرف المصري الأدبي ، حين نقضي بألفة أو
غربة ، وقبول أو نفرة . .

٢ - البحث عن أنماط التعبير ، وفنون التحسين ، التي أنس
إليها الذوق المصري أكثر من غيرها ، فنمنحها حظاً من
عنايتنا أو نقر . .

٣ - الانس إلى لغة الحياة المصرية في تشبيهها أو تجوزها ، أو

(١) فن القول - ص ١٣٧

(٢) المصدر السابق - ص ١٤١

(٣) فن القول - ص ١٥٦

استعارتها ، أو تكنيتها ، وجعل ذلك سبيلا الى
استحساننا كناية أو استعارة ، أو تفصيل تشبيه على
آخر ، أو ايشار مجاز على غيره ..

٤ - تخير نظر البلاغيين الذين ظهر فيهم أثر البيئة المصرية ،
لنؤيد به رأيا أو نعزز به اختيارا ..

٥ - تتبع آثار أدباء البيئة المصرية من شعراء وأصحاب نثر ،
نمثل بها ونستشهد فنصل بذلك ماضيها بحاضرنا ،
ونعمل بجد على إبراز خصائص الدوق المصرى وتميز
طابع الأدب المصرى الخاص ، الذى يقـدم الى الأمة المصرية
فى عروبتهما اللسانية أدبا ونقدا ، تمصر واحتفظ بالمحب
الى النفس المصرية ، الأثير عند المزاج المصرى ، فشـد
بذلك الرغبة المصرية فى ايجاد ادب خاص له شخصيته (١)

وأعاد القول فى صورة البلاغة ودائرة بحثها ومنهجها
وغايتها ، مقارنا بين ما عند القدماء وما عند المحدثين ، مبرزاً
نتائج المقارنات وكيفية تحقيقها ، تخلية وتحلية ، داعياً الى
مقدمة فنية (تنتظم خلاصة القول فى الفن وأصوله ومكانه فى
المعرفة الانسانية ، وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة
والعلم ، واجمالات عن الجمال ماهو ؟ وبأى شىء يكون ؟ وفى
أى شىء ؟ وهل استطاع قياسه ؟ وبم ؟ ، وكيف ؟ مع التعرض
الخاص للجمال الانسانى فى هذا كله ، واعتبار ماعداه من فنون
الجمال الاخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت اليه لفتا يقوم على اساس
ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة
الأدبية ، بما يقدرهم على القول الناقد ، والحكم الصادق ، فى

تناول دقيق ، وادراك عميق ، وحكم سليم ، وشعور قوى (١)
كما دعا الى بحث المعاني الأدبية والفنون الأدبية ،
والأساليب الأدبية ، وإزالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد
ثقافتنا على اختلافها ، وإبعاد الأبحاث التى أقحمها فى البلاغة
اضطراب المنهج . - واختلاف المناهج ، مثل البحث فى الصدق
والكذب ، والربط فى جملة الحال ، ومقدمة الدلالات ، وأنواع
الجامع فى باب الفصل والوصل وبيانهم للعقل والوهمى والخيالى ،
وشرحهم القوى الإنسانية ، وتعرضهم لغير ذلك من معارف ليست
فى شئ من هذه البلاغة ، ووجوب تمثيل المنهج الفنى تمثلا
واضحا ، والتزامه فى هذا الدرس التزاما صادقا ، ونحضر أنفسنا
من الرجعية الفنية ، التى تدّين بأن كل خير فى الدنيا قد تقضى
ولا نلزم دراستنا الطابع الدينى الذى لزمها يوم كانت غايتها
معرفة اعجاز القرآن ، ونشعر بعظمة الغاية التى نلتمس من أجلها
الدرس الأدبى وحيويتها ، ونثق بأن فى الثقافة العلمية والفنية
لهذا العصر ما ينبغى أن يلتمس ، ونزود ثقافتنا الأدبية بما
يجدى عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها (٢) .

وبهذا لم يقدم لنا مؤلفا فى فن القول على نسق مؤلفات
البلاغة ، بل وضع الخطوط لمباحث هذا الفن ، والخطوة التى تتبع
على أمل (أن تظل أبد الدهر - لو أمكن ذلك - رهن التغيير
والتعديل ، وهدف التجديد والتحسين ، يضيف إليها ، ويحذف
منها ، وينسقها من تهيات له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له
فيه بصيرة خبيرة ، يظل هذا الدرس للفن القولى ، صدى
لحياة أهله وسبيلا لتحقيق غايتهم فى الحياة الوجدانية (٣) .

(١) انصدر السابق - ص ٨٧/١٧٨ .

(٢) نفسه . ص ٢١٤/٢١٥ .

٢٢٠ ن فى الفن - ص ٢٢٣ .

دراساته الأدبية

كان الأستاذ الخولى - كما عرفنا - أحد هؤلاء الشبان الذين عبروا البحر الى أوربا ، واتصلوا - بحياتهم المتجددة ، وظل على اتصال بما يجرى فى مصر من مظاهر التجديد ، وما يدور من عراك بين المجددين والمحافظين ..

فلما أصبح مدرسا بكلية الآداب شغل نفسه بدراسات قرآنية وبلاغية ، على أساس من منهج حديث ، وضع اسمه ، وأصل قواعده ، وسار به نحو هدف بانت معالمه ..

وكانت أزمة الجامعة مع حكومة صدقى ، وتقل الدكتور طه حسين الى وزارة المعارف فدرس الأستاذ الخولى الأدب الجاهلى ..

ولما كان منهج الدكتور طه فى دراسة الأدب عامة (كما كان يدرسه القدماء فى عناية قوية باللغة والنحو والصرف والبيان

والغريب والعروض والقافية ، و . . كما يدرسه المحققون في
عناية قوية بفهم الصلة بين الأدب والشعب ، وبين الأدب وغيره
من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وفي عناية قوية بتحقيق
الصلة بين آداب الأمم المختلفة ، وما يمكن أن يكون لبعضها من
تأثير في بعضها الآخر - مع الاعتماد في درسه على إتقان اللغتين
اليونانية واللاتينية ، وعلى إتقان اللغات الإسلامية وآدابها ،
ثم على إتقان اللغات الأوروبية الحديثة وآدابها (١) . .

ودراسة تاريخ الأدب (كما يدرس صاحب العلم الطبيعي
على الحيوان والنبات ، لا أخشى في هذا الدرس أى سلطان ، وأنا
أريد أن يكون شأن اللغة والآداب شأن العلوم التى ظفرت
بحريتها ، واستقلت بها من قبل ، والتى اعترفت لها كل
السلطات بحقها فى الحرية والاستقلال) (٢) . .

(على هذا الشرط وحده يستطيع الأدب العربى أن يحمى
حياة ملائمة لحاجات العصر الذى نعيش فيه من الوجهة العلمية
والفنية ، والا فمالى أدرس الأدب لأعيد ما قال القدماء ؟ ولم لا
أكتفى بنشر ما قال القدماء ؟ ومالى أدرس الأدب لأقصر حياتى على
مدح أهل السنة وذم المعتزلة والشيعية والخوارج ، وليس لى
فى كل هذا شأن ولا منفعة ولا غاية علمية ؟ ومن الذى يستطيع
أن يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشرا بالاسلام ، أو هادما
للإلحاد ، وأنا لا لأريد أن أناق الملاحدين ، وأنا أكتفى من هذا
كله بما بينى وبين الله من حظ دينى ؟ (٣) . .

(١) فى الأدب الجاهلى - ط دار المعارف

(٢) المصدر السابق - ص ٥٧

(٣) فى الأدب الجاهلى - ص ٥٨

« منهج متحرر غاية لتحرر ، سبق أن أثار ثائرة الرأي العام
لأنه يخالف ما ألفه الثائرون ، ويشجب مما ورثوا .. فهل اتخذ
الاستاذ الخولى هذا المنهج المتحرر قاعدة ، أو اكتفى بأن يسير
على هداه ؟ !

أحسب أن الإجابة عن هذا السؤال سبقت فيما تناولناه من
منهج تجديده (١) ، ونحن الآن بصدد عرض أكثر تبسيطاً
لدراساته المتعددة فى هذا المجال ..

دراسات أدبية عامة (٢)

مذكرة للطلبة (المبتدئين) فى كلية الآداب ، جاء فى مقدمتها
(ان ما نزاوله من هذه الدراسة الأدبية الاجمالية العامة سبيل
الى اكسابكم مقدرة جديدة على حسن التعبير عن أنفسكم ، والابانة
عن أغراضكم الحيوية علمية أو غيرها ، ابانة جذابة مؤثرة ،
بعد أن تكون صحيحة مقبولة على قواعد لغتكم ، كما ان فى تلك
الدراسة شيئاً من التعريف بالمعالم الكبرى والمرامير النيرة
من البحث العلمى التاريخى الأدبى الذى لا بد منه لكل من يمشى فى
دراسة من دراسات كلية الآداب ، على اختلاف أقسامها ، بل
لأى دراسة أخرى) ..

ثم لم يزد على بيان اختلاف معارف الانسان باختلاف ملكاته
النفسية ، وقراه التى يتوصل بها الى تلك المعارف .. وعرف
بالأدب ووسائله ، وبالتاريخ الأدبى .. وبين عناصر الأدب من فكرة
واحساس وخيال وعسارة ، وختم القول بالحديث الاجمالى عن
فنون الشعر وفنون النثر ..

وأتم حديثه الى طلابه فى مذكرة أخرى ..

(١) انظر : أمين الخولى فى مناهج تجديده - ص ١٤٤ وما بعدها

ثقافة عامة وأدبيات (٣)

جاء فيها أن الاداء الفنى يعتمد على الابداع والتميز والتعبير (ثم عرف الأسلوب بأنه الشخص نفسه ، وقسم الأسلوب الى ، علمى وأدبى وخطابى ، وبين خصائص كل ، وطبق ذلك على أساليب نفر من مشهورى كتاب العربية ، ثم عرض عرضا سريعا لبعض المراجع العربية ..

منهج تفكير الجاحظ

وفى مارس سنة ١٩٣٧ م اقامت كلية الآداب بالجامعة السورية آنذاك - أسبوعا للجاحظ ، ألقى فيه الأستاذ الخولى بحثا عن (منهج تفكير الجاحظ) ، منتقدا الطريقة التى جرى بها ، داعيا الى :

(أن يسبق هذا التكريم نشر كتبه نشرًا صحيحًا ، وإحياء ما يمكن إحيائه منها) (١) ..

وبعد تعريف (منهج تفكير الرجل أو الجيل) بأنه (دستور حياتهما الفكرية ، يقرر أصول الحق ، وقواعد التعقل عندهما ، ومعيار النفى والاثبات ، والقبول والرفض)

- ذكر أن منهج تفكير الجاحظ يقتضى (تبين موقفه من مسألة أساسية هامة : هى مسألة المعرفة) (٢) ..

ولقد تناول الجاحظ المعرفة فى كتب كثيرة لم تصلنا ، وفى القليل الذى بين أيدينا ما يفيد أنه لم يكن سوفسطائيا ، لأنه

(١) مناهج تجديد - ص ٣٦٤

(٢) المصدر السابق - ص ٣٣٩

(راح ينفي الشيء ويثبتته ، ويحتج للشيء وضده) ، بل (كان يرى
امكان المعرفة ، ووجود الحقائق ، فقد أنكر أن يكون طريقها الالهام
ويبدو أن طريق المعرفة عنده الخواس والعقل ، على اتهام للحواس
وتوثيق للعقل) .. ثم ان الجاحظ نشأ في عصر تغل في الحياة
الدينية (من حيث المقالات الاسلامية والمناقشة بين أهلها) ومن
حيث النشاط بين أصحاب الديانات المختلفة في نشر دياناتهم
والدعوة لها ، وتخطف ضعاف المسلمين وأغرارهم في جسد ،
ومحاولات متنوعة ، حتى كان ما كان يشكو منه الجاحظ أن كل
إنسان من المسلمين كان يرى أنه متكلم وأن ليس أحد أحق
بمحااجة الملحد من أحد) ..

(ومن هنا يظهر تأثير المنهج الكلامي في أدب الجاحظ ،
ويفهم هذا الطراز من الأدب الذي كان يتسلح به المتكلم إذ ذاك
ونجد تفسير ظواهر كثيرة في حياة الجاحظ وتأليفه ، فانه تأثرا
بهذا المنهج يذكر لنا صنيع العربي في أنه يعاف الشيء ويهجو به
غيره ، فان ابتلى به فخربه ... فانه - كما يقول الجاحظ - ليس
شيء الا وله وجهان وطريقان ، فاذا مدحوا ذكروا أحسن
الوجهين ، و اذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين) (١) ..

وللجاحظ منهجه العقلي :

فقد اعتمد في غير موضوع على الرواية وهو بقدر حاجة
الإنسان الى رواية الآثار ... ويبين كيف كانت الرواية طريقا
للعلم ... ويرى ان الرواية يمكن أن تكسب اليقين ، وأن الخبر
إذا صح أصله وكان للناس حلة في نشره كان في الدلالة على الحق

كالعيان . . ويفرق بين عدم امکان اتفاق الناس على الخبر الذى لا أصل له ، وامكان اتفاقهم على الراى الخاطىء . . وانتبه مع هذا التقدير للرواية الى مواضع الضعف ؛ فقال : ان الكتاب أحب اليه من الحفظ ، لأن الكتاب لا ينسى ، ولا يبدل كلاما بكلام . . كما تنبه الى اثر العصبية فى التزيد والكذب فى الرواية كما لاحظ أن الاسستهار بسماع الغريب ، والغرام بالطرائف والبدع - يغرى بجعل السمع هدفا لتوليد الكذابين ، والقلب قرارا لغرائب الغرور . . . ولاحظ أن عوامل اشتهار الأخبار غير منضبطة ، قرب خبر كان فاشيا فدخل عليه من العلل ما منعه من الشهرة ، ورب خبر ضعيف الأصل واهن المخرج قد تهيأ له من الأسباب ما يوجب الشهرة وعاب الايسان بالرواية . . ونقد المرويات نقدا أدبيا ودينيا . . وقد ألم فى ذلك بقواعد لنقد الحديث ، تنم عن دقة واطلاع . . وكره تقليد المختلف عليه من الآثار ، دون التأمل والاعتبار . . ونقل عن أستاذه نقد المفسرين وأن كثيرا منهم يقول بغير رواية ، ونقد هو المحدثين ، وصفهم بالحيث عن التفتيش ، والميل عن التنقيب ، والانحراف عن الانصاف (١) .

و (قد أعوزه كثيرا نقد مايروى ، ولا سيما حين يحتج) . .
ولكن (حسبه فضلا أن تعد معاييه فى ذلك) . .

أما منهجه النظرى :

وقد اشتغل بالبحث العقلى النظرى فيما زاول من فلسفة الهية وطبيعية ، بل استعمل القياس الاستنباطى فى كل شىء ، حتى فيما عهد فيه أحيانا الى التجربة ، والمشاهدة

الواقعية - فالعقل لا ينكفئ عنده لتسيير العالم بدون شرع ، ولا بد من الأنبياء والأئمة ... ويصرح بأنه يؤمن بأشياء كثيرة خارجة عن نسق المادة ، ومع هذا نراه يعلن ما يوجد من حسن أو لذة في أشياء حرمها الدين ، كاطباق جميع الأمم على شهوة أكل الخنزير واستطابة لحمه ، ولكنه ... يحد العقل بالشرع ..

وعلى هذا التقدير نلاحظ خطوات تفكيره النظرى فى ترتيب تدرجى .. فهو يرى التثبيت ، ويتعوذ من التحال ما لا يقوم به . ثم يشك ليثبت ، ويقول : فأعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له ، وتعليم الشك فى المشكوك فيه تعلمها ، فنو لم يكن لك الا تعرف التوقف ثم التثبيت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه .

ثم هو يستعمل الاستدلال القياسى ، مؤلفا من قضايا نظرية ، وله فى هذا ملاحظة قيمة فى تصحيح الأصل المقيس عليه والتثبيت منه ..

لكن الجاحظ كان مطمئنا - على ما يظهر - الى الأسلوب الكلامى النظرى الذى يتناول الغيبيات ، ويخوض فى الالهيات ، معتمدا على القضايا العقلية المجردة ..

كان مطمئنا الى ذلك - أو على الأقل بالغ فى إعلان اطمئنانه - وفضله على المنهج الرياضى ، مع اتفاق المتقدمين والمتأخرين على أن الرياضيات هى العلوم اليقينية (١) ، ومناظرته يوحنا ابن ماسويه الطبيب على المائدة فى أكل السمك مع اللبن معروفة ..

(١) ص ٣٥٩/٣٥٥ منهاج تجديد .

ومنهج العلمى :

يقوم على ان علم الدنيا أمران : أما شىء يلى الحواس واما شىء يلى علم الحواس ، وليس كذلك علم الدين . . لكنه يرى مع هذا أن العالم المصيب هو : الذى يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال . . وهذه المحاولة فى بيان الطبائع محاولة علمية بأخصر المعنى فى ذلك ، وهو فى بيانها يعتمد على المعاينة ، ويقول انه لا يشبه الا المعاينة ، وكل قول يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة .

ويذكر ان كتاب الحيوان جمع معرفة السماع وعلم التجربة وان فيه الغرائب التى صححتها التجربة وأبرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان . .

ومع هذا كله فما ذكر للجاحظ انما هو ضرب من الملاحظة والمشاهدة ينقصه التكرار والتثبت والتحقق كما ينقصه تدوين النتائج ، سعياً الى استنباط قانون عام ، وينقصه فوق ذلك عنصر جوهرى فى المنهج التجريبي العلمى ، هو : الملاحظة والغرض والتجربة ، مع فهم الواقع المادى العلمى بعيداً عن مؤثرات ما وراء المادة ، أو الاعتبارات المعنوية ، دينية أو غيرها والجاحظ قد صرحنا بأنه انما يتناول هذا الدرس للاعتبار ببيان حكمة الخالق (١) . .

علم النفس الأدبى .

. . (حين نلتبس تهذيب أصحاب الفن القولى ، واعدادهم للبراعة فى الأدب انما نحتاج فى ذلك الى جهد صادق فى امدادهم

(١) مناهج تجديد ص ٣٦٠ - ٣٦٣

بالمعرفة الكاملة للنفس البشرية ، وقواها وملكاتهما ، لكي نحقق الصورة الصادقة المرجوة في فهم الفن ، والرياضة على الفنون ، ولا سيما فننا القولي ، وهو الأدب (١) .

قرر هذا الاستاذ الحسولي في بحث (علم النفس أدبي) الذي نشره في مجلة علم النفس - يونيه سنة ١٩٤٢ م - مهدي (الى الدين يرفعون القواعد من المدرسة النفسية في درس والادب وتاريخه)

وقد تناول فيه جهوده - منذ أواخر سنة ١٩٢٨ - في درس البلاغة والأدب ، راسما الخطوط الرئيسية لما ارتأى من جديد في ذلك ، وبين (أن القرآن قد راعى قواعد نفسية عن مظاهر الاعتقاد ، ومسارب الانفعال ، ونواحي التأثير وجوانب الانعقاد وألم من هذا بما أيد حجته ، وأظهر دعوته ، وكأن مثل ذلك من الخبرة بشئون النفس الانسانية ، مما لم يهتد اليه العلم اذ ذاك ، فوق ان يهتدى اليه هذا الأمل البادئ) (٢) .

(فاللمحة النفسية في المعنى القرآني كانت تكون أحسن الأشياء لخلاف بعيد الفور ، كثير الشعب بين المفسرين .. اذ .. عندما يبين وجه نسج الآية ، وسر صياغتها . ويعرف بجو الآية وعالمها برفع المعنى الذي يفهم منها الى أفق باهر السناء كان لولا هذا اللحظ النفسي يرتد ضئيلا ساذجا) (٣) .

وقد أجمل الباحث - في خطوتين - فكرته (في علم النفس

(١) المصدر السابق - ص ٢٢٥

(٢) نفسه - ص ٣٣١

(٣) مناهج تجديد - ص ٣٢٩

الأدبي) التي دعا إليها أعواما ، وعمل لإقامة الدراسة الأدبية عليها في الجامعة وفي سواها .

١ - وصل الأديب بأدبه ، بحيث نفهم الأدب بشخصية صاحبه كما نفهم شخصية الأديب بآثاره الفنية .

٢ - وجوب نظرنا الى أدب الأديب جملة ، وعلى أن له وحدة متماسكة ، ليتم بعضه بعضا ، ويتهيا لنا بتكامله فهم بعضه ببعض (١) .

رأى فى أبى العلاء :

وقد أشار فى بحثه السابق الى أنه قدم مثالا فى فهم فن أبى العلاء المعرى فهما نفسيا ، قدر فيه صلة الأديب بفنّه ، والفن بمبدعه فى كتاب (رأى فى أبى العلاء) (٢) الذى القى خلاصة رأيه فيه بمحاضرتين فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية (ابريل سنة ١٩٤٠) ، وأضاف فى مقدمته الى المنهج السابق ضرورة (الانتفاع الدائم المتجدد بما عرف ويعرف فى دوائر الدرس النفسى المجرب الدقيق لقوى الإنسان وملكاته ومشاعره وغرائزه) (٣) .

وتساءل : (أفلا يكون أهدى لدرس (أبى العلاء) ان يقوم به أحد أبناء بيئته ؟)

وأجاب : ان نعم . . لكن هناك أشياء فى هذا الدرس وفى الأديب المدروس ينبغى أن نقدرها . .

(١) مناهج تجديد - ص ٣٣٥

(٢) المصدر السابق - ص ٣٣٤

(٣) رأى فى أبى العلاء - طبعة جماعة الكتاب سنة ١٩٤٥ - ص ١٢

فأما في الدرس ، فاني إنما حاولت فهم الكيان النفسى لأبى العلاء ، وتبين سمات شخصيته الفنية قبل كل شيء ، وتركت ما وراء ذلك من بقية الدرس لأدبه لفظا ومعنى وموضـوعا ، وفى ذلك يكون ابن بيئته أهـدى منى وهو ، باق له . .

وأما فى المدرس ، فبعـدما أغـمض عينيـه مبكرا عما حوله من ظواهر الوجود ، عكف على باطنه يستلهم مذخوره ومحفوظه ، فخفف نوعا ما اثر البيئـة المادية عليه ، واعتمد على أقدار مشتركة من الميراث الأدبى للعربية ، وأخضع مشكلات الحياة والكون الكبرى لتأمل المتفـنن ووجدانه ، وأشرف من ذلك على آفاق بعيدة تلاقى آفاق التفلسف والتدين ، والتصوف فى سمعتها ، فدنا بذلك كله من نفوس متفهمى الانسانية جميعا ، بل متذوقى أدب العربية (١)

ومن أجل دراسـته (قرأت كل ما أحسب أن قد رأى الشمس من آثار أبى العلاء ، نثرا أو نظيما ، كاملا أو منقوصا) (٢) .

وكانت محاولة جديدة لفهم الكيان النفسى لأبى العلاء ، وأدراك العوامل المؤثرة فى حياته ، وتوجيهيها ، وتقدير شخصيته العامة ، على أساس من الواقع الجسمى والنفسى للرجل دون اسراف فى الفروض ، ولاذهاب فى الاعتبارات الادعائية الى حد بعيد (٣) .

وقد عرض فى هذه (المحاولة) آراء الشيخ المتناقضة فى المعرفة والزهد وتحريم الحيوان وكراهة الحياة والأسرة والمرأة

(١) رأى فى أبى العلاء - ص ١٤

(٢) رأى فى أبى العلاء - ص ٦

(٣) المصدر السابق - ص ١٦

والنسل والوحدة ، ليقرر أنه قد (تناقض في كل شيء مما للناس فيه اعتقاد وقول يحترمونه ، أو ليس لهم فيه رأى يلتزمونه) ، ورد على قول الدكتور طه حسين (أنه كان تناقضا مقصودا من غير شك ، قد ذهب به مذهب اللبس والتعمية قصدا الى التقية ، وهي مذهب معروف - بقوله : (فكيف تكون التقية تعليلا لتناقض أبي العلاء ، فيما لا موضع فيه لتقية أبدا ؟ ! ثم أن التقية اخفاء ما يكره الناس ويفضون من أجله ، أما حين يقول الرجل قولين متخالفين ، ويعلنهما على السواء ، ويجهر بهما معا ، فإن الناس سيأخذونه بالقول السوء ولا بد ، ولن يشفع له عندهم انه قال قولا حسنا ، وبخاصة اذا كانت المسألة مسألة العامة والجماهير ، أو مسألة المنعصين من الفقهاء المرتزقين بفقهم/ (١)

ونحاول بالبيان والتفصيل مفهوم الفلسفة ، وحدود المعرفة عند الدينين والفلاسفة ، وحظ أبي العلاء منها ، ليخلص الى أنه لم يكن فيلسوفا .

ليكن أبو العلاء رجلا ملما بالأبحاث، الفلسفية والمذاهب، وليكن قد ضمن شعره هذه المذاهب والأبحاث ، أو شيئا منها ، أو ليكن أبو العلاء حكيما ، كأولئك الحكماء الذين عرفهم العرب في الجاهلية ،

ورأوا في أشعارهم ثمار تجارب ، وخلاصة فكر ، وجمال حقائق عملية .

ليكن أبو العلاء شيئا من ذلك أو ما يشبهه ، أما أن يكون فيلسوفا ، يتخذ البحث والتفكير العقلي عملا له ، ويعتمد في

ذلك على مقبرة منطقية عقلية . مما أظن ، وما أظن . . فليس على المنطق العقلي تعرض أقواله ، ويحكم بتناقضها ، ويلتمس لها التعليل . .

انما أبو العلاء رجل وجداني ، أديب ، متفنن أو واعظ وخطيب أحيانا كما ستري (١) .

ثم ناقش تعليل (ابن سلفة) تناقض أبي العلاء بأنه (كان لا يستقر به قرار ، ولا يبقى على قانون واحد ، بل يجري مع القافية اذا حصلت ، كما تجيء لا كما يجب) - ذاكرا أن (صاحبنا ليس بالذي تغلبه القافية أو تضيق به ، وهو الذي التزم مالا يلزم ، ونظم الآلاف من الأبيات ، لم يتجمل فيها ضيق النفس ، ولا قلق القافية) (٢) .

ورفض تعليل الجاحظ بأن الأدباء (يكرهون أن يضيعوا بابا من اظهار الظرف وفضل الشأن وهم عليه قادرون) ، بأن (هذه العادات الأدبية التي يتمسح بها الأدباء في أشياء غير ما وجهه صاحبنا اليه فنه من مشكلات ومعتقدات لها حريتها ، ولها أهميتها) (٣) .

كما رفض التعليل بنزعة الخطابة والوعظ عنده ، والتعليل بالقول في المحاسن والأضداد ، منتهيا الى أن (السر في تناقض أو تغاير آراء أبي العلاء نفسى محض ، يرجع الى أمرين في نفسه ، أو الى ظاهرتين فيه : أولاهما : الرغبة المتوثبة في الاستعلاء على ضعفه والقهر لواقعته ، وهو ما ساد دورى حياته على السواء

(١) رأى نى أبي العلاء ص ١٢٤

(٢) المصدر السابق - ص ١٢٥/١٢٦

(٣) نفسه - ص ١٢٨/١٣١

قبل الثلاثين وبعدها - وثانيهما :دقة هذه النفس الشاعرة في ادراك عوالمها المختلفة ، وحوالها المتغيرة ..

ثم يؤازر هذين العاملين انقطاع ابي العلاء لتدوين خواطره وفراغه لذلك ، وتوافره عليه (١) .

وأبو العلاء (فيما عرف وصح نقله عن أسلوب حياته ... بعد تجربته طوال الدهر الأول من حياته أيام الشباب والأمل) كان (الصبر عنده أروح من تكلف الطلب ، لأنه يستطيع حمل نفسه عليه ، حين يعز عليه سبيل الطلب ووسائله) (٢) ، فزهد لم يكن رهينة ، وإنما (هو حال من القناعة) ، كما أن عدم اعتزاله ليس (لاحتياجه الى من يقرأ له ويكتب عنه) - كما يقول الدكتور طه حسين ، لأن الحاجة الى من يكتب أو الى من يقرأ ، لا يترتب عليها أن يشتغل أبو العلاء بالتعليم ، ثم يكثر سواد طلابه حوله ، ثم يزوره الناس ، ويكتبون اليه ، فتستحيل عزله الى أشد أنواع المعاشرة .. لكن غلب من نفسه ما بقى فيها من الفطرة الاجتماعية ، فلم يتهيا له الاعتزال ، فعلم وألف ، ولقى الزوار ، وتلقى الكتب ، وهذه البقية الفطرية التي لم يتيسر له التغلب عليها هي التي ظل حتى آخر عمره يعترف بدفعها له ، وتأثيرها عليه ، اعترافا دقيقا شجاعا ، صريحا (٣) .

ولا يفسر موقفه من المرأة والنسل (بالنفور من الناس ، لأنه خالط ، كما لا أحسبه يفسر بالفقر وقلة المورد ، لأن هذا الرزق الثابت كان يكفي أبا العلاء وخادمه ، فكان يكفي مع زوج

(١) نفسه ص ١٥٦

(٢) رأى في أبي العلاء ص ١٦١

(٣) المصدر السابق - ص ١٦٤/١٦٥

مكان مخادم .. وهبها الحاجة وضيق ذات اليد ، فهل تقوى
الحاجة على منازعة نفسه فلا يحاول الاتصال بالمرأة أبدا ، حتى في
عصر نشاطه واستعلائه على ضعفه وجده في سبيل النجاح ، حينما
كان يطمع ويطمح ؟) ثم ان (للمرأة مكانها في فن صاحبنا ، مهما
يكن القول الشائع عن رأيه في الزواج والنسل .. ولو اطمأنت
الى أثر الشعور النفسى في قوله ، لوجدت في غزله ووصفه مثل
الذى تجده في ذمه لهن ، وفقده ، اياهن من الدلالة على الشعور
بهن ، بل على الاتجاه اليهن ، ولذلك مثل غير قليلة ، حتى في
حديثه عن التسبيح والتمجيد. حين يطلب او يفري بالأجر
عليه) (١) .

(ان أبا العلاء فيما أرجح - قد منعه الزواج والنسل مانع
جنس غير الفلسفة والزهد، ولهذا المانع أثره الخطير في نفسية
الرجل ، كما كان لآفته المادية أثرها ، دارسو النفس الانسانية
خلقاء ان يزيدونا فهما لأثر هذا المانع في نفس الرجل) (٢) ..

في الأدب المصرى

وفى سنة ١٩٤٣ صدرت الطبعة الاولى من أمانى الأستاذ
الخولى في الأدب - المصرى ، مهادة (الى الشاعرين بأنفسهم) ،
مصدرة بمقدمة تلميذه (الدكتور) عبد الحميد يونس ، لأنه
(اذا ما كانت المقدمة تحليلا لكتاب ، وعرضا لفكرة ، فمن أحق
بكتابتها ممن كتب من أجده الكتاب ، وألقيت الفكرة ؟)

وهذه الأمانى قسمان : قسم عن الأدب المصرى ، وقسم عن
كيف تدرس الأدب المصرى ..

(١) رأى فى أبى العلاء ص ١٦٧\١٦٨ .

(٢) المصدر السابق - ص ١٧٨

(كلما قلبت الراى ، وجدت جميع الاعتبارات النفسية والوطنية والفنية ، تقضى بتوافر العناية بهذا ، بل تؤذن بإفراده وقصر الهمة عليه ، دون غيره ، الا ما يكون من ذلك وسيلة الى فهم هذا الأدب وتمثله ، أو ما يكون توسعا فى الدرس ، ورفاهية فيه ، بعد مالا بد للدارس منه) (١)

لكنه لم يتناول الأدب المصرى تاريخا وتوصيفا ، بل تناول من حيث (قضية العلم فى تاريخ الأدب .. قضية العلم التجريبي التى يقررها واثقا ، حينما يتحدث عن علاقة الكائن ببيئته ، وأثر تلك البيئة بنوعيتها ، من طبيعية واجتماعية ، فى الحى الذى يعيش فيها ويختص بها .. يقررها هذا العلم التجريبي واثقا حينما يرصد الفوارق الفاصلة بين البيئات ، ويدرك أن مصر تميزت من ذلك بميزات واضحة الفصل ، قوية التأثير فى التحديد والتمييز ، من بحار وصحار ، وبمقومات خاصة جعلت هذه البلاد وحدة مادية بارزة المعالم ، جليلة الخصائص ، ماثلة الفوارق) (٢) .

ولطبيعة الباحث الجدلية أورد آراء مفكرى الاقليمية سياسيا ودينيا وأديبا ، وفند هذه الآراء ليدعم ماذهب اليه ثم انتقل الى وصف المنهج الذى يجب ان تخضع له دراسة الأدب :

بين الأدب المصرى والفن المصرى

ونشر فى مجلة كلية الآداب - ديسمبر سنة ١٩٤٦ - مقالا تحت عنوان (بين الأدب المصرى والفن المصرى) يرد فيه على ما جاء فى بحث نشره الدكتور زكى محمد حسن عن (وحدة الفن فى حضور

(١) فى الادب المصرى - ١١

(٢) الادب المصرى - ١٧

التاريخ المصرى) جاء فيه (أن الفن فى عبور التاريخ المصرى
ليس وحدة تطورت تطورا طبيعيا ، وانما هو طرز مستقلة آ
بعضها عن بعض) .

وقد قدم الأستاذ الخولى بين يدي مقاله :

١ - أن الفن مادام فى حقيقته ليس الا نشاطا وجدانيا ، فهو
شديد التأثير ببيئته ، حتى ليستحيل عليه أن يتخلص من
تأثيرها الذى يقرره العلم ويبينه .

٢ - أن الفن القولى انما هو جانب من جوانب الحياة الفنية
العامة للجماعة أو الفرد . . فهو يجرى فى حياته وتدرجه
على ما تجرى عليه تلك الحياة الفنية على اختلاف صنوفها
ومن هنا يرتبط تاريخ الأدب بتاريخ ماعداه من سائر الفنون
بصرية أو سمعية .

ثم رد على ماذهب اليه الدكتور زكى محمد حسن (بأن
ظروفا طبيعية أو سياسية أو اقتصادية قد تطرا على حياة
الفن أو غيره من الكائنات ، فتعزها هذا عنيقا ، وتدخل عليها
صنوبا من التغيير الأساسى ، وتبدو كأنها قطعت صلته بماضيه
وقديمه ، لكن الدارس الدقيق لا يسلم مطلقا بهذا الانقطاع أو
هذا السير غير المتسق لتطور الكائن ، مهما يشتد خفاء سير هذا
التطور ، وتظهر المفارقة الكبيرة بين القديم والحديث ، لأن
الباحث واثق ثقة تامة أن هذا الحديث ليس الا وليد القديم
والعوامل الجديد ، ونتاجه للأصلين معا لا يمكنه أن ينقطع عنهما
وان اختلف نصيبه من كل واحد منهما ، أو بدا قربه منهما
لأحدهما وبعده الشديد جدا عن الآخر) . . .

وروى الدكتور أن (أعلام الاختصاصيين يقولون بأن الفن
القبلى لم يستمد عناصره من الفن المصرى القديم ، وانما أخذها

جميعا عن الفنون الهيللنستية ، وسائر الفنون المسيحية في اقليم البحر الابيض المتوسط) . .

فبين الأستاذ الخولى (أن الأستاذ المحترم يشغل بالزخرفيات ، وانما تلك الزخرفيات تطبيقات فنية لا فنون أصيلة وضرب مثلا بالشيخ الذى تحول الى (خواجة) ، ثم قال : بالنظر الأول يبدو أن الرجل قد تحول تحولا مفاجئا لا يتصل فيه حاضره بماضيه أبدا . . .) لكن وحدة المزاج الفنى ثابتة متسقة فى الشيخ الخواجة ، على أنها : اما أن تكون قد بقيت لم تتغير ، فظل ذوقه اللونى ودلالة اختياره لألوان التزيين واحدة ، مع اختلاف الموضوعين اختلافا جليا ، واما أن يكون مزاجه الفنى قد تطور بهذا الانتقال تطورا بعيدا أو قريبا ، فعدل عدولا تاما عما كان يتذوقه أولا ، فيكون هذا التقابل والتنافر مظهرا من مظاهر التطور الكبير ، لكنه تطور طبيعى ، ومتسق على كل حال ، وان كان التطور المزاجى للرجل قريبا بدت الصلة بشئ من التمعن . وفى كل الحالات يظل التعبير المزاجى متصلا فيه القديم الأول بالجديد الأخير صلة تقابل وانتقال كبير ، أو صلة تدرج وانتقال بطيء أو صلة تدرج وانتقال وسط ، وهو فى الأحوال كلها تطور طبيعى السير يمكن ضبط مؤثراته القوية أو الضعيفة أو المتوسطة ، وفى كل واحدة توجد الأسباب الطبيعية الفعالة لجعل التطور يتجه أحد هذه الاتجاهات) . .

وفرق الدكتور بين الأدب المصرى والفن المصرى ، فقال : (وقد يستطيع الذين يغنون بدراسة الأدب المصرى فى عصوره المختلفة أن يجدوا الصلات الوثيقة بين الآثار الأدبية فى مختلف عصور التاريخ المصرى ، وقد يلمسون أثر البيئة المصرية فى كثير من تلك الآثار ، على الرغم من اختلاف لغاتها وعصورها ، ولكن المشتغلين بدراسة الفنون لا يستطيعون الوصول الى مثل هذه

النتائج) فرد الأستاذ الخولى : (نلتزم القول بأن المؤثرات العامة في الحياة الفنية من بيئة وغيرها تؤثر في الأدب أثرها الخاص ، كما تفعل المؤثرات المناسبة للفنون الأخرى فعلها فيها ، فالانفصال بالبيئة ، وتسلسل التطور في طريق طبيعي متسق ، من الظواهر التي يخضع لها الأدب والفنون جميعا ، ولا يفترق فيها الأدب عن غيره ، ولن تتزعزع الثقة بتلك الأصول للمنهج الفني) . .

نقد الأستاذ ساطع الحصرى

وقد تعرض كتاب كثيرون لرأى الأستاذ الخولى في الاقليمية معارضين باسم العروبة والاسلام ، كما أشار في كتابه ، ولكن الأستاذ ساطع المصرى - أبا القومية ، كما يقولون - تناول آراء الأستاذ الخولى بشئ من التفصيل في كتابه (آراء وأحاديث في اللغة والأدب) (١) ، فأشار الى أن بؤادر هذه النظرية وردت في كتاب (مقدمة في بلاغة العرب) للمرحوم أحمد ضيف ، حيث قال في مستهل هذه المقدمة ما نصه (انها ليست آداب أمة واحدة وليست لها صفة واحدة) بل هي (آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات) .

وقد تولى الأستاذ أمين الخولى تنمية هذه البذرة وتقوية هذه النظرة ، وبذل في هذه السبيل جهودا كبيرة طوال مدة تدريسه في كلية الآداب (٢) .

ثم اشار الأستاذ الحصرى الى ما جاء في محاضرة الأستاذ الخولى (مصر في تاريخ البلاغة) سنة ١٩٣٤ ، من أن الأمة

(١) طبع دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٥٨ ط ١

(٢) آراء وأحاديث ص ١٣/١٤

الاسلامية المتزامية الأطراف ان (كونت جسما قامت منه العاصمة
في الشام طورا ، وفي العراق تارة ، مقام القلب من الجسم ،
وكانت مجمع النشاط ومعتور الحياة .. فان لسائر اجزاء هذا
الجسم عملها في هذه الحياة ، ومشاركتها في ذلك النشاط)
و (ان هذه الأمة الاسلامية في حقيقة الامر ليست الا خليطا غير تام
التجانس ، خليطا لم يصبر طويلا على التوحد المركزي ، حتى
في السياسة) .. ورد بأن : (عدم التمييز بين تاريخ الاسلام بوجه
عام وتاريخ العرب بوجه خاص - لهو من (المزلق الفكرية) التي
تورط فيها - ولا يزال يتورط فيها كثيرون من الكتاب والمفكرين
في مختلف الأقطار العربية (١)) .. ان كل ما قاله الأستاذ
الخولي في هذا الصدد - في الفقرة التي نقلتها آنفا - اذا برهن
على شيء ، فانما يبرهن على عدم وجود (أدب اسلامي) عام ،
ولكني لا أعرف بأن أحدا قال بوجود مثل هذا (الأدب ، كما اني
لاجد أي مساع منطقى لاتخاذ هذه القضية دليلا على (اقليمية
الأدب العربي) (٢)) ..

ويرد على ما جاء في قول الأستاذ الخولي من (اختلاف الأقاليم
في المقالات الاعتقادية والآراء الاسلامية) بقوله : هل خضعت
حقيقة الآراء الاعتقادية والمذاهب الفقهية الى العوامل اقليمية ؟
وهل توزعت فعلا توزعا اقليميا ؟ ان نظرة واحدة الى تاريخ
المذاهب تضطرنا الى الرد على هذا السؤال بالنفي البات ، فان
الآراء والمذاهب الاعتقادية والفقهية تهايرت وتنوعت كثيرا ، الا
انها لم تخضع لعوامل اقليمية ، بل خضعت لسلسلة من العوامل
الاجتهادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية .. ولذلك انتشر
كل مذهب الى اقاليم عديدة ، كما ان كل اقليم صار مسرحا
لتنازع مذاهب مختلفة ..

(١) المصدر السابق ص ١٥/١٦

(٢) نفسه - ص ١٨

والأستاذ أمين الخولي يطلب من دارسي الفنون الأدبية وتاريخها أن يقتدوا بدارسي الحياة الإسلامية الفكرية (فيدرسوا الأدب العربي اقليما بعد اقليم ، لا عصرا بعد عصر ، ولكنه يغفل عن أن باحثي تاريخ المذاهب لم يدرسوها اقليما بعد اقليم ، بل درسوها نوعا بعد نوع ، وعصرا بعد عصر (١) .

أما عن قول الأستاذ الخولي : (نحن نرى أن العلم يقرر أثر البيئة فعلا عنيفا ، ينازع الوراثة أثرها ، فكيف يريد علماء تاريخ الأدب أن ينسوا أو يهملوا تأثير البيئة) فان الأستاذ المصري يقول : شهادة العلم في هذا الصدد - عندما تفهم على حقيقتها - لا تؤيد نظرية (الاقليمية في الأدب العربي) على على حقيقتها - لا تؤيد نظرية (الاقليمية في الأدب العربي) بوجه من الوجوه لأن مفهوم البيئة - في نظر علم الاجتماع - من المفاهيم المعضلة التي تتألف من عناصر كثيرة جدا ، ومتنوعة تنوعا هائلا . . فان هناك البيئة المادية (البيئة المعنوية) والبيئة المادية تشمل الخصائص الجغرافية والمناظر الطبيعية والأحوال المناخية ، وبتعبير أقصر : كل ما يتعلق بالطبيعة المادية أما البيئة المعنوية فتشمل الأحوال الاجتماعية - السياسية والعلمية والأدبية والأخلاقية - وكل ذلك في حدود الأسرة والحرارة والقرية والمدينة والقطر والنقابة والحزب والمدرسة . . الى آخر ما هنالك من بيئات غير مادية . . وهذه الأمور كلها لا تختلف من قطر الى قطر فحسب بل تختلف من مدينة الى مدينة ، وحتى من أسرة الى أسرة في المدينة الواحدة فيلاحظ الباحث كثيرا من أوجه الشبه بين بعض البيئات القائمة في أقاليم متباعدة ، وبعبكس ذلك يشاهد كثيرا من الاختلافات بين بعض البيئات الواقعة في اقليم واحد ، بل في مدينة واحدة . . ومن الأمور التي تحتاج الى برهان ، أن

آثار الأدباء السالفين والمعاصرين تؤلف جزءا هاما جدا من (البيئة المعنوية) التي تؤثر في الانتاج الأدبي تأثيرا كبيرا (١) .

ومن الحقائق التي يجب الا تغرب عن البال ، أن الأدب العربي حافظ على صفته (الموحدة والموحدة) حتى في أسوأ عصور تفكك الدول العربية ، وتفتت شعوبها . . وحتى في خلال العهود التي ما كان يتيسر فيها الاتصال بين البلاد العربية الا على ظهور البغال والحمير ، وعلى متن الزوارق والسفن الشراعية . . والتي ما كان يتم انتقال الآثار الأدبية خلالها الا عن طريق الأخذ بالمشافهة والحفظ في الأذهان ، والاستنساخ باليد - فهل من المعقول أن يفقد الأدب العربي هذه الوحدة العريقة في هذا العصر الذي توافرت خلاله وسائل الاتصال بالبواخر والقطارات والسيارات والطائرات ، والذي صارت تنتشر فيه الآثار الأدبية بسهولة وسرعة هائلة عن طريق الطباعة والصحافة والاذاعة ؟ (٢) »

وبعد . . فما أحسب الأستاذ الحصري الا واجدا (في الأدب المصري) ما يفيد أن الأستاذ الخولي لا يريد الا تأصيلا منهجيا للدراسة الأدبية ، بعيدا كل البعد عن مفهوم التمزق أو التوحيد السياسي . . ثم ان مفهوم البيئة ماديا ومعنويا حدده الأستاذ الخولي تحديدا واضحا فيه ، بحيث لا يبعد عما ذهب اليه الأستاذ الحصري ، اذا اخذ نفسه بالمفهوم الجغرافي والطبيعي أولا والاختلاف في الظواهر الأدبية حقيقة مثالية امام من ينظر اليوم في الأدب المصري واللبناني والمغربي . .

(١) آراء وأحاديث - ص ٢٢/٢٠

(٢) المصدر نفسه - ص ٢٤

ولا أدري سببا لعدم الرجوع الى كتاب (فى الأدب المصرى) مع ورود نقد الأستاذ الحصرى متأخرا جدا .. ولكن الجو الذى صدرت فيه آراء الأستاذ الخولى كان ينوء تحت انفعالات سياسية بالغة العنف ، مما صرف الكثيرين عن تفهم المنهج العلمى الذى دعا اليه للدراسة الأدبية ، فخلط هؤلاء بين دعوة الأستاذ الخولى المنهجية وبين قول الدكتور طه حسين : (ان الفرعونية متصلة فى نفوس المصريين ، وانها ستبقى كذلك ، بل يجب ان تبقى وتقوى) (١) . (ان المصرى مصرى قبل كل شيء ، فهو لم يتنازل عن مصريته مهما تغلبت الظروف) (٢) .

(ان الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة الى الدم العربى ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء) ..

(تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ اى بلد آخر (٣) .

.. وظن الظن بكل دعوة تعكس ظلا خاصا ، وان كانت فى حقيقتها دعوة الى ترك (المصرية تعرف نفسها حق المعرفة ، لتعرف كيف تتصل بغيرها ، ولتتبين أساس هذا الاتصال ، ولتقدر نواحي قوته) (٤) .

و (ان الذى ينكر مصرية مصر تكذبه أهرامها ، وما اليها من سواطع ماضيها ، والذى ينكر عروبة مصر ، يكذبه لسانها ، وتنادي على خطئه مآذنها) .

(١) آراء واحاديث فى الوطنية والقومية لساطع الحصرى ط ٢ سنة ١٩٥٤

س ٩٧/٩٦

(٢) المصدر السابق - ص ١٠٠/١٠١

(٣) فى الأدب المصرى - ص ٣٧

(٤) المصدر نفسه - ص ١٣٤

والدكتور الأهواني

وقد تعرض الدكتور عبد العزيز الأهواني لموضوع الاقليمية في محاضرة له - في ذكرى الأستاذ الخولي سنة ١٩٦٨ بنادى القصة - فقال :

الى أى حد تصلح الاقليمية لدراسة الأدب العربى ، وتفسير الانتاج على ضوء البيئة ؟

ان افتراض شخصية متميزة لاقليم لا يخلو من خيال .. وهل يمكن أن يكون عنصر واحد سببا لتفسير الانتاج الأدبى ؟

راى (تين) أن الادب يدرس على هدى البيئة والعصر والجنس ، مفترضا أن الانسان ينتج الأدب كما تنتج الدودة الحرير .

ورأى المؤرخون أن (تين) أهل الشخصية الفردية .. اذن فالبيئة من عوامل متعددة ينبغى أن توضع فى الحساب ..

والبيئة العربية لم تكن من التفاوت بحيث تصبغ الأدب بصبغة متميزة ، كما هو الحال فى العمارة الاسلامية المختلفة عن العمارة القوطية (١) .

ومع أن الأستاذ الخولى لم يقل بتأثير البيئة وحدها - وهو صاحب المنهج النفسى فى الدراسة الأدبية ، وصاحب (راى فى أبى العلاء) وترجمة محررة لمالك بن أنس - فانه ضرب مثالين واضحين (ص ٣٣ فى الأدب المصرى) على أثر البيئة ، بالبريطانيين فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة ، والسوريين فى بلادهم

(١) نص عبارة الدكتور الأهواني ، والمحاضرة لم تكن مكتوبة ..

ومهاجرهم .. وقال بأنماط موحدة وأصول عامة كبرى للحضارة الإسلامية لا ينبغي أن (تصرفنا عن أدراك الزائد الخاص الذى تفردت به كل بيئة تفردا ، ليس هينا ولا يسيرا ، فى حساب البحث الدقيق والنظر المتعمق) (١) .

فالأستاذ الخولى يضع قواعد بحث علمية ، ولا تهمة النتائج حتى ولو جاءت على غير ما كان يتوقع ، لأنه (يبحث عن شئ يريد أو يفضل ، ولكنما يبحث عن شئ يصححه ويصدقه) (٢) .

أما ما قاله الدكتور الأهوانى عن (الشخصية الآزلية .. وأن التطور الاجتماعى يشكل من هذه الشخصية صورة تخالف الصورة السابقة ، وبخاصة أن هذا التطور انتقل من بيئة رعوية الى بيئة زراعية صناعية ، مما يجعل موضوع الشخصية الثابتة شخصية مهتزة) .. فان الأستاذ الخولى لم يقل بالثبات ، وهو الباحث فى تطور دلالات اللفاظ ، وإنما يرى (أن العلم الذى يرتقب الوراثة البعيدة بعد الأجيال الطويلة ، ويرصد آثارها فى الفرد منحدره اليه من أجداد بيته وبينهم عقود السنين المتباعدة ، والعهود المتمادية) - قادر على تتبع الأساطير والتقاليد والعادات والشعائر والمثل والقيم والأمزجة والميول وغير ذلك من ظواهر البيئة المعنوية ..

أما أن (الإنسان لم يعد مغلوبا للطبيعة ، بل هو غالب لها .. وأن البيئة لها دورها ، ولكنها ليست صاحبة الدور الحاسم ، بل لابد من مراعاة عوامل أخرى كالصراع بين البداوة والحضارة واستبحار العمران ، كما يذكر ابن خلدون ، وقيام المدن الضخمة ، ودخول الثقافات الأجنبية) - فالأستاذ الخولى لم يعارض فى

(١) فى الأدب المصرى - ص ١٢٨

(٢) المصدر نفسه - ص ٧٢

شيء من ذلك ، بل قال بأثر (التحرر الاجتماعي والاتصال
بالغربيين واقتباس صور الحضارة الأوروبية في الحياة اليومية) في
رسم الصور القلمية ، منذ تصدى للدراسة الأدبية في الجامعة
وقال عن البيئة المادية والمعنوية وأثرها على كل من عبد الحميد
الكاتب والجاحظ والهمداني في محاضراته الأولى .. ثم اتسعت
أبحاثه وعمقت عن المؤثرات النفسية والبيئية لأهداف منهجية .

مالك بن أنس .. ترجمة محررة (١)

(إلى الذين يقدرون تبعات القلم وما يسطرون) ..
بهذا الغمز الدال أهدى الأستاذ الخولى (ترجمة المحررة)
متخذاً أسلوب الفارس المقتدر .

(أبرأتها من آفات التراجم عند القدماء والمحدثين) فقد (كان
أصحاب الدرس الأدبي - حين تسعفهم طاقتهم العقلية ، وتمدهم
ثقافتهم العلمية - هم الأقدارين على كتابة هذه التراجم ، والتناول
الصحيح الدقيق لها) ..

(أن من كتاب التراجم عندنا من آخلوا بجوهره - التاريخ -
اخلا لا منع تراجم كتبوها من أن تاريخاً خليقاً بهذا الاسم ، حين
يطمع الفن في أن يعد نفسه دماً ذا حرمة ، بين أعمال العصر ..
وهذا الذي رنوت إليه وافتقدته ، وطمعت - في غير غرور - أن
يكون عملي في هذه الترجمة المحررة ، سعياً إلى تحقيقه ، إنما هو
صدى لمنهج عقلي ونقلي ، وفني وأدبي ، وينبغي أن يلتزم في
الترجمة ، حتى تكون ترجمة محررة حقاً .. ومن هجراى
المسيطرة أن أضع الكتاب مثلاً للمنهج ، وأصلاً فيه ، بعد أن

حرر القول في المنهج تحريراً لا بأس - أن شاء الله - في أن اعتده
العمل كل العمل في جيلنا هذا ، فمتى ما يستمر ويثبت ، يكن له
ما بعده ، من اشادة واجادة . . .

وأسس هذه الترجمة المنهجية : (الجمع المستقصى لمواد
الموضوع . . ثم النقد الفاحص لها . . يعقبه التفسير المبين لمرامي
هذه الرويات ، الكاشف عن دلالتها . . فاذا تبين ذلك ، أكان
العرض المعبر عنه ، في صورة مجلوة وضيئة) (١) .

وكان الأستاذ الخولي - وقد وضع بين يديه هذه الأسس
واتخذ طابعه العلمي - قد راجع نفسه ، وهدد من دلاله ،
فقال : (وعلى رغم ذلك كله لا أزنم أني قد نجوت من أثر الوراثة
العتيدة ، وجو البيئة المحيطة ، فلم أفسر بعض الرويات تفسيراً
مستهوياً ، أو مخدوعاً ، فان يكن شيء من ذلك قد كان ، فأنا على
أهبة الإصلاح له في أول فرصة مواتية) (٢) .

وختم مقدمته المستعنية بنفس الروح السمحة الطيبة التي
أفناها :

(هذه الترجمة محاولة راجية لتأصيل منهج سديد) (٣)
وليس علر الأستاذ الخولي في هذا الاستعلاء أن طالت
لفقته لصاحبه : (حتى جاوزت العشر السنوات ، أن نسيته بعض
الوقت ذكرته جل الوقت : اقرأ عنه ، وأفهم له ، واتعرف عليه) (٤)

(١) مقدمة مالك بن أنس ص د ط .

(٢) ص ق

(٣) مقدمة مالك بن أنس - ص د

(٤) المصدر السابق ٢٣٣/٢٣٤

بل عذره في صدور هذا الكتاب عقب أزمة (الفن القصصي في القرآن الكريم) ، التي كشفت عن أفلام معادية كثر ، ول بعضها في ميدان الترجمة اشواط ...

ولم يقف الأمر بين الطرفين - حول الترجمة - عند حد التعريض من بعيد ، بل كان صداما ذا قروح ، كما سيأتي ان شاء الله .. لذلك سننتقي خلال الصفحات الثمانمائة ، في اكثر من موضع - بهذه الدالة القادرة المعتزة بإمكانياتها سواء في عرض الروايات وفحصها ، أو في عرض آراء الأقدمين والمحدثين ووزنها أو في تناول بعض الموضوعات تناولا تكامليا ، كالحديث عن البيئة مادية ومعنوية ، بلغ مائة صفحة ، والحديث عن الرواية والفقه والرأى ..

وقد قسم كتابه ثلاثة أقسام :

الجزء الأول : عن حياة مالك الأولى ، عن تكوينه ، وتأثير البيئة فيه ماديا ومعنويا (استمعنا فيه بانصات يقظ للمرويات عن حياته في ذلك العهد ، فنقدنا منها ما وجب نقده ، وأقررنا ما غلب على الظن حقه) ..

والجزء الثاني : كان عن مالك الإنسان ، في بيته وأسرته .. حياته المادية ، وعاداته وأخلاقه ، وصلته الاجتماعية والسياسية بقومه ، والمحنة التي تعرض لها وآثارها ..

والجزء الثالث : عن مالك العالم : منهج تفكيره ، وتخليده : رواية ودراية وتصنيفا ، وفقهه ، وتقديره في الفقه قديما وحديثا ثم قدراته اللسانية والقلمية والتعليمية والكلامية ، وعن شخصيته العملية ..

ومن خلال هذا كله تحدث عن الوراثة وأثرها ، وعلل لظهور الفرق الدينية وقدم صورة احصائية لانتشار المقالات في الأقطار الاسلامية وشجب تقسيم التاريخ الاسلامي ادبيا أو تشريعيا أو ثقافيا الى عصور ، ثم تحدث عن واجبات المترجم وأهمية آثار العالم والفنى بين مصادر ترجمته ثم رسم لنا الطريق الى درس (الكتاب)، متخذاً (الموطأ) مثالا .

(ان حياة الكتاب موضع للدرس مفصل ، عن تلقيه ، وتدوينه ومن فعل ذلك ؟ وعن شرحه ، أو التعقيب والنقد والتتبع ، أو الاختصار والتقريب .. وما اليها) . بعد الكلام عن زمن صدوره (بين مادون من امثاله ، وعن تسميته ومضيئها ، ودلالاتها ، وما يتصل بذلك من دراسة لنشأة الكتاب وظهوره) . وبعد الدرس التاريخي ، فيه المجال الواسع للدرس الموضوعي ، قديما وحديثا كدراسة فقهه ، وأصوله ، وحديثه موضوعيا ، من وجهة نظر المالكية ، أو من الوجهة الجامعة ، في حياة الفقه والعلوم الشرعية العامة والمقارنة .. وكالذي توجبه الدراسة الحديثة المتعمقة ، من تحقيق نصه ، وتاريخ نسخه ، حتى نظفر منه بنسخة تمثل أدق صورة ، له خرج بها من يد الامام ، وكدراسته درسا موضوعيا مستجيبا للحاجة العلمية الجديدة في النقد والفحص والتعمق . وكل اولئك وما اليه مما تقوم به أجيال مختلفة ، لو أريد درس (الموطأ) درسا تاريخيا أو شرعيا فقهيا صحيحا) (١٠) .

مالك .. تجارب حياة (١)

وبعد صدور كتاب (مالك بن أنس) جرت معركة أدبية بين الأستاذين الخولى والعقاد ، امتدادا لما كان حول (الفن القصصى فى القرآن الكريم) .. وصدر كتاب (مالك .. تجارب حياة) يحمل طابع هذه المعركة ، بل كأن الأستاذ الخولى لم يمن بتقديمه الى القراء الا ليكون ردا على الأستاذ العقاد الذى قسا فى عراكه مع (الأمانة الأولى) فالكتاب ليس الا صورة ميسرة من الكتاب السابق (مالك بن أنس) ، أو هو صورة أخرى . خلت من الروايات ومناقشتها ، الا اليسير .

وقد جاءت المقدمة التى تقارب الأربعين صفحة نقدا لطريقة العقاد فى كتابة (العبقريات) ..

(يزعم زاعم ، تبريرا أو تقصيرا ، الا حاجة به - فى ترجمة يكتبها - الى تتبع الأخبار كافة ، والاعتماد على المراجع عامة ، لأنه فيما يقال - يجد مفتاح الشخصية فى شيء بذاته ، فلا يعنيه بعد ذلك أن تكون أفعال معينة قد صدرت عن صاحب تلك الشخصية بعد معرفة الأصل الذى يصدر به مثلها عنه ، فلا حاجة به اذن الى جمع أو تتبع ، على الوجه المتزمت المتخرج ، الذى يشير اليه ما تذكر من استقصاء .

لكن فى الأمر خطأ قلبت أوله آخره ، وآخره أوله ، وذلك أن أحدا لا يعرف مفتاح شخصية ما الا بعد أن يعاشرها ، ويحيط بعاداتها ، وأساليبها ، وميولها ، وليس الى ذلك سبيل ما فيمن غبر ومضى ، الا عن طريق التاريخ والخبر ، ولا تكون عشرة ، ولا معرفة يحل لصاحبها أن يفتح الشخصية ، ويقتحم الطوية ، الا

بعد احاطة أوسع وأعمق من إحاطة العشير الحي بتصرفات عشيره
الذى يغدو أمامه ويروح ، فتغنى الرؤية ، والخبرة والفطنة ، فى
ادراك تصرفاته ، وتبين أغراضه ، عن الكثير المكرر منها ، لأن
بعضها يدل على بعض (١) .

و (ليس من التاريخ ولا من العلم أن تتناول الترجمة دفاعا
عن المترجم له ، وردا لهجوم الهاجمين عليه ، ولا تقديرا لعظمته ،
التي هى كذا وكيت ، فى الدنيا ولدى الانسانية .. وليس من
ذلك فى شىء أن تسمى عبقریات : محمد ، وفلان من اصحابه
وفلان ، ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة ، فاذا
اسم الكتاب (فلان فى الميزان) . وانما الامر ان الكل جميعا فى
الميزان ، مهما تكن الظروف والأسباب فى الماضى أو الحاضر ..
فالكل ليسوا الا بشرا ، والكل يفهم ثم يحكم عليه ، ولا شىء فى
الدنيا ، من عقيدة ، أو تلقين ، أو محبة ، تحل الحكم أولا .
ثم الفهم ثانيا ، فى كتابة الترجمة التاريخية الاخيرة بأسباب
العلم (٢) ..

.. (ومن الموضوعية العلمية فى تلك الترجمة التاريخية ان
يتميز ادراك المترجم له ، بعصره ، وبيئته وذوقه ، وعاداته .
عن شخصية كاتب الترجمة ، وحال قومه ، ومنطق عصره ، وانجاه
رغباته ، فلا يحكم على شىء من حال المترجم مقيسا بهيله ، ولا
معتبرا بمثله ، ولا يسقط من نفسه على مشخصات المترجم له ما
يريده مما يعجب الكاتب ، ولا يقوم بهما يرضيه هو) ..

(١) مالك - تجارب حياة - ص ١١/١٢

(٢) مالك - تجارب حياة - ص ١٥

ثم ... انتقل الى بيان الترجمة الأدبية ، فقال :

(لقد قيل ان التاريخ يدون صنع السلف ، واما القصة الادبية فتدون ما يجب صنعه على الخلف ، وهى عبارة تشير الى أن القصة الادبية حين تعتمد الى التاريخ لتختار منه موضوعها انما تعتمد الى موضع العبرة ونتيجة الخبرة التى أدتها الحادثة التاريخية ، وانتهت اليها تجربتها ، دون أن تقف عند أخبار الحادث الجزئية ، تجمعها ، أو تنقلها ، أو تفسرها ..

.. بعض هذه الترجمة الأدبية قد يكون صورة قلمية كاملة لانصفيه ، ولا وجهة ، ولا جانبية ، وتكون ملامح تلك الصورة ، وأجزاؤها ، مما حدده وميزه شعور الكاتب نفسه ، خيالا أو واقعا لأن للكاتب ميلا خاصا ، وشعورا بعينه ، نحو صاحب الترجمة ، فهو يترجم الشخص كما تصوره ، أو كما تمثله أو كما يراه هذا الكاتب ، وتكون تلك الصورة مهما تكمل أجزاؤها صورة للمترجم له ، فى نفس الذى صوره - ولا عليه أن يكون التاريخ قد تصوره هكذا ، أو تصوره غير ذلك تماما - وهذه الصورة الأدبية لشخص تاريخي ، كما يجده صاحب الصورة ، انما هى تعبير عن شعور صاحب هذا القلم نحو من صورته ، أو ترجم له ، سواء أكان شعور الرضا والاعجاب أم شعور الكراهية والسخط ، ولا رقيب على مثل هذه الصورة للتاريخ والماضى الا الاعتبارات الاجتماعية من سوء وقع هذه الصورة أو حسنه ، على أخلاق هذا الشخص المترجم له ، وعلى الجماعة البشرية ، فيما تتطلع اليه من مستقبل مقيس على ذلك الماضى (١) .

(١) مالك - تجارب حياة - ص ٢٥/٢٧

لكن ... هل تقال الكلمة الأخيرة في التاريخ حتى حين يكون عصرنا يكتبه معاصرون

... (مادام التاريخ جمعا مستقصيا ، والاستقصاء التام لا يقف عند حد ولا ينتهى بزمان ، بل لا تزال هناك الفرص المواتية للعثور على روايات تاريخية ووثائق ، وشواهد . سواء فى قديم التاريخ الذى لم نعلم بالبحث الواجب عنه أم فى حديث التاريخ الذى لم تجمع له وثائق عندنا على وجه يعفى من المسئولية ، فبذلك يظل الباب مفتوحا على مصراعيه ، لتدخل منه الى ميدان البحث مواد جديدة من أخبار التاريخ ومصادره .

ثم يكون بعد ذلك النقد ، وهو متأثر بجديد ما يظهر ، من وسائل الدقة والتحري ، والفحص العقلى والعلمى لرويات التاريخ ومواده ، وجميع المعارف البشرية النظرية والعلمية ووسائل فى ذلك ، تقديم المتجدد من أسباب الدقة والتحري ، ثم هذا النقد متأثر أوضح التأثير بجديدة ما يضاف من أخبار تاريخية مما أشرنا الى عدم تطلعنا الى شيء منه .

فاذا ما كانت خطة التفسير النفسى والاجتماعى ، فكل ذلك متأثر أقوى التأثير بكل ما تعرف الانسانية كل يوم ، من حال هذه الدنيا المادى والعقل ، ولا تدرى نفس ماذا يكون غدا من علم الانسان بنفسه ، كلما زاد توغله فى أنحاء الكون ، فجاز الفضاء ، وأمن طريقه فيه ، وعبر الى الكواكب ، وعاش بها و ... و ... مما لا يقف عند غاية ... وقبل هذا البعيد قريب من الدرس النفسى والاجتماعى الدقيق ، نوعا ما ، لرجال تاريخنا المعروفين ، ولمجتمعات أسلافنا وما كان يضبط سيرها ، من سنن الحياة ، فاذا ما أضيف الى القديم - وهو كالمجهول تماما لدينا - جديد من خبر هؤلاء الأفراد والجماعات ، فقد تهيأت أسس التفسير للتطور والتحول المستمر الدائم (١) .

(١) مالك - تجارب حياة - من ٣٢/٣٤

تم عنى بالتجارب الحية من حياة (مالك) . . . وهى الهدف
الأول من تأليف كتابه . . .

وبعد شغل الأستاذ الحولى نفسه ببحث تاريخى أدبى ،
اشترك به فى مؤتمر المستشرقين الدولى المنعقد فى موسكو ، القاه
يوم ١٠/٨/١٩٦٠ تحت عنوان :

من روح التاريخ . . . صلات بين النيل والفرات . . .

وقال المستشرق يلايف فى مقدمة الترجمة الروسية لهذا
البحث : (أول مؤرخ عربى يتناول موضوع العلاقات التاريخية
بين النيل والفرات) . . .

. . . وكان من دواعى هذا البحث : الايمان بوحدة أصل هذه
البشرية ، وحدة لا يصح معها تداعى بعض الناس فى مختلف
العصر ، بأفضلية وتميز ، يصل الى هذا القدر من التفريق المحتكم
الذى ترتب من أجله الشعوب مراتب ودرجات !! (١)

والايمان بوحدة المصير الانسانى

فان شعورا وجدانيا يكبر هذه الغاية ، ويهفو اليها ، ويشعر
بأن الحياة لو لم تكن متجهة اليها ، كما تتداعى بها ، ولم تكن
ضحاياها الكثيرة قرابين لقداسة تلك الفكرة ، عن السلام العام ،
والمصير الموحد ، لكانت تلك البشرية تدمر نفسها ، وتنتحر بأقبح
وسيلة للانتحار وأبشعها ، فيما تحتمله من الآم لا يمكن أن يتقدم
لاحتتمالها كائن رشيد لغير غاية (٢) .

(١) مقدمة صلات بين النيل والفرات ط دار المعرفة سنة ١٩٦٤ - ص ٥٠

(٢) المصدر السابق - ص ٥٠

العمل لتدعيم المنهج التاريخي :

فمع هذا التقدم اليوم لم تعد تلك الدراسات تقنع بالنظرة العابرة ، واللمحة القاصرة .. بل راحت تقرر أثر البيئة بمادياتها والبيئة المعنوية بمؤثراتها - ومن بين المؤثرات الطبيعية ثم المعنوية - الهجرات البشرية ، كتلك - التي نقلت لمصر - بحسب موقعها - ما نقلت من - موجات الوافدين الآدمية ، التي كونت - كما يقول أصحاب - العلم - طبقات رسوبية فى كيان هذه الأرض وساكنيها (١) .

هذا الى أن : من وسائل التعارف الصحيح معرفة ماضى الصلات ، وسالف الروابط بين الأمم ، ولاسيما حينما يكون النظر الى ذلك الماضى نظرا واسع الأفق ، يستبين الحقائق الكبرى والتيارات العليا التى توجه الحياة ، وتحدد المستقبل ، ويكون مع ذلك النظر الواسع الأفق ترفع سمح ، يستنكف ان يتأثر بأى تعصب مهما يكن مرده ، من جنس - .. أو عقيدة .. أو عاطفة ، ثم يكون مع ذلك النظر الواسع ، والترفع النزيه ، اجلال للحقيقة وتقديس ، فلا تسخرها لمنفعة ، ولا نستبدل بها عرضا ، ولا ننخدع عنها بوهم ، ولو كان ذلك الوهم ملكا عريضا ، أو سلطانا كبيرا (٢) .

.. وبعد بيان لموقف مصر والشام من قوتى الصليبيين والمغول .

وبعد بيان أهمية هذه الفترة - مجال البحث - عرف

(١) نفسه - ص٠٥٥

(٢) نفسه - ص ٣/٢

الأستاذ الخولى بمنطقتى النيل والفلجا ، وذكر أن الروابط بين المنطقتين تتمثل فى :

(ان علم الأجناس لا يرفض أن يعد التتر والترك والمغول، دما واحدا ، وهو الدم الذى تسرب منه الى مصر ما تسرب فى عروق الممالك البحرية الذين يقول قائلهم ، وهو احد سلاطينهم ، ما عبارته : نحن والتتر من جنس واحد لا يتخلى بعضه عن بعض) (١) ..

... (من صسحراء قبجق ، ومن هذا الدم ، كانت كثرة تمثل جيش مصر ، وتحكم فيها ، ويتيسر لبعضهم أن يقيم أسرة حاكمة ، يظل الحكم يتوارث فيها بين نسله أكثر من مائة عام (٢)

ويستطرد فى بيان هذه القرابة بالاكثار من الممالك والجوارى والاختلاط بالمصاهرة والجوار ، حتى (أن هؤلاء الممالك القفجاقيين منهم قد كونوا طبقة دم ، فى كيان الشعب الذى يسكن مصر) (٣)

وقد تبودلت البعثات الدبلوماسية بين القاهرة وسراى - عاصمة مملكة القفجاق تتر الشمال - فبلغ عددها نحو خمسين بعثة ، فى نحو قرنين من الزمان ، أو أزيد قليلا .

وأهم ما سعت به تلك البعثات ، مكاتبة ومشافهة ، هو ما يشكل حلفا عسكريا بين النيل والفلجا ، يساعد على دحر الصليبيين والتتار الشرقيين ..

(١) صلات بين النيل والفلجا ص ١٧

(٢) المصدر السابق - ص ٢٥

(٣) نفسه - ص ٢٧

وقد حملت هذه البعثات هدايا من التحف والطرائف المادية أو الدينية الاعتقادية ، أو الثقافية العامة ، مما يكن مادة البحث فى نواحي الصلات المختلفة بين الاقليمين (١) .

والمصاهرة الملكية - قديما وحديثا - مما عرف اثره فى تقوية الروابط بين العروش وتوجيه سياسة الدول ، ولم تخل هذه الصلة بين النيل والفرجين من الانتفاع بهذه الصلة وتأثرت العلاقة بالمصاهرة ايجابا وسلبا (٢) .

وكان التجار ديبلوماسيين ورسلا سياسيين . . . وكان التجار ايضا جواسيس ورجال مشابرات ، وحينما رجال دسائس ومؤامرات . . . وكان التجار ثروة متنقلة لحكام بلادهم ، تعنيهم سلامتهم وأمنهم ، ويدخلون فى مشكلات دولية بسببهم (٣) .

ومع ترادف الاتصال بين الجانبين ، يقوى الشعور فى الشمال بالأهمية الدينية والسياسية للنيل ، أثرا لوجود الخلافة فيه ، وحكم الحرمين ، وما يتصل بهذا الجو ، ويسند هذه كلها المركز السياسى القومى لمصر فى العالم القديم كله (٤) .

وكان تبادل فى الأطعمة والأشربة واللباس والسكن ، وشاع حب الجنس ، مما قوى الروابط الاجتماعية بين الممالك والمصريين ثم كان تبادل ثقافى . . . وان كان الممالك قد تعصبوا للغتهم ، لدرجة أن منهم من كان يعرف العربية ، ويرفض أن يتكلم بها وقد أثر هذا فىمن أرادوا التقرب الى الحكام فعرفوا لغتهم (٥)

(١) نفسه - ص ٢٨ / ٢٩

(٢) نفسه - ص ٢٩

(٣) نفسه - ص ٣٤

(٤) صلات بين النيل والفرجين - ص ٤٤

(٥) المصدر السابق - ص ٧٠

وقد أثار وجود الممالك انظر في مقاييس الجمال ، لما تمتع
به هؤلاء الممالك نساء وضحية - من معالم جمالية باهرة (١) .

(هذه خطوط كبرى للصلات بين النيل والفلج ، في سبيل
الدرس الفني الصحيح والهدى الاجتماعي الكريم) (٢) ، ذيلها
الاستاذ الخولى بملحق عن البعثات الدبلوماسية بين سراي
والقاهرة وآخر عن المصاهرة السياسية بينهما . (٣) .

(١) نفسه - ص ٧٤

(٢) نفسه - ص ٧٨

(٣) لم أتناول معركة الفن القصصى في القرآن في نشاطه الأدبي ، إذ أفردته
ببحث خاص .

مواطن يتكلم

ان هذا الرجل الذى اتسعت به ميادين البحث العلمى فى مصر وخارج مصر - ظل دهره يفلح الأرض ، ويعمق جذوره فى تربتها ويغسل - بعرقه وجه الحياة فيها ، فشغلته مشكلات بلاده ، دقيقتها وجليلها ، وأهمته هموم مصر ، صغيرها وكبيرها ، .. ومن ثم لم تخطئه مواطن الداء فيها ، ووسائل العلاج لها ..

حين وقفت مصر تلود عن حماها سنة ١٩١٩ م ، وتضحى بخيرة شبابها فى سبيل استغلالها ، تقدم الصفوف مناضلا ، وشرع قلمه مقالا :

(ان حلاوتنا فى القول والفعل سئما طعننا ، وتجرعنا الألم الممض من عواقبها ، فما أحوجنا الى ملوحة تصلح النفس ومرارة تقوم ما فسد من المزاج) (١) .

(١) السفير - عدد ٢٠ فبراير سنة ١٩١٩ .

ورأى أن الوجود الاجنبى أصاب بلادنا بتمزق نفسى واسع
المدى ، فرزخ الكثيرون واستسلموا لضغوطه السياسية والثقافية
وما نقل اليهم من مردول عاداته وتقاليده ، فالتوت الأشداق
وغصت الحلوق ، وأصيب الكثيرون بنزلات فكرية حادة حتى
(طفت على هذا البلد عجمه وجحود ، جرفت أصول الشرقية في
دينها ولغتها فسادت الاستهانة بهذه الأمور وما يتصل بها وملا
الرئوس غرور لاندري ماذا تكون عاقبته ، بعد ما نرى ، إلا أن
تصبح أمة بلا دين ، ولا شعار ، ولا قومية ، لا لون لها ولا قوام ،
ولا وجود ، ولا كيان) (١) .

ونادى بأن يتطلع أبناء هذه الأمة الى ما ضيهم ، ليستروحوا
ريح المجد ويستشرفوا شرف الكفاح ، ويتخذوا من تاريخ بطولاتهم
سبيلا الى غد أعز وأكرم :

(١) هل يحرك ذلك أريحية خلفاء الأمجاد ، فينهضوا لبناء
مجد عملى واستقلال قوى ، وحرية صحيحة اللهم فاستجب) (٢)
وحين سافر الى أوربا وواجه الشرق الغرب على أرض
صلبة ، لم يضعف ، ولم يستخز ، ولم يعلن ولاءه ، كما فعل
الكثيرون ، وكتب يدافع عن تاريخ مصر (التى آمنت بالخلود ،
وجاهدت فى كشف أسرارها ، واحتالت له ، قد صار الخلود شعارها

(١) القضاء الشرعى - جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ هـ .

(٢) المقنظ - ديسمبر سنة ١٩٢٣ م .

للإنسان إلا ما سعى .. وأما العزة ففي إيمان تلك العظمة تأبى
أن تلتبس النجس برذيلة ، أو خبيث من السبيل ، مصممة أن
مقاليد الأمر ليست بيد أحد من البشر ، فتدل له أو تملقه ،
ويشغلها من ذلك السافل النازل أو الثافه العاقل ، عندها أبدا
أن لا اله إلا الله وأن الله أكبر ! ..

وفي العدد الثاني - ذو القعدة سنة ١٣٥٢ هـ - قدم لنا
(صاحب الفضيلة العالم البهائي) (١) سعيد بن المسيب ، مثلاً
لهذه العظمة ، عظمة عالم (لقبه معاصروه عالم العلماء ولكنه لم
يعش بالعلم ، فشرما يكون العلم حين يصير مرتزقا) - في مواجهة
حاكم (لم يتورع عن واسطة في سبيل غايته .. حارب وقسا ،
ونكث واغتال ، وضرى ضراوة الملك المستوحش) ..

وفي العدد الرابع - المحرم سنة ١٣٥٣ - كتب الافتتاحية ،
مناجيا الهلال بأسلوب أدبي أنيق ، ولم يخرج على ما اعتاد الكتاب
أن يفعلوا ، من اعتبار بالماضي ، استشراف للمستقبل ..

وقدم في نفس العدد (يحيى بن يعمر العدواني) الذي
(صدع بالحق في وجه ظالم ، كان البغض نادرة دهره) ..

سأله الحجاج الثقفي و (أرخص ما عنده الأرواح) :
واسمعتني الحن ؟ فقال له : نعم في حرف أحد .

فيقول الحجاج دهشا - وهو المشهود له بالفصاحة ،
المباهى بها ، في أي ؟! فيقول يحيى : في القرآن !! تحد بالغ
الجرأة من (أديب مبرز ، ثبت الجنان ، قوى الإيمان) ..

(بنى الحجاج مدينة واسط ، وبوده أن تكون عروس الدنيا ،

(١) الألقاب للمجلة .

وبهجة المدائن وهو من اعجابه بها يسأل الناس ما عليها ؟ واليابس
يرونها جحيم الحياة وأبشع السجون ، مادام هو صاحبها ، ولكن
ليس فيهم من يقوى على شفاء نفسه بكلمة .

وما كان يحيى بحيث يتردد ، أو يقلب الراى مثل ثقلينا
الساعة له ، فقد سئل ماعيبها ؟ فأجاب بروح من الله ، مسارعا
إلى الحق - يقول للحجاج ، للحجاج نفسه : بنيتها من غير مالك ،
وسيسكنها غير ولدك) .

منشور ثورى لا ريب فيه ، يلحق بمنشور آخر - عدد ربيع
الاول لسنة ١٣٥٣ هـ - جاء فيه (أن مولد محمد لم يكن خروج
جنين الى الدنيا ، ولا انفراج امرأة عن طفل فحسب ، بل كان
خروج انسانية من قبر ، ونجاتها من عنت وعناد ، وانفراجا
لضائقة من الاستبعاد والذل والاشفاق ، وان لهذه الذكرى لما
يوائم فضلها ، ويلاقى عظمتها ، ويضارع جلالتها فى الاحياء) .

ويفتتح العام الثانى للايمان - المحرم سنة ١٣٥٤ هـ -
بحملة قاسية على مجتمع ذل فهان والتبست عليه القيم ، فضاع
وغره الغرور . . فى لجة (أفغانية) عالية الرنين .

(محرم وأخزى الحرام ، أن يكون لأعداء دينكم ودنياكم كل
ما أكنت أرضكم وحوت بلادكم وأورثكم أجدادكم ، يطئون منكم
الهام ، ويركلونكم بالأقدام ، وأنتم غارون غاقلون ، بل أموات
لاتبعثون ، كسباؤكم من سؤالهم ، وما عونكم من عطائهم ،
وغذاؤكم من فضلاتهم ، وكسبكم من بقية ما تخموا به وعافوه . .
حتى ضرب الذل على أبناء من انبعثوا بالأمس ليحرروا الناس

ويمنحوا الكرامة ، ويهيئوا للإنسانية نعمة الخلاص من عبادة
الأفراد ، وسيادة الآحاد . . .

محرم . . . ومحرم . . . ومحرم ، أن تضج الدنيا حولكم ،
ويأتمر الناس بكم ، وأنتم ترون وتسمعون فلا تفقهون
ولا تعقلون

وفي العدد الثاني - صفر سنة ١٣٥٤ هـ - يتحدث إلى
(الهيابين طريق الكرامة ومن يؤودهم الأبناء ويعز عليهم الترفع) ،
الذين يرون صعوبة التمثل بما يقيم من مثل عليا في العظمة النفسية
بأنه (مهما تكن قد عبثت بكم أعاصير الحياة ، فلن نياأس من أن لكم
نفوسا ، وأن لكم عقولا ، وأن في صدوركم مصدر قوة . ومعين همة
لو رجعتم إليه لأنقذكم وأسعفكم وأمدكم بشمم وكبرياء) . .



ثم وعد بأن يتم حديثه في عدد قادم ، ولم يفعل ، لأن إدارة
المجلة خضعت لمن لا يأنس اليهم ، ولا يجد سبيله معهم . .

مع السياسة الأسبوعية :

وحين نشر الأستاذ توفيق الحكيم في العدد ٢٤٠ من مجلة
الرسالة - ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٨ - تحت عنوان (من برجنا
العاجي) . . .

(التجارب هي إحدى وسائل (العلم) ، ولعل ساعة
(التجربة) هي أمتع لحظات (العالم) . . .

خطر لي مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة ، أن أضع امرأة فاتنة
بين اخواني الأدباء الأفاضل : العقاد وطه والمبازني وأحمد أمين
والزيات والبشرى ، ثم أنظر بعد ذلك ما يكون . . . إنني على ثقة

انهم لن يناموا ليلتهم قبل ان يسيطر كل منهم على الورق اشياء
قد تكون من أجمل ما كتبوا . .

كتب (الأستاذ الكبير أمين الخولي الى تلميذه الأستاذ
سيد نوفل) العدد ٦٨ من السباسة الأسبوعية - ١٩/٢/١٩٣٨
تحت عنوان (أدب العصر) :

.. (المعادلة التي أقدر بها المعلم الموفق والتلميذ الناجح .
ان التلميذ اليوم = أستاذه + فرق الزمن بينهما ..

.. انى على هذا التقدير اجد عندك من علم (الفرق بين
الزمنين ، مابه أسألك أن تحدثنى عما لا أفهم من زمنكم ، وتعلمنى
من امره مالا أعلم) ..

.. (لقد كان فى العرب جوار كالشموس ، لأنه كان فيهم
كمأة شوس وكان فيهم زهاد رؤوس ، يهزون العروش ، ويدلون
التيجان ، ويرمون الطغاة برؤوسهم مجتمعين اذا لم يشف منهم
القول ولم يكف مادون الموت من فعل .. بهذا كانت تتعادل الحياة
وتعز الدولة ويجهد الناس ، فيغنيهم بعد الكد وقبل الموت فن
له رفته وفيه عذوبته .

أما أنتم فقد كثرت شموسكم ، وفاضت أنواركم حين
ماتت شوسكم ، وذلت رؤوسكم ، وبقي لكم شهداء الوحى المستقطر
من الشفأة .. فهلا يفعل الله بكم خيرا يا صديقى لو أسكت كل
متكلم فى الأدب عشرين حجة أو أكثر ، حتى يتكلم فيكم أحد بغيره
وحتى يكون فيكم رجال يغنون ويمتعون ؟) ..

وتتايعت أقلام الأستاذ سيد نوفل وعبد الحفيظ أبو السعود
ومحمد حاج حسين تؤيد ما ذهب اليه الأستاذ الخولى .. لكن

الأستاذ الوفيق الحكيم لم يبال بما أثير حواه ، فكتب موضحا -
الرسالة ١٩٣٨/٤/٢٥ :

(ان نفس الاديب العارية كل ماينبغى له ان يضعه تحت
انظارنا ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقا بأديب ، فالأديب هو الآدمي
الوحيد الذي خلق لكي يفتح لنا نفسه ، لنرى من خلالها النفس
البشرية. قاطبة ويتحدث لنا عن نفسه ، فتري من خلال حديثه كل
تجارب الانسانية الشاعرة ! ..

وكان الحكيم لم يقرأ ماكتب الخولى ، او كأنه لم يدر بخاطره
ان ما عيب عليه ان يجرى تجاربه على الشمس والاقمار ، هكذا
في رائعة النهار ومع سبق الاصرار .

لذلك لم يعاود الأستاذ الخولى الكرة ، بل فتح ثغرة أخرى
هاجم منها دار العلوم وتفتيش اللغة العربية في مقال (الجيش
واللغة .. مفتش ومفتشان) السياسية اليومية ٣ مايو سنة
١٩٣٨ ، والسبب ان صحيفة الاهرام نشرت خبرين في نهر واحد
أحدهما عن (مناورة جوية) والثاني عن (اصلاح دار العلوم) .

ويبدو ان الأستاذ الخولى لم يتناول (الحدث) من حيث
حاجة الميدانين الى التفتيش بل أثاره ضد (اصلاح دار العلوم)
كونه ينادى بتوحيد الدور التي تعلم العربية - الآداب ودار العلوم
واللغة العربية بالأزهر - فقد عاد الى هذا الموضوع حين بدأ يكتب :

هتافات .. بالبلاغ عام ١٩٣٩ :

وقد جاء في مقاله الأول (ايها الشباب تقديم) - ١٧ فبراير
سنة ١٩٣٩ :

(ان تعدد هذه المعاهد لتعليم العربية في مصر التي هذا حالها
عبث ان يقضى عليه توا ، ونحن في المعاهد الثلاثة متضامنون في

هذا المطلب ، مصممون على القضاء لتفتح أبواب أخرى للعمل
تقوم بمرافق مصر الناهضة ، ويجد الشباب جده متضامنا مضجيا
لا متخاذلا متقاتلا) . . في الوقت الذي تنوء مصر بمشكلاتها
(الضعف الصحي المستحكم، وما تنخر الأمراض المتوطنة وغير المتوطنة
من أسس الحياة المصرية . . جهل شائع يجعل الأميين كثرة مصر
المطلقة وسوادها الأعظم . . التدهور الاقتصادي الذي يعطل
مرافق الحياة فيها . . جعل الوجود من مرافق البلد في يد
الأجنبي ، وتسربت كثرة المقار في المدن الى يد الأجنبي ، والأراضي
الزراعية على الطريق لا تدركها تسويات عقارية ، ولا تنقذها اسعافات
حكومية . . اختلال التوازن الاجتماعي في كل شيء : في مستوى
المعيشة ، وتوزيع الأرزاق في تنظيم التعليم ، في توزيع القضاء ، في
خلق الوظائف ، في اعداد السكان ، في الاستعانة بالأجانب
وفي ، وفي . . تدهور خلقى حال بين مصر وبين كل ما هو خير
المدنية وحياة أوربا وأظفرها من ذلك بكل مفسد متلف) . .

**وتحت عنوان (أيها الشباب . . آمن بالوطن واكنس
(بالسياسة) عدد ٢٧ فبراير - سنة ١٩٣٩ - قال :**

(كان الشباب سنة ١٩١٩ - يهتف اذ الهتاف ثورة في
وجه الحكم العسكري والقوة العسكرية ، او يتظاهر اذ التظاهر
تمرد وعصيان ، يجمع بالحديد والنار ، وباهول من ذلك . . كان
يدرك أن لابد للحياة من عمل جاد ، وتأسيس قوى ، فدعم مع
مظاهراته ومقاوماته بنك مصر ، تدعيما للوجود الاقتصادي . . وأما
وحق الوطن ، لقد التقت تبرعات الاسلحة بأثمان أسهم بنك مصر
واختلطت هذه بتلك) . . و (دار الفلك دورته ، وقطع الزمن
أشواطاً ، ومضى الشباب - سنة ١٩٣٩ - يشتغل بالسياسة ،
فماذا كان ؟ . . كانت مظاهرات لا اواجهة الحكم العسكري ،

بل للتهانى ، والتبريكات ، والتحية والتأييد ، لا تواجه عدوا ،
بل تواجه الدواوين ، وتزف الحكام وترقص المدللين) ..



وفي مقال (أيها الشباب .. حرم الزينة على نفسك ! -
عدد ٣/٦ سنة ١٩٣٩ - عالج (القصة) بأسلوب هو مزيج من
الفصحى والعامية الموحية ، صور فيها بؤس الفلاح ، واسراف
السياسة المتكلمين باسم الفلاح (بلا مذهب في الحياة خاص ،
ولا خطة في العمل ، ولا هدف كريم لمستقبل الوطن ، ولا تجارب
معينة لاسعاده) ..

وينصح الشباب بـ: لا يقدم شيئا على اعداد نفسه وتكونه
العلمي ، الا ان تكون الكرامة الوطنية مهددة ، فلا يصفى الى تبار
السياسة ولا يفكر في الحياة الاجتماعية المصرية من الناحية التي
تمسها دراسته وتكوينه ...

وختم (هتافاته) بدعوة الشباب الى تقديس الوحدة
الاجتماعية - عدد ٣/١٣ سنة ١٩٣٩ :

(لا تجتمع هنا ، وتتخذ الشعارات ، وتؤلف الجماعات ،
وتتبع الأحزاب في المدن ، بل هناك ، فاجمع صفوفك على
المسطبة ، وفي المضيقة ، او الدوار ، وفي الجرن ، او حول
الساقية ، او على التربة ، في المسجد ، او في كتاب القرية ،
تتألف هيئات الشباب العامل لحياء الموتى من آباءه وأقاربه ..
هناك فبحوا أصواتكم ، وأتعبوا سواعدكم ، وتصيبوا عرقا
واعدوا مسرعين ، لا في الهتاف ، وتوطئة الأكتاف ، وفقدان الكرامة
واهذار الشخصية) ..

جماعة حياة القرية :

وظل ايمان الأستاذ الخولى بإصلاح القرية يقوى ، وأخذ فكره يعمل فى سبيل هذا الإصلاح ، حتى أصبح (الريف عند صاحبه هو مصر كلها .. ان تكن فيها مشكلة فلا مشكلة اسبق من مشكلات الريف وان يكن فيها اصلاح فلا اصلاح أوجب من اصلاح الريف ، وان يكن فيها خير فلا خير اوفر من خير الريف ، بل ان يكن فيها صناعة فلا صناعة أثبت مما يعتمد على الريف ، وأن يكن فيها فن ، فلا فن أصدق من فن الذين يحسون الريف . وان .. وان .. الى مدى بعيد) (١) .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى ، حتى تشكلت (جماعة حياة القرية بشوشاى) حوالى عام ١٩٤٥ ، ومن أبنائها المثقفين حيث كانوا ، وفي أى مراحل الثقافة ، منذ سن التمييز ، وانضم اليهم مجربو الحياة ، من ذوى الثقافة المختبرة للدنيا ، ولم يسعفها فك الخط .. وشارك فى ذلك من يتولى فى (شوشاى) عملا ذا صبغة ثقافية ، ومصالحة اجتماعية .. وعملت لتدنى اليها البعيدين من أبنائها الذين لهم فيها عمل فنقل اليها من نقل من معلمى الالزام ، وقرب منها من قرب من معلمى الابتدائى ، واتصل بها قدر الاستطاعة ذوو العمل البعيد فى القاهرة او غيرها ..

فكانت هذه الجماعة فى شوشاى (١) فرعا او فروعاً من شجرتها ، وهى التى تهزها وتحركها بحكم صلتها بها ، وتجاوبها التام معها ، ومعرفتها موضع المهام .. فهى رغم كل شيء ، ورغم انها

(١) ذكريات وآلام من الريف - الادب - اكتوبر عام ١٩٥٨

مسجلة في وزارة الشؤون التي فتشتها ، وأن هذه الوزارة لم تساعدنا بقرش واحد طوال حياتها هذه . . . رغم ذلك وغيره . -
تمضي ثابتة الخطوات مستبشرة عاملة ، تكسو وتؤكل . . . وتصلح وتحكم . . . وتعالج وتدفن . . . وتقرض وتساعد بمجهود غير صغير .
(فجماعة حياة القرية هي الهيئة التي أراها ، ولعلك تراها معي هي الفرع الذي يهز شجرة القرية ، وهي الهيئة التي يمكنها أن تحدث في حياة الريف أثرا فعلا بعيدا عن الديوانيات والاجراءات والشكليات ، لكن على شرط أن تبعد هذه الجماعة نفسها عن السياسات والحزبيات والانتخابات . . . وعلى شرط أن تترفع عن الخصومات والخلافات . . . (١)

وفي ميدان التروية والتجربة ، لحياة القرية (كانت مشروعات لسد باب الربح أو الطب الوقائي ، رتبت الأمور حسب أهميتها السياسية ، فجعلتها على هذا النسق :

رفع مستوى الدخل لهؤلاء الأهلين ،

اصلاح الممكن ،

كفاية التغذية ،

تيسير الكساء .

ثم يلي ذلك وينبنى عليه ، اصلاح المعنوى للعقول والأخلاق والنفوس . . .

ويذكر الأستاذ الخولى من مشروعات (حياة القرية) التعاون

(١) جريدة المصرى ١٤/١٩٥٣ . . .

الزراعى بين أشخاص متعاونين متجاورين وبدلت جهود للاقناع
به

واحياء صناعة النسيج ، ولها أساس فى القرية يمكن به
جمع نساجيها وأخذهم تدريجيا باستعمال الأنوال الجديدة، ونسج
الفلز الرفيع نوعا ما ، يدل نسج الدفية والبشت والحرام والحمل .

ونفذ مشروع محدود اسلفيات صغيرة بلا فائدة ، على سنة
أو سنتين تعتبر رؤوس أموال للأرامل ذات الأولاد ، فى تجارات
صغيرة ..

وفى كفاية الغذاء وتعويض نقصه كان استعمال المواسم الدينية
فى ذلك ، كموسم الصوم ، والانتفاع بمعنويته فى إثارة شعور
الواجدين ، ليبذلوا اذ ذاك طعام فرد ، فدية أو منحة ، أو يعطوا
مايزيد عن ذلك حسب درجة شعورهم ..

ومن العمل لكفاية الغذاء انشاء أبراج للحمام ، يباع من
حمامها للأهالى بسعر رخيص ، على أن يذبح لهم ما يشترونه
لئلا يتجروا به ..

ومن ذلك انشاء منحل يبيعهم العسل بثمان معتدل ، ربما
وصل الى النصف ..

ومن الطيب فى كفاية الغذاء تربية نوع السمك يسمى
(المبروك) يتغذى على البعوض ، فيفيد صحيا ، وينمو نموا
سريعا ، ويتولد كثيرا ، حتى يغل الفسادان منه أكثر من ثلاثين
جنيها ، وهو علاج مؤقت للبرك اذا تعذر ردمها ، فيمكن زيادة مائها
ونقل هذا السمك اليها ..

كل هذه وسواها من - المشروعات لسد باب الريح ، اى للطب الوقائى ، تحمل تفصيلاتها مجالس الجمعية العمومية (لحياة القرية) ، ويحتفظ الممارسون لذلك نتائج التجارب ، ومواضع الحروق التى لم تسد ٠٠٠ (١)



هذه تجربة خيرة كبيرة تحدد مجالا من المجالات العديدة التى اخلص لها الأستاذ الخولى فكره وجهده ، وتصور لنا قوة اخلاص هذا الرجل للأرض التى نمته وشدة ارتباطه بها ، حتى أصبحت مصريته أقوى نشيد ذابت الحانه المقدسة فى كيانه مع كل نسمة وكل شربة وكل لقمة ، وانطلقت على لسانه أغاريد فى كل محفل وكل كتاب ..



واذا نحن اصفينا الى الأحاديث التى أذاعها ما بين سنتى ١٩٣٧ - ١٩٥٢ ، يتجلى لنا تعمق هذا الرجل مشكلات بلادنا ، بل امتنا ، وقدرته على إيجاد حلول لهذه المشكلات ، وخبراته فى عرض هذه الحلول ، متخذاً من الهدى القرآنى ، ومن القيم الروحية ، والمثل الاسلامية ، زاده الكبير ، وحججه التى لا يأتىها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها تنزىل من حكيم حميد ..

ولصلته بالاذاعة قصة .. فهو يقول عن نفسه :

(طلبت - الاذاعة - الى أحد الأساتذة الجامعيين عام ١٩٣٨ أن يذيع ، فكان جوابه :

(١) المصرى فى ١٩٥٣/٨/٨ .

انا .. انا .. لا يمكن ان احط وشى فى المحيط ، واقول :
توت بأى ثمن .

ولأمر ما الحت الاذاعة طوال أشهر على هذا الأستاذ أن يذيع
فاشترط لذلك ألا يذيع إلا أحاديث تناسب ما يمثله العارفون
لمستوى الأستاذ الجامعى وما يصح أن يسمع منه ، وينسب اليه
وقبل أصحاب الأمر ذلك ، ومضى الأستاذ يذيع سنوات ، كثر ما
طلب خلالها أن يعفى من النحدث لأنه شاعر بفربيته بين ما يقال
ويعاد . فلم يعفه القوم حينئذ ، بل قالوا : لو كنت تذيع لخمسة
أشخاص فقط لكان ذلك عندنا كافيا ..

وشعرت الصفوة المثقفة من أحاديثه بما شعرت ، حتى
كتب اليه أحد اعلام القانونيين ما معناه ، لقد مضيت أفهمك
بأذننى شهورا ، شعرت بعدها بضرورة أن أفهمك بعينى .. أى ان
يقراه ، ولا يكتفى سماعه .. (١)

السلام ..

كانت نذر الحرب سنة ١٩٣٧ مما يدعو الى اتخاذ السلام
مجالا للتحدث الى الجماهير ، لأنه ارادتها وخيرها ، ولما كانت
هذه الأحاديث تدور حول شعار الاسلام (السلام عليكم) فقد
بين لنا الأستاذ الخولى فى حديثه الأول (السلام تحية البشرية
وشعار هذه الأمة) انه يريد التحدث (عن الحياة الفاضلة الخيرة
كما يرسمها القرآن الكريم) .. ورسم لنا هدفه من هذه الاحاديث
بقوله :

(١) الأدب - يونيو عام ١٩٥٧ (فى الاذاعة .. ذكريات) وتاريخ اتصاله
بالاذاعة اختلف تحديده فى أكثر من كتاب بين عام ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ولعله أواخر
عام ١٩٣٧ .

(نريد لنتفهم أغراض القرآن البعيدة ، ومراميه السامية ، فلا نكتفى بالفهم السطحي لمعانيه ، ولا بالتفسير البسيط لمفرداته ، لأن لهذا الكتاب المعجز مغازى حكيمة في اختيار اللفظة ، وتأليف الجملة . . على أنا لن نأخذ في ذلك ان شاء الله الا بما تحسه الفطرة النقية ، وتجده النفس الحساسة ، من قرب ، وفي سهوله . لن نأخذ بشيء من التلطف ، ولن نقصد الى شيء من الاغراب أبدا) (١) . .

وعلى هذا النهج بين لنا الاستاذ الخولي (كيف راض القرآن الحياة ؟ كيف دبر لها طريق الوصول الى غايتها السليمة التي أحبها لها ، ومناها بها ؟ وسبيل معرفتها لطريقة القرآن ، في سياسة الحياة وتنظيمها ، أن نعرف أولا : كيف أفهم القرآن اهله تلك الحياة ؟ كيف دلهم على طريق النجاح فيها ؟) (٢)

كما بين لنا أن ما حاوله من التحدث عن القرآن ، وما عرض له من موضوعات ، وما تناوله من أسلوب :

(ليس قريب المراجع ولا موفور المصادر ، ولا يسير الشأن على أنا ، بل هو كاد مجهود . . . ولكن ، لماذا أحاول هذا مادام شأنه كذلك عند عامة الناس ، ومادام غير ممهد ولا مقرب لي ؟ لا أتردد حينما أجيب عن هذا السؤال في أن أقول جهره ، وبكل صراحة ، انما يدفعني الى ذلك ان الثقافة الدينية الاسلامية في

(١) الجديد والسلام ٠٠ واقع ومثال - دار المعرفة عام ١١٦٠ - ص ١١٣

(مع تصرف يسير) .

(٢) المصدر السابق - صفحة ١٢٧

مصر - بل في العالم الاسلامى كله - تحتاج الى مثل هذه
المحاولة (١) . .

وفي حديثه عن السلام شعارا أورد رأى المحدثين والقدامى
وتعرف على احساس اللفظة بلفظ السلام ، ونظر فيما يوحيه
استعمال القرآن الكريم للفظ السلام ، والاحساس الذى يريد
الاسلام أن يؤصله فى قلوب المسلمين حين يورد هذه اللفظة ،
وحين يؤدبهم بهذا الادب . .

(هذا الاسلام الذى لقى الاعتداء بالاعتداء ، فامر بالقتال
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، هو هو الذى يهتدى
من اتبع رضوانه سبيل السلام ، وهو الذى جعل السلام شعار
هذه الأمة .) (٢) واتخذ الرحمة الوجه الثانى للسلام شعارا
آخر ، فالقرآن (بدؤه كل عمل بالرحمة ، وهو بكل أولئك يغرى
الانسان بالسلام والرحمة ، ويهتف به ليسمو الى ذلك فى فهم
صحيح للواقع وإدراك دقيق لحاجة الحياة الحية) (٣) . . و (ان
النظرة الفاحصة لهذا القرآن لتدلنا على أنه يصرح أن الحياة
منظمة بنواميس عملية . مضبوطة بنظم واقعية خارجية ، والنجاح
فيها ، والظفر بخيرها ، والنصر فى جهادها ، إنما هو مرهون
بعميل العامل الخارجى ، مترتب على كفاية الفعلى ، رتبط
بإدراكه الصحيح بواقع الأشياء الكونية ، وتقديره السليم لنظم
هذا العالم وتدابيراته) (٤) . . ومن ثم فان (التأليف بين

(١) الجندة والسلام - صفحة ١٢١

(٢) المصدر السابق - صفحة ١١٩

(٣) نفسه - صفحة ١٢٦ .

(٤) نفسه صفحة ١٢٧ .

قضيتهى السلم والحرب تأتلف الشخصية الصالحة فى نظر القرآن فتكون رجولة حازمة ، عزيزة الجانب ، موفرة القوة ، كاملة العدة ، تامة اليقظة ، صحيحة الشعور بما حولها من واقع الحياة ، صامدة الابتلاء ، على أن تحمل قلبا نقيا تقيا ، قوى الاحساس دقيق الشعور ، خيرا انسانيا ، طامحا لروحانية سامية ، يلقي الجاهلين بالسلم - ما استطاع - يحيا للسلم ، داعيا له دعوة القرآن الى دار السلام) ، حتى يحقق سعادة البشرية ..

القادة الرسل ..

فلما اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، واشتدت ضراوتها ، واصاب مصر منها فى الزعماء أكثر مما اصابها فى الانفس والأموال ، وتكاثف الضباب ، وابهم الطريق ، وحار الرعاة بين سالك الى الحكم بدبابات الانجليز ، وداع الى الاستقلال تحت راية الالمان ، ومعلن حربا لا يملك من مقدراتها الا لفظ الاعلان ..

لما كانت الامور من النزق والطيش والتخبط بحيث سارت الجماهير تهتف (لروميل) أن يدق أبواب مصر ، وعلى وعلى أعدائى - احس الأستاذ الخزلى أن مصيبتنا فى قادتنا ، فلو قاد هذا الشعب المضيق قائد مكتمل أسباب القيادة الحازمة الرشيدة الأبية لكشف عن الجوهر الحر الأصيل لهذا الشعب العريق ، وبصره بما يملك من قيم ومناهج لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وخطا به الخطوة الصحيحة الى الخلاص والنصر ، دون أن يستبدل جلادا بجلاد ..

ومن ثم التمس فى أحاديثه - ما بين ١٩٤١ - ١٩٤٢ -

هدى القرآن فى تقدير قيم الأشخاص والأشياء والأعمال ، ووزن البواعث والغايات التى ينبعث الناس بها فى حياتهم . ويصدرون عنها فى تصرفهم ، ويرمون اليها فى سلوكهم ، ويجعلونها هدفهم فى سعيهم . . . فقد اضطربت فى ذلك الأهواء ولاذ الناس فى تقديرهم وتأثرهم بأحكام ومذاهب أبت إلا أن تقيس كل ما فى الوجود بالعروض والنقود (١) . .

وان الإنسانية ما خطت خطوة واحدة فى سبيل رقيها إلا على يد أولئك الذين استهوتهم اللذائذ الراقية ، فنسوا أنفسهم ، وسعدوا بخير من حولهم (٢) . .

بعد أن تمثلوا بالسلوك القرآنى النبيل (أن أجرى إلا على الله) . . (لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) . . (أن هو إلا ذكر للعالمين) فلا تكالب على خزائن الدولة ، دون تصنيع ولا استثمار . . ولا ارتماء فى أحضان الأعداء ، دون خجل أو استحياء . . ولا تمرغ فى سبيل الألقاب ، تأخذهم العزة بالاثم ، والتفاخر بباطل من القول وزور . .

فى رمضان . .

وخلال ثمانية عشر عاما (١٩٤١ - ١٩٥٨) كان للاستاذ الخولى أحاديث فى رمضان عن رمضان ، يتقبلها أولئك الذين لا يعرفون الطريق إلى المعابد ، يحسبون أنهم شبوا عن التلقين الإيحائى ، وجاوزوا دور الغيبية المقلدة ، وفاتوا طور السداجة

(١) القادة الرسل ط دار المعرفة سنة ١٩٥٩ - ص ١٤

(٢) المصدر السابق - صفحة ٢٢ .

التي تنومها الترنيمات البدائية ، في عباراتها الزخرفية الخاوية
المحنتة (١) . .

وقد قال في فلسفة الجوع بعدما فند آراء الفقهاء والمتصوفة
فيما جاء في القرآن ربطا بين الجوع والحرمان والتهديد ، وبين
الاطعام والانعام والمن .

(ان هذا الجوع ليس منح الصوم نفسه ، وليس من الصواب
أن يكون الجوع طابع الصوم الظاهر عند المتكلمين في الحكمة وفضل
الصوم . . وحبذا الصوم امساكا عن جميع الأهواء والأخطاء
والعوائد الواهية ، والفاسدة . ليكون الصوم رياضة مصلحة
للنفوس ، مجدبة على الفرد والجماعة ، مروضة على مالا يسهل
الارتياض عليه في سائر الأوقات ، لضعف ، أو إهمال ، أو عدم
رقابة . . فيكون رمضان وسيلة الى التقوى التي رجاها القرآن
وختم بها آية هذا الفرض ، (كتب عليكم الصيام ، كما كتب على
الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون) (٢) . .

ان هذه المشقة - مشقة الصوم - لا تراد لذاتها أبدا ، وانما
هي تدريب للقادرين الواعين المكلفين ، المستفيدين منها ، فاما
صوم ترجى معه التقوى ، فهو يصلح النفوس ، ولا يفسد
الاجسام - ، وأما لا . . - (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم
العسر) (٣) . .

ليس هذا الموسم السنوي للصوم هو الذي ربطت به الضريبة

(١) في رمضان - ط دار المعرفة سنة ١٩٦١ م - ص ٥

(٢) المصدر السابق - ص ٤٧

(٣) نفسه - ص ٨٤

الثانية من ضرائب الأخذ فى الاسلام ، من الواجد ، لاعطاء الفاقده
ألا وهى صدقة الفطر ، بعد زكاة المال ؟ . .

من أجل ذلك كله - مما يصيق عنه الوقت والقول - أشعر
أن الهدف الاجتماعى لهذا التدبير التعبدى فى رمضان ، أنه موسم
خير ، يقام سنويا لعلاج مشكلة الفوارق ، وتذليل مصاعبها (١) .

لذلك . . أدعو الى أن يكون رمضان فى هذا الشرق موسم خير
سنوى ، يدبر له التدبير الناشط الذى يردده موسما ناجحا ، بعيد
الأثر فى حياة جماعة ناهضة ، تلمس القوة والعزة . .

وكذلك دعوت من قبل الى أن يكون احتفالنا بمولد الرسول
عليه السلام عملا شاملا ، فنجعل يوم المولد هو يوم اليتيم ، وعيد
اليتامى ، حتى ليعتمد المصلحون العاملون عليه فى حل مشكلات
اليتامى (٢) . .

فى أموالهم . . مثالية . . لا مذهبية . .

وفصول هذا الكتاب أحاديث اذاعة تباعدت سنوها -
١٩٤٤ - ١٩٥٢ - فشغلت نحو ثمانى سنوات ، واتحدت فيها
الفكرة ، وثبتت الخطة ، واتصل التنبه .

لم يمسسها تغيير ولا تبديل ، الا شئ من وصل النص بعبارة
أو بعض عبارة ، يكون قد محل لونها فى الصورة المكتوبة بالكوبيا ،
أو لم تدق وقتها ، أو قد غيرها من الليالى والأيام . .

واحتفظت هذه الفصول من خصائص الحديث بشئ أو

(١) فى رمضان - ص ٥٥

(٢) المصدر السابق - ص ٦٣

أشياء في عبارتها ، مثل : معاودة التلخيص لما سبق ، ربطا للموضوع
وتثبيتا للمعنى . ومثل التوسع في التعبير ، لئلا يفجأ الايجاز من
يصغى الى الحديث ، فيضيع عليه شيئا من المعنى ، يفلته ، تعبير
لم يلاحقه . .

وما حذفت منه شيئا الا هتافات بالمستمعين تحية ولفنا ،
لم أر ضرورة لتوجيهها الى القارئ المستجمع النشاط . . (١)

والمقدمة تشير الى سبق الاستاذ الخولى بالدعوة الى ضرورة
العلاج الاجتماعي ، على (أن يؤخذ الناس بالنظم التي تجعل في
المال تلك الحقوق المعلومة التي أساسها : أن المال في خزانة الله
وانهم ينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه ، ويؤتون من مال الله
الذي آتاهم . . (٢)

ولكنه مع ذلك يستنكر أن (يدخل . . القرآن - بذلك في
مشكلات اقتصادية ومذهبيات اجتماعية ، يزيد بها الآراء رأيا ،
والمذاهب مذهباً ، ويدعنا في حيرة لانعرف الأصوب والأصلح (٣) .

ويبين أن القرآن (يتناول الكليات والمبادئ ، لا الجزئيات
والفروع) ويجب أن يفهم (الاعجاز القرآني فهما منضبطا محدودا
مرتهدا بالدلالة اللغوية الواضحة في تطور معاني الكلمة العربية ، ثم
بالإيحاء الفني للفظ الذي تحددت دلالاته الأولى ، فحددت معانيه
الثانية ، وبما قرر السياق القرآني من أصل المعاني وكل ذلك يثبت
للاسلام في تدبير الاموال مثالية أوسع أفقا وأفسح فهما ، وأسمى

(١) صفحة ك من مقدمة في أموالهم - ط دار المعرفة سنة ١٩٦٣ .

(٢) صفحة ج

(٣) صفحة م

انسانية ، من تل ما عرفت هذه البشرية من حقوق افرادها
وكرامة أبنائها (١) .

وان كان الاسلام (بأصوله الواضحة ، الصريحة ، الكافية ،
الشاملة . يمنح هذه الاشتراكية قبولاً واعترافاً) (٢) .

(ولو أجملت خطة الهدى القرآنى فى مشكلة المال وغيرها من
مشكلات الحياة لاستطعت أن تردّها الى معينين ، هما :

(أ) تجربة دقيقة دائبة للحياة ، لمعرفة واقعها ، بعقل طليق ،
ودرس دقيق مستفيد من كل ما يعرف فى الدنيا .

(ب) شعور انسانى عميق رقيق ، يثيره وجدان متدين حساس ،
يجد ما تحسه البشرية فى أقصى أرجاء الكون) .

فالقرآن يحرص أول ما يحرص على أن يترك للعقل حريته
كلها ، فى مواجهة مشكلات الحياة وواقعاتها . . وذلك بأنه يترك
للمصلحة الواقعية الكلمة كلها ، ويدع للتجربة الفرصة كلها . .

وأساس ذلك كله انه لا يقدم تفصيلاً جزئياً لمشكلة من
المشكلات ، كمشكلة التملك أو غيرها ، على حين لا يرفض من قول
التجربة الصادقة ، وما تقضى به المصلحة الحقّة رأياً ، بل يتلقى ذلك
كله ، فى رحابة صدر ، تقدر التطور ، وتقدر ما يجد للناس ، من شئون
تتغير على الأيام ، وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، فلا يحدها

(١) صفحة ٥

(٢) صفحة ٩ .

تفكير عصر معين ، ولا يوقفها تحديد عقل بذاته ، في مستوى محدود ، ولا يعوقها الا يكون السابقون ممن فسروا الدين ، أو مارسوا التشريع ، لم يشعروا بها ، ولم تحتج اليها حياتهم في عصرهم . . .

ويحسن كل الاحسان في أن يجعل التدين ، والتأليه ، والمسئولية الآخرة عوامل فعالة في احياء الضمير ، وتقوية الاحساس بالخير والكرامة ، وتأسيس الشعور بالمسئولية على المراقبة الداخلية والرضا النفسى (١) . .

فأصحاب القرآن بهذا كله ، يدركون أن هذا الهدى الخالد قد عرف للبشرية حبها للتمليك ، فأرضاهم لونا من الارضاء ، يوفر ثقتها بما يوجهها اليه في تعلية هذه الغريزة . .

والقرآن حين يقصد الى تعلية غريزة التمليك ، وتوجيهها ، لم يعمد قط الى هذا القمع الكابت ، فلم يجعل المال لعنة ، ولا الغنى خطيئة ، ولا طرد الغنى من ملكوت الله ، ولا وجه الى الزهد المنقطع عن الحياة . .

(قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة الآية) . . . (٢)

وهو كدابه الذى أنسناه منه يجمع لين الواقعية والمثالية فى ذلك التدبير جمعا لبقا مرنا ، مسايرا للحياة ، مهيئا للانسانية أسمى ما تستطيع التطلع اليه من المثال . .

(١) فى أموالهم - ص ٨

(٢) ص ٢٦ فى أموالهم - ص ٢٦ .

فهو حين يحمى الملكية الفردية واقى ، لا يفجأ الناس بتجريدهم من أموالهم تجريدا يفتر همتهم ، ويشنى عزائمهم ، ويقعدهم فلا يبتكرون ، ولا يجددون ولا يدودون عن حماهم .. ثم هو حين يهز أسس هذه الملكية الخاصة ، بما رايناه ، يكون مثاليا ، يكف من غلواء الأغنياء ، ويزلزل صلتهم بأموالهم ، ويجعلها للناس جميعا ، هم عليها أمناء مستخلفون وهى مال الله لا مالهم .

(وفى أموالهم حق معلوم ، للساثل والمحروم ..) وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) .

بهذا التعديل الدينى الأساس السماوى الصبغة ، الالهى الروح ، يوقيهم أخطار الجموح فى التملك ، والوصول اليه بأى وسيلة واهدار الخلق والفضيلة ، والاسرف فى التمتع ، ونسيان حق الجماعة ، أو حق الله الذى هو صاحب المال .. (١)

فى مجلة الأدب ..

وتابع حملاته التطهيرية الاصلاحية فى مجلة (الأدب) - التى تحمل رسالة الفن والحياة كلما وجد الى ذلك سبيلا ..

فهو فى مقال (معالم) عدد أغسطس سنة ١٩٥٧ - يحمل على صحافتنا حملات قاسية متتابعة ، لأنها :

(سجدت لكل وثن ... وقربت لكل صنم ... ورقصت أمام كل زفة .. وهيات للطغيان ، وخلقت الطغاة ، من الهيئات والأفراد .. تؤكد وتقسم على مارأى الناس رأى العين كذبه وزيفه وتحبذ وتمجد ما علم الناس علم اليقين خطأ وضرره ..

(١) المصدر السابق صفحة ٣٣

وتجسد من الوجوه والالوان ما تلبس وتخلع بين طرفى
نهار) ..

ويقول فى حق الأدب والأدباء على الدولة - نوفمبر سنة ١٩٥٧ :

(لا تشتتر رقبتنا - يا سيدى - بما تذكر من المال ، وما تعد
من الآلاف ، بعد حرفة الأدب وبؤس الأدباء .. ان ما تعيرنا به
من هذا لم يكن الا صدى ل حال عامة بائسة ووضع اجتماعى
فاسد .. وكان فى الأدباء انفسهم من ناضل ضده وحارب معالنا ،
حين سكت من سواهم جميعا ..

.. قدع عنى حديث أذل الذى يشتري كل شيء ولا يستطيع
ابدا أن يشتري شيئا من الفن ، الا بعد ان يموت فيه كل معنى
من الفن) ..

وفى يناير سنة ١٩٥٨ يستنكر موقفنا من العلم وأن يكون
كل جهدنا أن نصفق لنجاح الآخرين ، (كالأغوات تفرح بأولاد
أسيادها) ..

وتحدث عن (نقائصنا) - مارس سنة ١٩٥٨ - فقال :

(نقائصنا جميعا من ارادة منحلة ، وخيرية ناضبة ، وتقدير
للمسئولية معدوم ، وشعور بالوحدة مفقود ، وأناية غالية ،
ورجمية سائدة ، وما تعد ، ولا تحصى ، من آفاتنا ، لا ترجع - فيما
نؤمن به حقا - الا لحرماننا من التربية الفنية) ..

واقترح - فى أبريل سنة ١٩٥٩ - أن يؤلف أهل الآديان
جميعا (هيئة كعصبة الأمم التى كانت وقتها صوت التعاون بين
الضماير العالمية على تخفيف آلام الانسانية التى ترزوها بها

السياسة والسياسة .. واقترح أن تكون عصبة الأديان قوة متعاونة متفاهمة بين أهل الأديان في كل مكان على منح الحياة كل ماتستطيع الحقائق الدينية الكبرى المشتركة فيها جميعا أن تمنحها به راحة وسلاما وسعادا ..

ثم تكلم - في ديسمبر سنة ١٩٥٩. عن مقاييس تقديرنا - وبخاصة في الجامعة - التي أصبحت حبرا على ورق :

... (ومقياس التقدير لقيمة الجهد النظري ما اشترطته الجامعة منذ بعيد في رسالة الدكتوراه وهو :)

((يجب في الرسالة أن تكون عملا ذا أهمية ، يشهد للطلاب بأبحاث شخصية ويأتى للعلم بفائدة محققة)) .

لكن كلية الاداب منذ انشائها حتى سنة ١٩٣٢ لم تقدم فيها رسالة أدبية للدكتوراه ..

واذا الملك فؤاد يرغب في زيارة الكلية ، وفي هذه الزيارة ينبغي أن يمنح الملك درجات جامعية ، ليتم المظهر التمثيلي في ميدان الثقافة والعلم .. فما العمل ، وليس في الجامعة درجة قد منحت منحاً طبيعياً على أساس التقدير الصحيح والوقت ضيق !) ..

ويحكى من أحداث (الجامعة) ما ليس من التقاليد الجامعية في شيء ..

وبسبيل من حكمانا عن الجادة ، يتناول الأستاذ الخولى فبراير سنة ١٩٦٠ - لجان جائزة الدولة التشجيعية .. ويغلب على الظن أن التناول كان بخصوص كتاب المحاكاه لأرسطو ترجمة أستاذة جامعية ، وقد رشحه للجائزة الدكتور طه حسين ،

وعارض الأستاذ الخولى كل المارضة ، لدرجة التهديد بنشر كل ما جرى فى الجلسة ، فلما قيل له ان الجلسة سرية ، ويجب ألا يذاع ما يجرى فيها ، قال : ان اللجنة فقدت حرمتها بهذا العبث .. هكذا حكى أحد الثقات ..

ويعود الى جوائز الدولة مرة أخرى - أبريل سنة ١٩٦٠ -
فيقول .

(أى تقويم هذا الذى يكتب فى سطر ونصف ، نصه : « حاول فى كثير من التوفيق أن يعرض اللغة العربية موضوعا ليس مألوفا فيها ، ولا سيما فى العصر الحديث » ؟! وهذا هو كل حيثيات الحكم بجائزة تشجيعية ... كثير من التوفيق .. وموضوع ليس مألوفا . . . قاي حيثيات هذه .. وأى حكم ؟! .

والأمر فى الجوائز التقديرية أشد .. فالحيثيات كلام عام من صنف عجيب .. مثل ، فلان رجل فى أمة ، وأمة فى رجل !! وهو صاحب العلوم الاجتماعية لأنه عذب الحديث صافى العبارة !! وأدهش من ذلك أنه منطقي كأنها كانوا يخافون ألا ينتظم التفكير ويسلم !! ومن المدهش دهشتهم من آثار صاحب الأدب .. ولدهشتهم لم يبحثوا فى شىء يبين القيمة الممتازة ، ونواحي الابتكار أو بحثوا وهم دهشون فكان النفع للوطن والانسانية هو تحبيب النشء فى ادبنا حتى يقولوا بدهشة !

وأى نفع أعظم من أن يفتن النشء الى مزايا ميراثنا الأدبى ؟

وبالضرورة .. فان انحراف النقد والتقويم عندنا يؤكد شدة حاجتنا الفنية - حتى نحمل وجودنا من الطفيلان والفساد والبغاء الفكرى - الى (شخصية وجدانية .. واضحة الشعور بذاتها .. قادرة على التعبير عن نفسها) ..

وأقوى وسيلتنا الى ذلك - كما يقول فى يناير سنة ١٩٦١ -
هو معلم لغة وأدب ، تكتمل له الشخصية الوجدانية ويتضح فيه
المزاج الفنى ، ويستطيع التعبير عن ذاته) .

.. ذلك لأن السياسة (نوفمبر سنة ١٩٦١) .

(انما هى فى جملة امرها ليست الا هوى محتكما تسانده
قوه باطشة ، وما كانت الحياة من الهوان بحيث يضبطها هوى
وتصددها قوة لا عقل لها .. فكيف بحكمتك هذه السياسة واهلها
ومذاهبها ، ودولها ، وأسرها ، وخططها وأساليبها مدار حياة ،
ومفترق طرائق ، ومعالم تطور فى الفكر أو الفن !؟) ..

ثم يتناول مستقبل الاشتراكية - فبراير سنة ١٩٦٢ - بقوله :

(احسب ان هذه اندعوة الاشتراكية التى انطلقت اليوم
يكون بها التعادل وعندها التلاقى ، وفيها التسديد .. والصون
والكبح .. وان لها فى ذلك لجولات فى الغد ، تقرر الأمر ، وتصحح
الوضع ، وتنهى الحبث ، وتذهب الزبد .. واما ما ينفع الناس
فيملك فى الاض) ..

اما عن ولاية المرأة - أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٢ -
فيقول ،

((امرأة وزيرة خطوة تطور ، يجب ان يكون اصحاب (الفن
والحياة أقدر الناس على فهمها .. وفلسفتها .. وتاريخها ،
لأنهم أدق الناس شعورا بما يكون حين تصبح المرأة وهى مهد الحياة
مدبرة مع ذلك للحياة ، وتمسى المرأة ملاك الفن ورائدة فى ركب
الفن والعلم والعمل) ..

وعلى ما جاء في الأهرام (١٦/٦/١٩٦٤) من تقرير
لجنة الخطّة والميزانية : (لا سمحنا إلا أن نرفع أيدينا ابتهاجا
وامتنانا ، ونحني هاماتنا شكرا وتقديسا) - بقوله :

(يامغيث .. ابتهاج .. وتقديس ، تحت قبة البرلمان !!
فماذا تحت قبة الحسين ، والسيد البدوي وسيدى ابراهيم لهذا
من تداعى المعانى جرى القلم بهذا العنوان عن ميكروب الوثنية
.. فالوثنية الاجتماعية والسياسية ، كالوثنية الدينية ، اعتقادية
وعبادية ، كلتاهما تجسيم ، وسطحية ، تعوزها الآفاق السامية ،
والمعاني الكريمة ، فنلوذ بالشكليات والمادية ..

ولئن كانت الانسانية على طول التاريخ قد شقيت بالوثنية
الاعتقادية وتفاهتها ، فانها لأشد شقاء بالوثنية الاجتماعية ، وانها
لاعتف شقاء بالوثنية السياسية خاصة ، لأنها تفسد في النفس
كل مقومات الشخصية وكرامة الحرية) ..

واراد الأستاذ الخولى السفر الى الخارج للعلاج ، بعدما
أصبح (شيخا فوق السبعين ، أماته الطب هنا ، واقبره غير
مرة .. فأحياءه الطب هناك وأنشره كل مرة .. ولو سمعت
تشخيصهم هنا لفزعت وجذعت : وحسبك أن كان منه السرطان
في الأمعاء ، وعليه جرى فيها ما جرى من التحويل والقطع ،
والوصل ، بما لا يجرى في تفصيل مواسير مياه .. وهم ذلك
الشيخ على كبرته وخبرته وعلمه وتجربته أن الأفكار والمشاعر
تسوى بالحناجر والخواصر ، فراح يطلب سيفرا ، بشهادة
من اطب هناك ، ليظفر بشيء هنالك من احياء وانقاذ .. وأحيل
الى مايسمى حتى اليوم القومسيون الطبي) .. وجاء الشيخ
خطاب القومسيون الطبي بان يحضر في التاسعة صباحا ، فاذا

هو في انتظار الاطباء حتى الواحدة ... واذا هو يصرخ في بهو القومسيون :

(لو كنت حمار سباح ماعطله صاحبه اربع ساعات يشيل فيها .. ! غبيط)...

وتذكر (اعلان المحكمة الذي يعجىء دائما بطلب الحضور في الساعة الثامنة صباحا .. وقد يكون رقم القضية مائة او مائة وخمسين ، لو حسب لكل واحدة منها دقيقتان لما جاء دور القضية المائة الا بعد أكثر من ثلاث ساعات .. لو حسبت في مصر ١٠٠ محكمة في كل واحدة ١٠٠ قضية لكانت عشرة آلاف ، في كل قضية ٣ اشخاص ، فتكون ثلاثين الفا في اربع ساعات فتكون مائة وعشرين ألف ساعة في يوم واحد .. لو حسبت يوم العمل سبع ساعات لكانت سبعة عشر ألف يوم ومائة يوم وكذا ، فاذا حسبت شهر العمل خمسة وعشرين يوما غير الاجازات ، فسنة العمل ٣٠٠ يوم ، فتكون هذه الآلاف من الأيام ٥٧ سنة من حياة عامل .. أو سنة من حياة ٧٥ عاملا ، من أبسط مستويات العمل الى ادقها ..

ولو حسبت أن في المحاكم دوائر مختلفة ، يعمل منها أكثر من دائرة في اليوم لتضاعفت السنون عن يوم واحد !! .
ولو حسبت أقسام البوليس وما فيها من طرائف ذلك لزادت الأضعاف أضعافا ..

ولو حسبت ١٠٠ مستشفى فقط يجرى فيها مثل هذا ..
ولو حسبت .. ثم حسبت .. لكانت سنين من الأضاعة والاهدار والاختار حين يرن الهاتف بشهر الانتاج ، والله يعلم بما وراء ذلك الهتاف !!) (١)

(١) شهر انتاج ، وسنين ماذا ؟ - الأدب - يولية سنة ١٩٦٥ .

مجلة الأدب

بعد أن فرغ الأستاذ الحولى من أعباء الوظيفة الحكومية ،
ببلوغه سن الإحالة الى التقاعد ، جعل يعد العدة لإصدار مجلة
(الأدب) تمتص فائض نشاطه ، وتكون لسان الأمناء .

(أمانة مؤداة .. ورسالة مبلغة .. تتصرف الأرواح ،
تطهرها .. وتتنور الأفتدة تزكيا .. وتلمس الأمزجة ، ترفها
فتهىء بذلك أشخاصا كراما على نفوسهم .. لا يحيون الا حياة
كريمة (١) ..

ومنذ العدد الأول - مارس سنة ١٩٥٦ - الذى حمل
شعار زهرة اللوتس ، متوجة بهلال ، مكتوب فيها لفظ الأمناء
تعرف القراء الى أهدافها .. فهى تؤمن بمكان الفن فى الحياة ،
وتقدر واجبها فى سبيل النهضة الأدبية والفنية ..

تتمثل معانى الحياة ومعنوياتها ، فلا تعتر بغير رسالتها
الفنية .. ولن ترتزق بالفن ... ولن تتكسب بالصحافة ، ولن
تمد عينها الى شىء ما وراء أهدافها الأدبية (٢) ..

وظلت هذه الأهداف تعمق وتتسع ، مع عمق منزلتها من
نفوس القراء ، واتساع مجالها فى تاريخ الصحافة الأدبية التى
ابتدلتها تبعيتها ، ووقوعها تحت وطأة الارتزاق ..

وبهذا الفهم الواعى لرسالتها فى الحياة ، ظلت (الأدب) ،
(تشارك فى الحياة الفنية والأدبية مشاركة من يدرك فى وعى أن
هذه الفنون - أدبا وغيره ، ليست الا تفسيرا وجدانيا للحياة
يدركه أصحاب الفنون ، ويقدمه نشاطهم ، ليواجهوا به الدنيا

(١) الأدب - مايو سنة ١٩٥٦

(٢) الأدب العدد الأول - مارس سنة ١٩٥٦ .

ويسيروا المجتمعات ، في فهم واضح ، لسنة الحياة وقوانينها ،
التي تحكمها وتطورها ، وتجدها وهي بقطة مفتحة العيشين ،
على المثل الذي تنشده ، والأمل الذي ترقبه ، وهي في الوقت
نفسه ترى ببصيرتها ما ضيها البعيد والقريب جميعا ، حين ترى
حاضرها العميق الدقيق ، وصلة ما بينهما ، وتفاعلهما ،
وتأثرهما - (١)

.. وقد استطاعت خلال عشر سنوات أن تقدم لنا تقييما
كاملا للفن ، والنقد ، وأن تضع الاسس السليمة لتحقيق التراث ،
وان تفتح المجال امام الكثيرين من الناشئين الذين استحصدت
أقلامهم اليوم .. وقد حفلت بدراسات هادفة الى تعقيد القيم
الأدبية وتأصيل المناهج .. المسرحية عند أرسطو .. الوحدة
الفنية في الشعر .. التقاليد والموهبة الفردية لاليوت .. تفسير
حيوى لتطور الادب .. مقالات في النقد الادبي لاليوت .. اصلاح
النحو .. من وثائق التاريخ الادبي .. المثل الشعبي .. الشرق
الأدنى في الأدب الفرنسي ..

وخصصت اعدادا للنقد الادبي والشعر ، والدراسات
الأدبية من خلال طه حسين ، والدراسات الشعبية من خلال
بيرم التونسي ..

هذا .. وتطالعك أعدادها بأقلام الدارسين ، أمين الخولي
وبنت الشاطيء والأهواني وعز الدين اسماعيل وجابر الحيني
وعبد الله خورشيد ومحمد كامل جسين ومحمد مصطفى يدوي
ويعقوب عبد النبي ومحمد صقر خفاجة ونقولا يوسف وسهير
القلمساوي وأمين عبد المجيد ونور شريف وشكري عياد

وبثينة عبد الحميد وعبد الحميد يونس وعبدنان بن ذريل
ومحمد أبو سنه ..

ومن كتاب القصة عبد الغفار مكاوي وعبد الرحمن فهمي
وفاروق خورشيد وفاضل السباعي وحسن محسب ومحمد المندي
ومصطفى الأسمر وعبد الله خورشيد ومحمد الخضري عبد الحميد
وفخري فايد ..

ومن الشعراء فتحى سعيد ومحمد عفيفي مطر ورجب
اليومي ونجيب الكيلاني وأحمد كمال زكي وصلاح عبد الصبور
ومحمد إبراهيم الديب ومحيى الدين عطية وعبد المنعم عواد
يوسف وإبراهيم حماد وعلى حستن العزب وأنس داود وعبد بدوي
ومحمد الفقى وعلى الشباسبى والبلى عبد الحميد ويس الفيل
ومحمد الفيتورى وتاج السر الحسن واسماعيل عماره وكامل
سعدان ..

ومن المترجمين عبد الغفار مكاوي ومحمد عبد الله الشفقى
وأمين عبد المجيد ومصطفى الصاوى الجوينى ومهاجر شفيق
فريد ..

فضلا على نقد الكتب لبنت الشاطيء وتوفيق حنا وعلاء
الدين وحيد وحبيب الزحلاوى .. وأصداء أدبية لعبد المنعم
شميس ومذكرات لكامل سعدان وشعر شعبى لحامد الأطمس ..

واهتمت المجلة بتقديم صور مصرية خالدة من القديم
والحديث ، اذ (الاحاطة بما يحتويه العمل الفنى لا تيسر عن
طريق الوصف لأن العمل الفنى نفسه هو الوصف الوحيد الممكن
لما يحتويه) ..

ومن يطالع مجلة (الأدب) لابد وأن يؤخذ بالحاح الرائد
الشيخ على تبيان مفهوم الفن والنقد ، واللفت الى أهمية التراث

حتى ليخيل اليه أن هدف المجلة هو هذا دون سواه ... بل إن أهداف المجلة - التي سبق بيانها - لا تكاد تخرج عن هذا الإطار (الأمين) ، وما عداه ليس إلا صادرا عنه ، تابعا له ، مطبقا عليه ..

ولو استطاع باحث أن يتناول هذه المجلة بالدراسة لاستطاع - من خلال تتبعه لاهتمام المجلة بالناشئة في البريد الأدبي ، وفي التعقيبات على ما يصلها من الشعر والقصة والدراسات - أن يقدم لنا منهجا صحيحا للتقويم والتقييم ، منبعثا عن نفس شفة غنية رحبة ..

فاذا عرفنا أن هذا البريد كان يشغل من اهتمام الاستاذ الخولي ومن وقته وجهده ما كان يوفر له امكانية تقديم أضعاف ما قدم للمكتبة العربية - أدركنا أن نزعة (الشيخ) التعليمية وعاطفته التربوية ، كانتا فوق ماتحمل شيوخته ، فأجهدا أشد الاجهاد ، حتى سقط في الميدان ، يحمل قلعه الناصع الشباه ، يفرسها في قلبه ، ويكتب للناس من فيض حبه ومن يره يحسبه ابعد الرجال عن العياء ، وهو ينوء بأعباء وأعباء ، من داخل جسمه وخارجه ..

ومن ذلك ، فالعدد الأخير من (الأدب) يقدم بداية سلسلة مقالات عن مناهج الدراسات الادبية ، والمطبعة تعلن عن عدة كتب في طريقها الى القراء ، وما هي رهوس موضوعات في رأس (شيخ الأمناء) ..

واسلم (الشيخ الوديعة لبارئها ، بعد ظهر الاربعاء التاسع من مارس سنة ١٩٦٦ ، عن واحد وسبعين عاما ، ولا يجف المداد عن آخر ما كتب للخلود ..

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٥٠١٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠١١٨ - ٤

هذا الكتاب :

كان الأستاذ أمين الخولي أحد هؤلاء المفكرين الذين عبروا البحر إلى أوروبا واتصلوا بحياتها المتجددة . وظل على اتصال دائم بما يجري في مصر من مظاهر التجديد وما يدور بين المجددين والمحافظين .. من جدل .

ولقد كان يستغرق في الجدل استغراق الفلاسفة . وينفذ به إلى القضايا المطروحة فيدلّف إلى جوهرها ويختويها بثاقب فكره . ولقد رَفَدَه تياران كبيران . تيار الثقافة العربية الأصيلة وثقافة الغرب . فامتزجا نسيجاً فكرياً متسقاً ينظر به إلى قضايا البحث والدرس الفكري . ولقد تعامل مع التراث - شغله الفكري - فبين مدى حاجته إلى ما وصل إليه الفكر الانساني من علم ومعرفة حتى يؤتي ثماره ويظل على مدى الدهر قادراً على الحياة والنماء .

ولقد صنع بهذا التفكير العلمي مدرسة في البحث والدرس الديني والأدبي .. مدرسة لها تقاليدها الفكرية وأسسها المرسومة . وأعلامها فقلبت التربة وبذرت البذور وفاضت بالثمار .